رواية

أحلامٌ في حقبة حرب

سيرة الطفولة



نغوغي وا ثيونغو

ترجمة ريوف خالد

نغوغي وا ثيونغو

أحلامٌ في حقبة حرب

سيرة الطفولة

ترجمة ريوف خالد

أحلامٌ في حقبة حرب

أحلامٌ في حقبة حرب

تأليف: نغوغي واثيونغو
ترجمة: ريوف خالد

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-46-854-7

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2023

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@kalimat.ae
www.kalimatgroup.ae

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا
لنظام التصنيف العمري الصادر عن وزارة الثقافة والشباب
المرجع: MC-10-01-7128934
الفئة العمرية: جميع الفئات العمرية

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي:
Dreams in Time of War

إهداء

للشيخ ثيونغو، وكيمونيا، وندوشو، وموكوما، ووانجيكو، ونجوكي، وبجورن، ومومبي، وثيونغو كي، وابنة أختي نغينا، على أمل أن يقرأها أطفالكِ ويتعرّفون إلى جدّة أمهم وانجيكو وخال أمهم والس موانغي، المعروف بوالس الطيب، ودورهما في تشكيل أحلامنا.



وانجيكو وا نغوغي، والدة المؤلّف

"لا شيء يضاهي الحلم في خلق المستقبل".
- فكتور هيوغو، **البؤساء.**

"لقد عرفتُ
يا صديقي العزيز، من الكتبِ
عن رجالٍ يحلمون ويعيشون
يتضوّرون جوعًا في حجرة ظلماء
لم يقضوا نحبهم لأن الموت رديء
لم يناموا ليحلموا، بل حلموا ليغيّروا العالم".
- مارتن كارتر، **ناظرًا إلى كفّيك.**

"في الأزمنة الحالكة
سوف يكون ثمّة غناء أيضًا؟
نعم، سيكون ثمة غناء
عن الأزمنة الحالكة".
- برتولت بريخت، **موتو.**

بعد مرور سنوات على الحادثة، صرتُ كلّما قرأت سطر تي. إس. إليوت القائل بأن نيسان أقسى الشهور، أتذكّر ما حلّ بي في يوم نيسانيّ من عام 1954، في ليمورو الباردة، المقاطعة التي عزلها إليوت آخر، وهو السيّد تشارلز إليوت حاكم كينيا الاستعماريّة فأصبحت "وايت هايلاند [المرتفعات البيضاء]". ظل ذلك اليوم يعود إليّ، بآنيّتهِ، ساطعًا.

لم أتناول الغداء في ذلك اليوم، وقد نسِيَت معدتي بحلول وقته العصيدة التي التهمتها صباحًا قبل الركض ستة أميال إلى مدرسة "كينيوغوري" المتوسطة. لا يزال أمامي الآن أن أقطع الأميال نفسها عائدًا إلى البيت، حاولت ألّا أبالغ في التطلّع إلى لقمة في تلك الليلة. برعت أمي في ابتداع وجبة يوميّة، عدا ذلك فمن الأفضل حين يجوع أحدنا أن يجد شيئًا، أي شيء، ليأخذ ذهنه بعيدًا عن التفكير في الطعام. وهو ما أفعله غالبًا أثناء فترة الغداء حين يُخرج بقية الأطفال طعامهم الذي جلبوه معهم بينما يذهب أولئك القاطنون في الجوار إلى بيوتهم للأكل خلال فسحة منتصف اليوم. أتظاهر عادةً أنني ذاهب إلى مكان ما، غير أنني أذهب في الواقع إلى ظل أي شجرة أو ستار جنبة، نائيًا عن بقية الأطفال، كي أقرأ كتابًا، أي كتاب، ليس وفرةً في الكتب آنذاك، لكن حتى قراءة الدروس من دفاتري كانت بمثابة تشتيت مرحّب به. قرأت في ذلك اليوم في نسخة مختصرة من "أوليفر تويست" لدكنز. ثمة رسم خطي

لأوليفر تويست، يحمل زبديّة في يده، وينظر إلى الأعلى نحو شخص ضخم، والتعليق المكتوب على الرسم "أرجوك أيّها السيّد، هل لي بالمزيد؟" شعرت بالاتّصال مع هذا السؤال، غير أنّني أوجهه عادةً إلى أمي، الوحيدة ذات الفضل عليّ، مَن تمنح المزيد دائمًا كلما استطاعت.

كما كان الاستماع إلى القصص والنوادر من الأطفال الآخرين تشتيتًا مريحًا، خصوصًا أثناء طريق العودة إلى البيت، وهو بلاء أخفّ من بلاء الصباح حين نضطر إلى الركض حفاة إلى المدرسة، نقطع كل ذلك الطريق، والعرق يتدفق من وجناتنا، لنتجنّب التأخير والجلدات المحتومة على كفوفنا المفتوحة إن تأخّرنا. كنا نمشي برويّة في الطريق للبيت، عدا بالنسبة للأطفال القاطنين في "ندييا" أو "نغيسا"، من عليهم قطع عشرة أميال أو تزيد. وقد كان من الأفضل تزجية الوقت بالقصص على الطريق هكذا قبل وجبة المساء غير الأكيدة أو المهمات داخل العزبة وحولها.

كنّا، زميلي كينيث وأنا بارعين في تزجية الوقت، خصوصًا فيما نتسلق التلّ الأخير قبل أن نبلغ بيوتنا. في الصعود على الجهة المنحدرة من التلّ، يركل كلانا "كرة"، غالبًا ما تكون من تفاح سدوم، ورؤوسنا إلى قمّة التلّ. تنطلق الركلة التالية من حيث تحط الكرة الأولى، وهكذا، نتنافس كي نهزم بعضنا في طريق الصعود. ليست هذه طريقة الوصول الأسهل ولا الأسرع إلى القمّة، لكن فضيلتها في أنها تنسينا العالم. غير أننا في ذلك اليوم كنّا قد كبرنا على مثل هذه اللعبة. إلى جانب أن ليس ثمة لعبة قد تغلب القصّ في الاستحواذ على انتباهنا.

كنّا نحتشدّ عادة حول أي شخصٍ يقصّ حكاية، وأولئك البارعون في القص يصبحون أبطال اللحظة. أحيانًا، في المنافسة من أجل الاقتراب من

السارد، تدفعه مجموعة عن الدرب الرئيس إلى الجانب، فيما تجذبه المجموعة الأخرى إلى جهتها، تتحرك كامل المجموعة كقطيع غنم حوله يمنة ويسرة.

لم يكن ذلك المساء استثناءً، عدا في المسار الذي اتّخذناه. للعودة من "كينيوغوري" إلى قريتي، "كوانغوغي" أو "نغامبا" وما جاورها، نشقّ عادة دربًا يمر بسلسلة من الأودية والنتوء الجبليّة، لكن حين الاستماع لحكايةٍ، لا يلاحظ المرء النتوء ولا حقول الذرة والبطاطس والبازلاء والفاصوليا، وكل حقل من هذه الحقول محاط بأشجار الطلح أو وشائع من الرامحة والجنبات الشوكيّة الرماديّة. ثم يقود الدرب أخيرًا إلى منطقة "كيهينغو"، متجاوزًا مدرستي الابتدائية القديمة، "مانغو"، أسفل الوادي، ثم معتليًا تل أعشاب مخضرة وأشجار طلح سوداء. لكن في ذلك اليوم، فيما نتبع، مثل قطيع، القائد الحكّاء، أخذنا مسارًا آخرَ، وهو أطول قليلًا من المعتاد، بمحاذاة سور مصنع "أحذية باتا" في ليمورو، مرورًا بمكبّ النفايات النتن بمحتواه من بقايا المطاط والجلود والأهب العطنة، ثم إلى تقاطع مسارات سكك الحديد والطرق، التي تقود إلى السوق. ثمة حشدٌ من الرجال والنساء عند التقاطع، قادمون على الأرجح من السوق، يتناقشون نقاشًا حاميًا. تزايد الحشد بتوقف عمّال المصنع عن عملهم وانضمامهم إليه. وجد ولد أو اثنان أقاربَ لهم في الحشد. فتبعتهم إليهم، لأسمع.

"لقد قبض عليه أحمر اليدين[1]،" يقول بعضهم.

"تخيّل، يحمل رصاصات في يديه. في وضح النهار".

جميعنا، حتى نحن الأطفال، نعلم أن القبض على الأفريقي وهو يحمل رصاصًا أو فوارغ رصاص كافٍ ليُدان بالخيانة، سيدعى بالإرهابي، والنتيجة

---

1 أي متلبّس بجريمة أو بفعل مخجل. نشأت العبارة وشاعت في أسكتلندا في القرن الخامس عشر، والحمرة كناية عن جريمة القتل. ثم أشاعها والتر سكوت حين استخدمها في رواية "آيفنهو". كافة الحواشي من إضافة المترجمة ما لم يرد غير ذلك. المترجم.

الوحيدة المترتبة على هذا: أن يتدلّى من الحبل.

"سمعنا إطلاق النار"، يقول البعض.

"رأيتهم يطلقونه عليه بأم عيني".

"لكنه لم يمت!"

"يموت؟ همم! كانت الطلقات تطير نحو من يطلقون".

"لا، لقد طار هو باتجاه السماء واختفى في الغيوم".

الاختلاف بين الرواة قسّم الحشدَ إلى مجموعات أصغر، من ثلاثة أشخاص أو أربعة أو خمسة، حول كل راوٍ برؤيته لما حدث تلك الظهيرة. ألفيت نفسي أنتقل من مجموعة لأخرى، ألتقط نتافة معلومات من هنا وهناك. وقد ظفرت خيوط القصة معًا شيئًا فشيئًا، فتكوّنت لديّ سرديّة مما اتّفق عليه الحشد، حكاية مشوّقة عن رجل مجهول قد اعتقل بالقرب من المتاجر الهنديّة.

بُنيت المتاجر على نتوء جبلي، سلسلة من الأبنية التي تواجه بعضها البعض، وقد كوّنت مساحة مغلقة مستطيلة فسيحة للعربات والمتسوّقين، بمداخل ومخارج في الزوايا. ينحدر النتوء إلى أرضٍ منبسطة حيث الأبنية التي يمتلكها الأفريقيّون، بنيت لتكوّن مستطيلًا مشابهًا، هذه المساحة المغلقة تستخدم عادة بمثابة سوق في أيام الأربعاء والسبت. كانت الخراف والأغنام التي تباع في يومي السوقين تقيّد مشكّلة مجموعات في الجهة الفسيحة من المنحدر بين مركزي التسوق. تلك المنطقة كانت بوضوح مسرح الحدث الذي يشعل مجموعة من السراد والمستمعين في تلك اللحظة. اتفق جميعهم على أنه بعدِ تصفيد يدي الرجل، وضعته الشرطة في مؤخرِ عربتهم.

وثب منها الرجل وفرّ. وقد أخذهم على حين غرّة، استدار أفراد الشرطة بالعربة ولاحقوا الرجل، فيما بندقيّاتهم موجهة إليه. قفز بعضهم من العربة

ولحقوا به راجلين. اختلط بالمتسوقين ثم هرب عبر ثغرة بين متجرين إلى المساحة المفتوحة بين المتاجر الأفريقيّة والهنديّة. ها هنا، أطلقت الشرطة الرصاص. سقط الرجل، لكنه نهض ثانية وركض من جهة لأخرى. وهكذا راح يركض يمنة ويسرة ليشق قطعان المعز والخراف، ليهبط مع المنحدر، متجاوزًا المتاجر الأفريقيّة، قاطعًا السكة الحديدية، ماضيًا إلى الجهة الأخرى، عابرًا مساكن عمال شركة باتا للأحذية المزدحمة، صاعدًا النتوء إلى أن اختفى، ومن الواضح أنه فرّ سالمًا، إلى مزارع الشاي الأخضر الغناء التي يمتلكها الأوروبيون. جعلت هذه المطاردة من الطريدة، الرجل المجهول، أسطورة على الفور، وقد استلهم منها أولئك الذين شهدوا الحادثة عيانًا حكايات عديدة عن البطولة والسحر، بل حتى أولئك الذين وصلتهم الحكاية مرويّة.

لقد سمعت قصصًا مشابهة عن مقاتلي عصابة الماو ماو، ديدان كيماثي بالأخص، غير أن السحر حتى ذلك الحين، كان يحدث بعيدًا في "نياندار وا" وجبل كينيا، ولم يكن من يقص الحكايات قد شاهدها بأم عينه أبدًا. حتى صديقي نغاندي، أغزر الحكّائين حصيلة، لم يقل قط إنه رأى أيًا من الأحداث التي رواها وكان يصفها بأقصى دقّة. أحب الاستماع إلى القصص أكثر من روايتها، لكن تلك كانت القصة الوحيدة التي تُقت إلى قصّها، قبل الوجبة أو بعدها. في لقائي التالي بنغاندي، ستكون لديّ قصّتي.

كانت حواجز السكة الحديدية المتقاطعة قد رفعت قليلًا. دوّت الصافرة وعبر القطار، جاء بمثابة تذكير للحشد بما تبقى لديه من أميال ليقطعها. كينيث وأنا كنا نقلّد البقية، وحين فرغنا من مرافقة بقية الطلبة أفسد مزاجي بطعنه في موثوقية القصة، على الأقل بشأن النحو الذي قيلت به. يفضل كينيث وجود حد واضح بين الواقع والتخييل، لا يحفل باختلاط الاثنين. بالقرب من منزله، افترقنا دون أن نتفق على درجة المبالغة.

وها هو البيت أخيرًا، وصلت لأمي وانجيكو، وأخي الصغير، نجينجو، وأختي نجوكي، وزوجة أخي الكبير تشاريتي. وقد التمُّوا معًا حول النار. رغمًا عن كينيث كنت أحلّق تحت تأثير قصة الرجل مجهول الهويّة، وكأنه واحدة من شخصيّات الكتب. لكن وخزات الجوع المفاجئة طرحتني أرضًا. كان الوقت قد تجاوز الغسق، وهذا يعني أن وجبة المساء قد تُقدم قريبًا.

كان الطعام جاهزًا بالفعل، وقد مُد لي في زبدية من الكالاباش[2]، في صمت مطبق. حتى أخي الصغير، الذي يحب أن ينتقدني على إخفاقاتي، مثل وصولي إلى البيت بعد الغسق، كان ساكنًا. أردت أن أشرح سبب تأخيري، لكن في البدء عليّ أن أنهي قرقرة معدتي.

في النهاية، لم يكن شرحي ضروريًا. كسرت أمي الصمت. وقد قالت إن والس موانغي، أخي الكبير، والس الطيب كما يعرف، فرّ من موت وشيك ظهيرة ذلك اليوم. لنصلّي من أجل سلامته في الجبال. في هذه الحرب.

---

2 زبدية شاع استخدامها في كينيا مصنوعة من ثمرة شجرة الكالاباش (من الفصيلة القرعيّة) بعد تفريغ قشرة الثمرة الكروية من محتواها وتجفيفها لبضعة أيام.

وُلدت في 1938، في ظلال حرب أخرى، وهي الحرب العالمية الثانية، لثيونغو وا ندوشو، والدي، ووالدتي وانجيكو وا نغوغي. لا أعرف ترتيبي وفقًا للسن، بين الأربع وعشرين طفلًا لأبي وزوجاته الأربع، لكنني الطفل الخامس في منزل أمي. قبلي أختي الكبرى، غاثوني، وأخي الكبير، والس موانغي، والأخوات نجوكي وغاسيرو، بهذا الترتيب، ثم أخي الصغير، نجينجو، الذي أصبح الطفل السادس والأخير لأمي.

ذكراي الأولى عن البيت، تأخذني إلى باحة دار فسيحة، بها خمسة أكواخ تشكل نصف دائرة. أحد هذه الأكواخ الخمسة لأبي، حيث تنام المعز أيضًا في الليل. وهو الكوخ الرئيس ليس بسبب اتساعه وحسب لكن لأنه منعزل ويبعد عن بقية الأكواخ الأربعة المسافة ذاتها. كان الكوخ الرئيس يسمى "ثينغيرا". أما زوجات أبي، أو أمهاتنا كما نسمّيهن، فيأخذن الطعام إلى كوخه بالتناوب.

كوخ كل امرأة مقسّم إلى مساحات تؤدي وظائف مختلفة، في وسطه موقد نار بأثافٍ ثلاث، وأماكن للنوم وما يشبه مخزن المؤن، ومساحة كبيرة للمعز، وغالبًا، حظيرة صغيرة، لتسمين الخراف أو المعز كي تذبح في المناسبات الخاصة. ثمة شونة في كل منزل، كوخ مستدير صغير على ركائز، جدرانه من أعواد رفيعة ضمّت مع بعضها. كانت الشّونة مقياسًا للوفرة أو القلّة. بعد

حصاد وفير، تمتلئ بالذرة، والبطاطس، والفاصوليا والبازلاء. يمكننا التنبؤ بمجيء المجاعة من عدمها استنادًا إلى كمية المتبقي في الشّونة. بجانب باحة الدار "كرال"[3] كبير للبقر، بسقائف أصغر للعجول. تجمع النساء روث البقر والماعز وتحفظها في مكب نفايات عند المدخل الرئيس لباحة الدار. تحوّل مكبّ النفايات مع السنوات إلى تل مغطى بالقراص الكبير الأخضر. كان التل ضخمًا بالنسبة لي، وكم بدا لي مذهلًا أن باستطاعة اليافعين صعوده وهبوطه بكل يسر. ينحدر عن التل مدى كثيف الشجر. حين كنت طفلًا وقد بدأت المشي لتوّي، كنت أتبع أمي وأشقائي الكبار بعيني وهم يعبرون البوابة الرئيسية لباحتنا، وكان يبدو لي أن الغابة ابتلعتهم على نحو غامض في الصباح، وفي المساء بالغموض عينه، تلفظهم سالمين. حتى استطعت لاحقًا أن أمشي بعيدًا عن الباحة فرأيت أن ثمة دروب وسط الأشجار. عرفت أن خلف الغابة ضاحية ليمورو، ومقابل خط السكة الحديدية، تمتد المزارع المملوكة للبيض حيث يعمل أخوتي وأخواتي الكبار عملًا بأجرة في قطف أوراق الشاي.

ثم تغيّرت الأمور، لا أعلم أكان بالتدريج أو فجأة، لكنها تغيّرت. كانت الأبقار والمعز أول ما ذهب، وقد خلّفت وراءها سقائف فارغة. لم يعد مكب النفايات مخزنًا لروث البقر ومخلّفات الماعز بل اقتصر على القمامة. ارتفاعه راح أقل تهديدًا مع الوقت حتى إنني أنا أيضًا استطعت أن أصعده وأنزله ركضًا بيسر. ثم كفت أمهاتنا عن زراعة الحقول المحيطة بباحتنا، وبتن يعملن في حقول بعيدة عن مسكننا. هجرت "ثينغيرا" أبي، وباتت النساء يقطعن مسافات طويلة راجلات ليحملن إليه الطعام. كنت واعٍ بمسألة اجتثاث

---

3 اسم الحظيرة التقليديّة للمعز أو البقر لدى الغيكويو، مأخوذة من الهولنديّة عن البرتغاليّة "curral". م.

الأشجار، فلا يبقى إلا جذعها، ثم تهيئة التربة، ليتبعها زرع حشيشة الحمّى. يالغرابة رؤية انحسار الغابة أمام زحف حقول حشيشة الحمى. كم كان لافتًا أن أخواتي وإخوتي يعملون موسميًا في حقول حشيشة الحمى الجديدة التي تلتهم غابتنا، وهم من عملوا سابقًا وراء السكة في مزارع الشاي المملوكة للأوروبيين وحسب.

التغيّرات في المشهدين الطبيعي والاجتماعي لم تحدث في ترتيب يمكن تمييزه، بل كانت متداخلةً، وكل هذا محيّر قليلًا. لكن، على نحو ما، مع الوقت، رحت أصل بعض الخيوط، وباتت بعض الأشياء أوضح وكأنني أخرج من الضباب. علمت أن أرضنا لم تكن أرضنا تمامًا، وأن مسكننا بات ضمن ملكية مالك أفريقي، اللورد القسّ ستانلي كاهاهو، أو "بوانا"[4] ستانلي كما ندعوه، وأننا الآن بمثابة "أهوي"[5]، مستأجرين استئجارًا رضائيًا. كيف آل بنا الأمر لنصبح "أهوي" في أرضنا نحن؟ هل فقدنا أرضنا التقليدية لصالح الأوروبيين؟ لم ينجلِ الضباب كليًا.

---

4 أي السيّد أو ربّ العمل، مأخوذة من السواحيليّة "بوانا" المأخوذة من العربيّة "أبونا". م.

5 الشخص الذي يحصل على حق الرعي أو الزراعة أو العيش في أرض مالك آخر ما دام راضيًا، ويغادر الملكية حالما يرغب المالك ذلك. م.

أبي، المتحفّظ كثيرًا، قلّما يتحدث عن ماضيه. أمّا أمهاتنا، التي تمحورت حيواتنا حولهن، بدين متردّدات عند البوح بتفاصيل ما يعرفن عن ذلك الماضي. على أية حال، ثمة نزر من المعلومات، مُستمدّ من الهمسات، والتلميحات، والطرائف التي تقال في المواسم، تكتلت مع بعضها إلى أن كوّنت سرديّة لحياته وجانبه من العائلة.

جدي لأبي كان بالأصل طفلًا من الماساي هام في مسكن من مساكن "الغيكويو" في إحدى نواحي "مورانغا"، إما لأنه فدية حرب، أو أسير، أو طفل مهجور فرّ من بعض المشاق مثل المجاعة. لم يعرف في البدء لغة "الغيكويو" ومفردات "الماساي" التي تلفظ بها بتكرار بدت للأذن الغيكويوية مثل "توشو" أو "توشوكا"، لذا دعوه ندوشو، أي "الطفل الذي يقول توشو دائمًا". كما أعطي أيضًا اسم الجيل التشريفي "موانغي"[6]. قيل إن الجد ندوشو تزوج بزوجتين، كلاهن تدعى وانغسي. من إحدى الوانغسيتين أنجب ولدين، نجينجو، أو فافا موكورو [Baba Mũ kũ ru : بابا الكبير، كما ندعوه، وأبي، ثيونغو، إضافة

---

6 يمنح المنتمون إلى الفئة الجيليّة الواحدة اسمًا تشريفيًا يضاف لأسمائهم، وقد كان موانغي الاسم المخِصص للفئة الجيليّة التي ينتمي إليها الجد. تضم الفئة الجيليّة جماعتين عمريتين وتدير مصالح القبيلة لفترة تمتد من عشرين إلى ثلاثين سنة قبل أن تسلّمها للمجموعة التالية، تلقّب الفئتان الجيليّتان على التناوب: موانغي ثم ماينا وهكذا. نقل بتصرف عن "The Kikuyu and Kamba of Kenya: East Central Africa Part V". م.

إلى ثلاث بنات، وانجيرو، نجيري، وويريمو. أما وانغسي الأخرى، فقد أنجب منها ولدين آخرين، كاريكوي وموانغي كارويثيا، كما يعرف أيضًا بموانغي الجرّاح، دعي بهذا لأنه أصبح لاحقًا مختصًا في ختان الذكور ومارس مهنته لدى قبيلة "الغيكويو" وفي أرض "الماساي".

لم يقدر لي أن ألتقي جدي ندوشو ولا جدتي وانغسي. اجتاح مرض غامض المنطقة. كان جدي من أول الراحلين، لحقته فورًا زوجتاه وابنته وانجيرو. قبيل الموت، جدتي، وهي تعتقد أن العائلة تحت تأثير لعنة قاتلة من الماضي أو سحر قوي من الجيران الغيورين، إذ كيف يسقط الناس صرعى هكذا بعد نوبة حرارة؟ أمرت والدي وأخاه أن يلوذوا مع أقارب هاجروا سلفًا إلى كابيت، على بعد أميال، من ضمنهم أخواتهم نجيري وويريمو. أقسموا ألّا يعودوا إلى "مورانغا" ولا أن يبوحوا بأصولهم الحقيقيّة لذريّتهم كي لا يغووا ورثتهم بالعودة والمطالبة بأرض العائلة فيلقوا المصير نفسه. خفر الولدان وعدهما لأمهما: فرّا من "مورانغا".

بدا المرض الغامض الذي محا أجدادي وأجبر والدي على الفرار مفهومًا حين قرأت لاحقًا عن ابتلاءات جماعيّة في العهد القديم. ثم فكرت في أبي وأخيه بوصفهما جزءًا من نزوح عن الطاعون، ضمن محيط توراتي، بحثًا عن أرض موعودة. لكن حين قرأت عن تجار الرقيق العرب، ومستكشفي البعثات التبشيريّة، وحتى صيادي الطرائد الكبرى -تشرتشل الشاب في 1907 وثيودور روزفلت في 1909 وطابور طويل من الآخرين التابعين- أعدت تصوّر أبي وعمي مثل مغامرين مسلحين بأقواس وسهام يشقان الدروب ذاتها التي سلكها هؤلاء، بل يراوغانهم أحيانًا، يقاتلان أسودًا ضارية، بالكاد يفران من ثعابين متوارية، يشقان طريقهما بقطع النباتات عبر أدغال غابة بدائية مرورًا بالأودية والنتوء الجبلية، إلى أن يصلا فجأة إلى سهل. وهناك يقفان في خوف

وذهول. حيث أمام أعينهما مبانٍ حجرية بارتفاعات متفاوتة، ودروب تضج بالعربات من مختلف الأشكال وأناس من مختلف الألوان من الأسود إلى الأبيض. يجلس بعض البيض في عربات يسحبها الرجال السود أو يدفعونها. لا بد أنهما اعتقدا أن هؤلاء هم الأرواح البيضاء، "الميزونغو"[7]، وأن هذا المكان هو نيروبي التي سمعا أنها بزغت من باطن الأرض. لكن لا شيء دفعهما للاستعداد المسبق لخطوط السكة الحديدية ولا للوحش المرعب الذي يتقيأ النار ويصرخ من وقت لآخر صرخات تجمّد الدم.

خلق ذلك الوحش نيروبي. نشأت في البدء بصفتها مركز تجمع لمواد تشييد سكة الحديد الهائلة وخدمات الدعم المساندة لها، ثم نبتت بلدة نيروبي كالفطر من آلاف الأفريقيين، ومئات الآسيويين، والعديد من العدوانيين الأوروبيين الذين هيمنوا عليها. بحلول 1907، حين زارها ونستن تشرتشل، بمثابة وزير هنري كامبل بانرمن لشؤون المستعمرات، وهي في سنتها التاسعة منذ النشأة، كتب أن كل رجل أبيض في العاصمة كان "سياسيًّا وأغلبهم قادة أحزاب سياسيّة،" وعبّر عن عدم تصديقه بأن "مركزًا حديثًا سيكون قادرًا على إتاحة العديد من المصالح المتباينة والمتصارعة، أو أن جماعة صغيرة بهذا القدر ستكون قادرة على منح كل فرد منها قدرة تعبير صحيّة وجبارة".[8]

كان للمنازل الكبيرة في السهول وقع مختلف على الأخوين. بعد مكوثهما مع عمتهما في أوثيرو، انتقل عمي من صخب البلدة بحثًا عن رزقه في ريف نديا وليمورو، منطلقًا من عائلة كاراو. لكن أبي، وقد أذهله المركز الحضري وفتنه بقاطنيه البيض والسود، فقد مكث هناك. أخيرًا عمل عاملًا منزليًا في منزل لأوروبي. أؤكد أن التفاصيل بشأن تلك المرحلة من حياته في بيت البيض

---

7 لدى القبائل الأفريقيّة أسماء لمختلف الأرواح التي تتلبّس النّاس، منها الميزونغو وهي أرواح بيضاء (أوروبيّة) تجعل من تتلبّسه متطلبًا للكماليّات التي لا يمتلكها الأفريقيون آنذاك. م.

8 (Winston S. Churchill, My African Journey (Leo Cooper, 1968), p. 18). (المؤلف)

شحيحة، ما عدا قصة هروبه من التجنيد في الحرب العالمية الأولى.

منذ مؤتمر برلين في عام 1885 الذي قسّم أفريقيا إلى مدارات نفوذ بين القوى الأوروبية، تنافس الألمان والبريطانيون على استعمار أقاليم شرق أفريقيا، وقد تمثّلت هذه المنافسة عند المغامرين: كارل بيترز، مؤسس شركة شرق أفريقيا الألمانية في 1885، وفريدريك لوغارد في شركة شرق أفريقيا البريطانيّة، التي أسسها السير وليم ماكينن عام 1888. أُمِّمت في ما بعد المقاطعات التي استولت عليها هذه الشركات الخاصة بدعم جاء "على مضض" من قُوّاد يعلونهما مرتبة: الألماني أوتو فون بيسمارك والبريطاني وليَم غلادستن، أي أنها استعمرت. وآنذاك، إذا ما سعلت الدولة الاستعمارية الأم، أصيب الصغير المستعمَر بإنفلونزا ضارية. لذا حين اغتال الطالبُ الصربي غافريلو برينسب وريثَ الإمبراطورية النمساوية المجريّة فرانز فرديناند في سراييفو في الثامن والعشرين من حزيران من عام 1914، واندلعت الحرب الأوروبيّة بين الإمبراطوريّات المتنافسة، حاربت الدولتان المُستَعمَرتان، كينيا وتنجانيقا، في صف أمِّيهما، أي تحاربتا، القوات الألمانيّة بقيادة الجنرال فون ليتو فوربيك، ضد القوات البريطانيّة بقيادة الجنرال جان سموتس. لم يكن المستعمِرون الأوروبيون يحاربون بعضهم وحسب -فهم يمثّلون في المحصلة أقل من واحد بالمائة من المجموع. بل أرسلوا العديد من الأفريقيين بصفتهم جنودًا وأعضاءً في القوات المسلحة. مات الجنود الأفريقيّون في المواجهات ومن الأمراض والعلل الأخرى، بما يفوق الجنود الأوربيّين. صارت مساهمتهم منسية عدا أن الأماكن التي أقاموا فيها معسكراتهم، في نيروبي ودار السلام، سميت باسم "كاريوكو"، مفردة سواحيليّة تعني قوّات المشاة المسلّحة. وقد أُرغم الأفريقيّون على المشاركة في حرب لا يعرف السكان عن أصولها ومسبباتها شيئًا، فعل العديد -مثل أبي- ما بوسعهم ليتجنبوا

التجنيد. في كل مرة يعلم أنه سيؤخذ لفحص طبي، يمضغ أوراق نبتة معينة ترفع حرارته إلى درجة مقلقة. لكن ثمة نسخ أخرى للقصّة تلمح إلى تواطؤ مديره الأبيض الذي لم يرد فقدان خدمات أبي المنزليّة.

من هذا الحدث التاريخي، ومعرفة سنناء أبي "نياريغي -Nyarĩgĩ"، تمكنت من حساب مولده وتوصلت إلى أنه قد ولد ما بين 1890 و1896، أي في السنوات التي استولت فيها الملكة فكتوريا على ما كان يعتبر حينها ملكية شركة وسمّتها محمية شرق أفريقيا، عبر رئيس وزرائها روبرت سيسيل، الماركيز الثالث لساليسبيري. ثم أصبحت في عام 1920 مستعمرة ومحمية كينيا. وقد كان إنشاء سكة حديد أوغندا من "كيلينديني، مومباسا"، أي طريق الوحش الذي رآه والدي وهو يبصق النار حتى وهو يزأر، هو البرهان المباشر على الملكية البريطانيّة الفاعلة.

"نيروبي"، التي بات والدي يعمل فيها حينذاك، هي نتاج ذلك التغيير في الملكية الرسميّة واكتمال السكة الحديدية التي سهّلت حركة المستعمرين البيض في الداخل منذ 1902 وما تلاها. بعد الحرب العالميّة الأولى، التي انتهت بمعاهدة "فرساي" في حزيران 1919، كوفئ الجنود البيض السابقون بأراضٍ أفريقيّة، وقد كان بعض هذه الأراضي للجنود الأفريقيين الناجين من الحرب. حلّ على الأفريقيين نزع ملكيّة متزايد، وأعمال السخرة، وصاروا مستأجرين رضائيّين أو كما يعرفون بالمستوطنين العشوائيين. مقابل استخدام الأرض، أضحى المستوطنون عمالة رخيصة كما كانوا يبيعون حصادهم من الأرض على ملاكها البيض الجدد بسعرٍ يحدده البيض. واجهت المستعمرة البيضاء المدعومة مقاومة الأفريقيين، وقد كانت الحركة الفارقة آنذاك هي جمعية شرق أفريقيا، التي نشأت في عام 1921وهي المنظمة السياسيّة الأفريقيّة الأولى التي امتدت في أرجاء البلاد، بقيادة هاري ثوكو، الذي شغل كل العمّال

الأفريقيّين، بمن فيهم أبي. حيث عثرت فيه الطبقة الأفريقيّة الكادحة على صوتها، وهي القوة الاجتماعية الجديدة على مسرح التاريخ الكيني، والذي بات أبي جزءًا منها. مدّ ثوكو صلات مع حركة ماركوس غارفي وقوميّة السود العالمية في الغرب، أي في أميركا، وحركة غاندي للقوميّة الهندية في الشرق، الأخيرة عبر تحالفه مع مانيلال أ. ديساي، قائد الهنود المحليين. كانت الشرطة الاستعمارية السرية تراقب أنشطته وتناقشها في مكتب الاستعمار في لندن بصفتها تهديدًا لسلطة البيض. كلا غاندي وثوكو دعيا للعصيان المدني في الوقت نفسه تقريبًا كل واحد في بلده. لقمع هذا الاتصال الكيني بين القوميّة الغاندية والقوميّة الغارفيّة السوداء، اعتقل البريطانيون ثوكو في أذار من عام 1922 ونقلوه إلى "كيسمايو"، التي تقع الآن في دولة الصومال، حيث قبع في السجن سبع سنين. حدثت من قبيل المصادفة على الأرجح، لكنها مصادفة لافتة، إذ اعتقل غاندي في العاشر من أذار، بعد عدة أيام من ثوكو. رد العمّال على اعتقال ثوكو باحتجاجات كبرى خارج محطة الشرطة المركزيّة في نيروبي. بمعونة المستوطنين البيض الذين كانوا يشربون البيرة والكحول في مصطبات فندق نورفولك، أردت الشرطة 150 متظاهرًا قتلى بالرصاص ومعهم واحدة من القائدات، نيانجيرو موثوني. لا أدري إن كان أبي حاضرًا في الاحتجاج والقتل الجماعي، لكنه قطعًا قد تأثر بنداء الإضراب العام الذي أطلقه العمال المنزليون بناءً على هذه الأحداث، العمّال الذين تعتمد على عملهم الارستقراطية البيضاء اعتمادًا كليًا. فر أبي من نيروبي بالمرّة، مجتنبًا الصراع السياسي الناشئ مثلما فر من الطاعون، مثلما تملّص من التجنيد خلال الحرب العالمية الأولى. لحق حينها بأخيه إلى الأمان الريفي في "ليمورو".

لكن "نيروبي" قد ندبته. تعلم أبي من رب عمله الأوروبي جملة من المفردات والعبارات الإنجليزية -"أحمق، لعين" "زنجي" و"كريه"- لكنه

غيكنها[9] فصارت: " mburaribuu, kaniga gaka, mbaga ĩno" واستعملها بحرّية في مناداة أبنائه الذين يغضب عليهم. لقد ادّخر من عمله مالًا كافيًا لشراء بعض البقر والمعز التي أنتجت مع الوقت المزيد من البقر والمعز، وفي الوقت الذي فر فيه من العاصمة، كان لديه قطيع معتبر أعانه أخوه في العناية به. أخيرًا اشترى والدي أرضًا في "ليمورو" من نجامبا كيفوكو. دفع بالمعز وفق النظام التقليدي للعقد الشفهي بحضور شهود. لاحقًا، باع نجامبا الأرض نفسها إلى اللورد ستانلي كاهاهو، أحد أوائل معتنقي المسيحية وخريج كنيسة بعثة اسكتلندا التبشيريّة في غيكويو، ولأخيه إدوارد ماتومبي، الذي كسب مالًا في "مولو" من الاحتطاب ونشر الخشب، وصنع صفائح الأسقف الخشبية لزبائنه الأوروبيين. وثّق المبايعة الثانية تحت النظام القانوني الاستعماري، بشهود ووثائق موقّعة. هل كان كاهاهو المتدين يعلم أن نجامبا باع الأرض مرتين، المرة الأولى لقاء المعز لأبي والمرة الثانية لقاء النقد له؟ لا فرق أكان يعرف أم لا، فالبيعة المزدوجة خلقت توترًا دام بين المدعيين، أبي وكاهاهو.

امتدت جلسات قضية الاستماع لتحديد أيهما المالك الحقيقي، في المحكمة المحلية في "كورا"، لسنوات طويلة، لكن في كل جلسة استماع تصير المسألة قضية الكلمة القانونية المكتوبة لقاء الشهادة الشفهية. خسرت الشفهية والتقليدية أمام الحداثة والتدوين. ربح الصك المدوّن دون اعتبار لحيثيّاته ضد الصكوك الشفهية. أُعلِن كاهاهو بصفته المالك صاحب الحق، واحتفظ أبي بحق الإشغال الذي لا يُورّث للمساحة التي بنى عليها الأكواخ الخمسة. أكّد الخصم المنتصر فورًا حقوقه برفض وصول أبي لبقية الأرض من أجل الرعي والزراعة.

---

9 ترجمها إلى لغة الغيكويو. م.

هل تأمّل أبي قط السخرية في خسارته أرضه لمالك أرض أسود، خريج مركز البعثة التبشيريّة البيضاء في "غيكويو"، تحت نفس النظام القانوني الذي أنتج المرتفعات البيضاء من مرتفعات كان يملكها الأفريقيّون؟ كانت لديه هموم مباشرة تشغله غير سخرية التاريخ: كيف يطعم أطفاله وقطيع البقر والمعز الهائل.

جدّي لأمي، نغوغي وا غيكونيو، ساعد أبي. فقد أعطاه حق الرعي والزراعة في الأراضي التي يملكها، وهي أراضٍ تمتد إلى المتاجر الهنديّة، والمتاجر الأفريقيّة، وما وراءها، حتى الجانب الأفريقي من السكّة الحديديّة. أقيمت "ثينغيرا" أبي الجديدة و"كرال" القطيع بين حافتي غابة شجرة الحمى وأشجار الأوكالبتوس التي يمتلكها جدي نغوغي وضواحي السوق الأفريقي.[10] ظلت زوجات أبي وأبناؤه في المسكن القديم.

إذن، رغم اللكمة القانونيّة وتبعاتها، استمرت سمعة أبي بصفته أثرى الرجال وفق معايير امتلاك البقر والمعز، مثلما استمرت سمعته بصفته ربّ بيت منضبطًا وذا عين انتقائية للنساء الجميلات منذ فوزه بعروسه الأولى.

---

10 لم تعد هذه الغابة موجودة. فهي اليوم جزء من بلدة ليمورو الممتدّة، بعد أن أزيلت المتاجر الهنديّة من موقعها القديم. (المؤلف).

قد كان جمال وانغاري وشخصيّتها أحدوثة الأودية والتلال، من "ليمورو" إلى "ريوكو". في الواقع كانت المنطقتان متقاربتين، لكن في تلك الأيام حيث لم يكن ثمة مواصلات بدتا متباعدتين بأميال. العم نجينجو، شقيق أبي، كان أول من فُتن بجمالها وأقسم أن يتّخذها زوجة ثانية. لا يُعرف كيف سمع بها العم نجينجو أو فافا موكورو كما ندعوه، أو كيف تواصل معها أو مع عائلتها. لا يعرف حتى إن كان قد قابلها في الواقع أم لا. على الأرجح سعى إلى واحدة من جلسات التودد تلك التي تقوم بها العوائل عبر وسيط ثالث. كانت الأملاك، أي البقر والمعز، والشخصية الحسنة أشد إقناعًا من الوسامة. وبالطبع برهن اليتيمان، اللذان رغم بدئهما من العدم إلا أنهما كوّنا نفسيهما حتى بلغا إنجازات مجايليهما من الشباب بثروتهما من المعز، أنهما لم يعتمدا على وسامتهما بل على عقليهما وأياديهما.

منذ هروبهما من "مورانغا"، خاض أبي وفافا موكورو دربين مختلفين قليلًا، وكوّن كل واحد منهما توجهًا مختلفًا تجاه الحياة. اكتسب أبي مظاهر حضرية في الملبس ووجهة النظر، مثلًا، كان لديه موقف متعجرف تجاه الممارسات والطقوس التقليديّة. على الصعيد الآخر شق عمي طريقه في الرعي والزراعة الريفيّة، مراعيًا القيم والطقوس التقليديّة، مثل تلك التي أديت خلال زفافه هو وزوجته الأولى. مع هذا، فواقع أن فافا موكورو كان

يهدف آنذاك لعروس ثانية، بينما أبي لا يزال عازبًا، كان مقياسًا لنجاح خياره وصحته إذ تجنب المدينة لصالح الريف.

برفقة أبي، أخذ فافا موكورو الوفود التي تضمنت متحدثين من غير العائلة، لأن المرء لا يتحدث عن نفسه في مثل هذه الأمور قط، وذهبوا لوالد وانغاري، إيكيغو. مضى كل شيء على ما يرام، المشروبات والمقدمات الرسمية، حتى دُعيت العروس لتلتقي بالخاطب. فاتهم تهيئتها التهيئة اللازمة، إذ وقعت عيناها حال دخولها على الرجل الأصغر، أبي. لاقت التصحيحات التالية بشأن الخاطب الحقيقي أذن الشابة الصماء التي خيّرت بعدها بين أن تكون الزوجة الثانية للرجل الأكبر أو الزوجة الأولى للآخر الذي ينضح شبابًا وحداثة.

حال عودتهما إلى البيت، تغيّرت حظوظ الأخوين، أغرمت وانغاري بالشاب المتحضّر، أبي، وأصبحت أخيرًا زوجته الأولى. رغم أن العلاقة الأخوية لم تنصرم إلا أنها توتّرت وظلت متوتّرة لبقية العمر. دخل الحب بين الرجلين اللذين اعتمدا في يفاعتهما على بعضهما في السعي لحياة جديدة بعيدًا عن مسقط رأسيهما.

لا أعرف كيف تزوّج أبي لاحقًا زوجته الثانية، غاسوكي. تلمح الشائعات إلى أن زوجته الأولى، وانغاري، نظير حاجتها إلى يد إضافية في إدارة ثروة البقر والمعز المتزايدة، ساعدت في جذب غاسوكي إلى البيت. من المرجح، أن أخبار العاطفة والتناغم في العمل بين وانغاري وأبي قد أغوت غاسوكي، الابنة الجميلة لغيثيّا، قبل وقت طويل من خطبة أبي لها. تجربة أمي أنا، الزوجة الثالثة، تدلّل على بعض أساليب أبي في التودّد.

أمي، وانجيكو، قليلة الكلام. لكن كلماتها القليلة تحمل سطوة الصمت الذي يسبق نطقها. من وقت لآخر تتدفق من فمها الكلمات، مفسحة نافذة

صغيرة تطل على روحها. سألتها مرة، خلال لحظات الرخاء التي تعقب وجبة شهيّة ساخنة، لم وافقتِ على الزواج التعدّدي؟ لم قبلتِ أن تكوني الزوجة الثالثة لأبي، الذي كان لديه أطفال كبار -وانغسي وتومبو من وانغاري، وغيتوندو من غاسوكي؟

اتّضح أنها قبلت بسبب زوجتيه السابقتين، وانغاري وغاسوكي، وأطفالهما، قالت هذا فيما الضوء والظل الناتجان عن النار يتعاقبان على وجهها. كانوا دائمًا معًا، متناغمين، لطالما تساءلتُ كيف تبدو صحبتهم. أما أبوك؟ فإنه لا يُرفض. لا أعلم كيف عرف مكان عملي بالضبط في حقول أبي، حسنًا، حقول جدك، لكنه ظهر بشكل ما، ابتسم وقال بضع كلمات وحسب. قال يا للحسرة لو أن جميلة كادحة ارتبطت برجلٍ كسول، كان يقول هذا ليشاكسني. ليست هذه كلمات بسيطة وهي القادمة من رجل يمتلك أبقارًا ومعزًا عديدة، وقد اكتسب كل هذه الثروة بتعبه هو وحده. لكنني لم أرد أن يشعر بأنني فُتنت بكلماته وسُمعته، فتحدّيته. قلت له كيف أعرف أنك لست واحدًا من أولئك الذين يهلكون زوجاتهم في العمل ويدّعي بعدها أن الثروة جاءت من تعب يديه وحده؟ عاد في اليوم التالي، حاملًا على كتفه مِعزقة. كمن يثبت أنه لا يضمّن نفسه في صنف الكسول، ودون انتظار لدعوتي حتى، طفق يعمل. أصبحت المنافسة مرحة لكنّها جادّة لنرى من يتعب أولًا. "صمدت"، قالت فخورة بجلادتها. الاستراحة الوحيدة التي أخذتها آنذاك كانت حين أوقدت نارًا وشويت بعض البطاطس. ألا تظنّي أن علينا أن نوحد قوانا في بيت؟ سألني ثانية. قلت: أمن أجل يوم عمل واحد في الحقل، حتى إنه قوطع ولم يستمر؟ في يوم تالٍ، ألفاني وأنا أحاول جزّ بعض الجنبات لأوسع مزرعتي. انضم في الجزّ وبانتهاء اليوم كنا منهكين لكن لا أحد منّا أقر بهذا. غادر فظننته لن يظهر مجددًا أبدًا. لكنه عاد، في يوم آخر، دون معزقة، بابتسامة

غامضة ترتسم على وجهه. أوه، يا له من يوم! كان المحصول مُزهرًا، الحقل برمته تغطيه زهور البازلاء الملوّنة. أتذكر الفراشات دائمًا، العديد من الفراشات، والنحل، لم أكن خائفة من النحل الذي ينافس الفراشات. أخرج عقدًا من الخرز وقال: هلّا لبستِ هذا من أجل خاطري؟ حسنًا، لم أقل نعم أو لا، لكنني أخذته وتقلّدته، قالت بتنهيدة مسموعة.

لم تجب أمي عن الأسئلة اللاحقة، لكن ما قالته كافٍ ليخبرني كيف أصبحت زوجة أبي الثالثة، غير أنه لم يفِ بالغرض ليخبرني كيف فقدت مكانتها، بصفتها أصغر زوجات أبي وأحدثهن، أمام نجيري، الزوجة الرابعة، أو ما هو شعورها حيال هذه الإضافة الجديدة للعائلة.

لقد ولدت في مجتمع زوجات عاملات، ولدي إخوة وأخوات كبار، وأطفال من عمري أيضًا، وبطريرك واحد، وثمة أعراف راسخة تقرر علاقتنا ببعضنا. ربما كان النظام مربكًا لكنني تكيّفت عليه. لم تشر النسوة إلى بعضهن بأسمائهن قط، بالنسبة إلى بعضهن، كن دائمًا بنات آبائهن: وانغاري تدعى مواري وا [ابنة] إيكيغو، غاسوكي تدعى مواري وا غيثيا، وانجيكو تدعى مواري وا نغوغي، ونجيري تدعى مواري وا كابيكوريا، وهي أصغرهنّ. تعلّمت عند الحديث عنهن لطرف ثالث أن أسمي الزوجة الأولى، وانغاري، **مايتو موكورو** [Mait˜u M˜uk˜ur˜u : أمي الكبرى]، والاثنتين الأخريين **مايتو مونييني** [Mait˜u M˜u˜nyinyi: أمي الأصغر]. أما **مايتو** غير المحدّدة فمحفوظة لوالدتي. عدا ذلك فحديثنا حين نخاطب كل واحدة منهن خطابًا مباشرًا دائمًا ما يكون: نعم، أمي، أو شكرًا، أمي. كما يمكن للمرء أن يشير إليهن بصفتهن أمهات أي واحد من مواليدهن. يمكن لإخوتي العلّات[11] أيضًا أن يسمّوا والدتي بأم نغوغي حين الحديث عنها لشخص ثالث.

لقد كان الحديث عن عدة إخوة لأجنبي أمرًا يشوبه التعقيد. فالتسمية عندنا مستقاة من نظام تناسخ رمزي، أي أن أطفال كل أم يُسمَّون بالتناوب مرة على أحدٍ من أهلها ومرّة على أحد من أهل أبي، وهكذا بات للعديد

11 الإخوة لعلات أو الإخوة العلّات: من أب واحد وأمّهات شتّى. م.

من الأطفال أسماء متطابقة بسبب تلك القادمة من أهل أبي. ثمة تصنيف عام للإخوة والأخوات الأشقاء والإخوة والأخوات العلّات حين تقديمهم إلى شخص ثالث. عدا ذلك، يميّز بيننا نحن بوالداتنا، مثلًا، كنت دائمًا نغوغي وا [ابن] وانجيكو. إضافة لهذا، العديد من إخوتي وأخواتي لديهم ألقاب تلقّبوا أو لُقِّبوا بها، وكانت خاصة بهم. ثمة غاسونوا، "البرتقالة الصغيرة"، غاتوندا، "الفاكهة الصغيرة"، كاهابو، "نصف السنت"، كيبيروري، "لاعب البلبل"، وابيا، "الرّوبيّة"، مبيساي، "المال"، نغيري، "الرمادية"، غوثيرا، "الآنسة نظيفة"، تومبو، "ذو الكرش" كبرت وأنا أعرفهم بهذه الألقاب، ولكم صُدمت حين عرفت لاحقًا أسماءهم الحقيقية، التي بدت بالمقارنة مع ألقابهم أقل حقيقة. تقبّلت وجود طرق متعددة يعرّف بها الفرد نفسه أو يعرّفه بها الآخرون في حدود عائلة ثيونغو.

كوّنت النساء الأربع تحالفًا وثيقًا في وجه العالم الخارجي، وزوجهن، وحتى أطفالهن. بمقدور أي واحدة منهن أن توبّخ وتؤدّب أيًا منا نحن الأطفال، بل قد يتلقى المذنب منّا عقابًا إضافيًا إذا ما اشتكته أي امرأة لوالدته. يمكننا طلب الطعام من أي واحدة من الأمهات. كنّ يقمن بحل التوتر الجاد بينهن عبر النقاش، وتكون إحداهن، الكبرى عادة، هي الحكم. ثمة أيضًا تحالفات خفيّة ومتبدّلة في ما بينهن، لكن يبقى هذا تحت السيطرة ضمن وحدتهن العامة بمثابة عرائس لأبي. لكل واحدة منهن شخصيّتها الخاصة. نجيري، الصغرى، كانت قويّة البنية، ذات لسان حاد مزدرٍ. لا تتحمّل الهراء من أي أحد. عرفت بردها على أي أجنبي نيابة عن النساء الأخريات وإن كان رجلًا. بل تقدر على تحدّي أبي أيضًا لكنها تدرك في الوقت نفسه متى تتراجع وكيف. كانت وزيرة الدفاع غير المعلنة للعزبة. أما أمي فكانت مفكّرة ومنصتة محبوبة لكرمها، ومقدّرة على طاقتها الأسطوريّة في العمل. رغم أنها لا تواجه أبي

بانفتاح، غير أنها عنيدة تنوب أفعالها في الحديث عنها. كانت بمثابة وزيرة الأشغال. غاسوكي، الطيّبة الخجولة، التي لا تحب النزاعات، تتبنّى مبدأ "عش ودع غيرك يعيش" حتى لو كانت الطرف المظلوم. هي لذلك وزيرة السلام، وقد كانت أكثرهن ذعرًا من أبي. وانغاري، الكبرى، كانت هادئة هدوء من رأت كل شيء. تعبّر عن سطوتها على أبي بالنظرة، بالكلمة، بإيماءة الرفض، كأنها تذكّره بأنها التي فضّلته على أخيه. كانت وزيرة الثقافة، فيلسوفة تستمد من الخبرة والحكم المتداولة حين تبدي رأيًا.

كانت حكّاءة عظيمة. نتحلّق نحن الأطفال حول المُستوقَد في كوخها كل مساء، ثم تبدأ الفعاليّة. أحيانًا، وخصوصًا في نهايات الأسابيع، يصطحب الإخوة الكبار أصدقاءهم فتصبح حينها جلسة قص للجميع. يقص أحدهم قصة. ثم بعد أن تنتهي، يشارك أحد من المستمعين بقولٍ مثل: "ذكّرني بهذا..."، أو كلمات مشابهة، إشارة إلى أنه أو أنها سيقصّون قصة، حتى وإن كانت القصّة الجديدة كما تبيّن في أغلب الحالات، ليست ذات صلة بتلك التي استدعتها. لكن قول هذا التعليق لا يعني دائمًا أنه متبوع بقصة أخرى. قد يلحقه سرد لحادثة تشرح حقيقة جانب من جوانب القصة. أحيانًا، تولّد مثل هذه الآراء والشروحات نقاشات محتدمة ليس فيها رابح واضح، كما تندفع غالبًا إلى قصص أخرى. ولربما قادت أحيانًا إلى قصص عن أحداث تحدث في بلادنا وفي العالم حولنا. مثل تلك المرّة التي تحدثوا فيها عن الجماعات العمريّة[12] وكيف تغيّر الزمن، مشيرين إلى قضيّة هاري ثوكو، الذي تحوّلت ناره السياسيّة في عشرينيّات القرن العشرين رمادًا عقب

---

12 تتكوّن الجماعة العمريّة من أفراد ختنوا معًا في فترة سنوات الختان المفتوحة الواحدة، التي تعقبها فترة مغلقة لتسعة مواسم أو أربع سنوات ونصف، وقد يختلف هذا من منطقة لأخرى. يسمى أفراد كل مجموعة ختنت في سنة واحدة باسم موحّد دال على حدث بارز في السنة يضاف لأسمائهم بالولادة. نقل بتصرف عن "The Kikuyu and Kamba of Kenya: East Central Africa Part V". م.

إطلاق سراحه في 1929، بعد سبع سنوات في المنفى. الجمعيّة ثلاثيّة الأحرف (Kĩama kĩa Ndemwa Ithatũ)، وهذا ما تدعى به جمعية الغيكويو المركزيّة (KCA) وهي خليفة جمعية هاري ثوكو لأفريقيا الشرقية بعد أن حظرتها أيضًا الدولة الاستعماريّة في 1941، كانت ساخطة على ثوكو الجديد، الذي يتحدث عن الإقناع وإخماد النار بدلًا من المطالبات التي يسندها التهديد بالنار. النقاشات بشأن مزايا وعيوب هذين المذهبين فاقت فهمي آنذاك كما كانت مملة تمامًا، إلا أن النوادر التاريخيّة كانت مرضية لأنها لا تزال بالنسبة لي جزءًا من عالم القص الشفهي. بدت بعض النوادر أغرب من التّخييل: مثل رفض رجل أبيض يدعى هتلر مصافحة أسرع رجل في العالم عام 1936 لأن الرجل، جيسي أوينز، كان أسود.

تطلعت إلى تلك المساءات، بدا صدور مثل تلك القصص الجميلة والمخيفة أحيانًا من أفواههم أعجوبة مهيبة. أفضلها بالنسبة لي تلك القصص التي ينضم المستمعون فيها إلى جوقة الغناء. كان اللحن أخّاذًا في كل مرة، وكأنني أُحمل إلى عالم من التناغم الممتد حتى في الحزن. كثّف هذا ترقّبي للحدث التّالي. أبغض أن يقاطع أحدُ الحكّاء ليجادل في دقّة تسلسل الأحداث. لم لا ينتظر حتى يأتي دوره؟ كنت مولعًا بسماع التالي حتى وإن كنت على دراية بالقصة.

تنتقل الجلسات أحيانًا إلى أكواخ النساء الأخريات، لكن الجو البهيج ليس بقدر كثافته هنا. لم تكن غاسوكي ولا نجيري حكّاءتين ماهرتين، وبالكاد تشاركان في جلسة القصّ. كما لم تكن أمي بارعة أيضًا، لكن حين يدفعها الآخرون للقصّ تقع على إحدى القصتين اللتين تقولهما دائمًا. إحداها عن حدّاد ذهب لورشة بعيدة مخلفًا زوجة حبلى. فساعدها غول على الولادة، لكنه عند وقت الرضاعة كان قد التهم كل الطعام والعصيدة المعدّة للأم. لقاء زيت

بذور الخروع، وافقت حمامة على إبلاغ النبأ للحدّاد الذي عاد وقتل الغول واجتمع بزوجته وعائلته في سعادة. أما القصّة الأخرى فحكاية أبسط، تكاد تكون بلا حبكة، عن رجل ذي جرح لا يشفى، إلا أنه لم يقنط وراح يسعى إلى العلاج. لم يكن يعلم مقر المعالج الشهير، لكنه يعرفه باسم نديرو. في سؤاله للغرباء عن الطريق، راح يصف المعالج بمشيته وخطواته الراقصة، والجلاجل ذات النغم حول كاحليه تصوّت باسمه، نديرو. كانت هذه القصة مفضلة الأطفال. إذ بمقدورنا أن نتصوّر المعالج وننضمّ إلى الجوقة، نقف أحيانًا وننادي "نديرو" معًا. أحبّت إحدى أخواتي العلّات الحكاية حدّ أنها تبنّتها لتصبح قصّتها حين يجيء دورها في القصّ.

نهارًا، نحاول أن نعيد سرد هذه القصص التي سمعناها بيننا، لكنها لا تجيء جذابة كما هي حين تقال بجانب النار، حيث تعجّ المساحة بمستمعين متّقدين ومتفاعلين. تقول أمهاتنا دائمًا إن ضوء النهار ينفّر القصص، ولكم بدَين محقّات.

ثمة استثناء واحد تمرّد على قاعدة الليل والنهار. وابيا الطفل الخامس أو الابنة الثانية من أبناء وانغاري السبعة. أربعة من أبنائها السبعة لديهم صعوبات جسدية بشكل أو بآخر، أكثرها حدّة لدى الشقيقين: غيتوغو ووابيا. فقد غيتوغو قدرته على الكلام في اليوم الذي فقدت فيه شقيقته وابيا بصرها وقدرتها على الحركة. ولد الاثنان متمتّعين بالسمع والبصر، لكن في أحد الأيام بينما تحمل وابيا أخاها غيتوغو على ظهرها، ضربتهما الصاعقة. اشتكت وابيا من أن أحدًا قد أطفأ الشمس، فيما غيتوغو، بإشاراته، قال إن هذا الأحد أسكت الصوت كله. تعلم لاحقًا التحدث بالإشارة بالتوازي مع أصوات حلقية لا تُحل شفرتها. لم يكن لدى غيتوغو، الوسيم الجسيم، أي صعوبة جسديّة أخرى. لكن وابيا فقدت كل قدرتها في تحريك مفاصل

الساقين. فلا يمكنها الوقوف أو المشي بضع خطوات إلا بمساعدة عكازين.

كانت تجلس أو تستلقي في الفناء دائمًا، تحت زوائد سقف كوخ أمها. تخطو أحيانًا بضع خطوات عنه، ثم تتمدّد في الشمس. لكن صوتها وذاكرتها باتا أقوى على نحوٍ غريب. حين تغنّي، وهو ما تفعله غالبًا، فيمكن أن يُسمع صوتها في مكانٍ بعيد. لم تذهب إلى الكنيسة قط، لكن باستماعها لأولئك الذاهبين فهي تتذكر ما سمعتهم يغنّونه، بدت مع الوقت مخزنًا لترانيمٍ وألحان تغنى في كنائس متعددة. لكنها تعرف أيضًا أغاني أخرى، خصوصًا أغنيات القصص التي سمعتها حول نار أمها. لا تهرب منها القصص في النهار، ونحن الأطفال، بتنا المستقبل الشكور لقدراتها في الحفظ. لا تسهم أبدًا في سرد المساء، تستمع وحسب، لكن بمقدورها في اليوم التالي أن تعيد القصص ذاتها بقدرة تخيليّة تزيدها تشويقًا ومتعة عن المرة الأولى التي قيلت فيها. بتعديل نغمة صوتها تعيد خلق شعريّة القصص وتراجيديّتها من جديد. كانت تمتلك القصص. بالطبع لا بد أن نتلطّف معها، ونحبّ بعضنا، ونطيع والدينا كي تحرر لنا القصة في النهار. إذا ما تشاجرنا أو عصينا أمهاتنا، تدّعي أن الحكاية ولّت حزينة. كان علينا أن نقنعها ونعدها بأننا سنحسن سلوكنا. يطلب بعض الأطفال قصصًا منها وحين ترفض يأخذون عكازيها انتقامًا. لكنها لا ترضخ لمطالبهم. وقد كنت من أكثر الأطفال المطيعين، لها على الأقل، فأجلب لها الماء وأستعيد عكازيها. كما أنها تحب كوني أكثر المصرّين الساعين لفعاليتها. امتلكت وابيا قدرة خياليّة تفوق أمها أو أي سارد آخر، تحملني إلى عوالم مجهولة، عوالم لم يمكنني لاحقًا أن ألمحها إلا بقراءة الأدب التّخييلي. حين أفكر في تلك المرحلة من طفولتي، تكون بحدود تلك القصص في كوخ وانغاري ليلًا ثم ولادتها نهارًا بصوت ابنتها.

رغم أنني لم أعرف هذا آنذاك، غير أن اثنين من أبناء وانغاري الآخرين

سيصلانني بتاريخ امتدّ في الدولة الاستعمارية والعالم. أولهما أخي الأكبر في أسرة أبي، تومبو [ذو الكرش]، كان لقبه غريبًا إذ ليست لديه بطن تُرى. كما لم تكن لديه وظيفة مرئية أيضًا، لكن الناس يتهامسون بأنه "**غيشيرو**". ثمة أشخاص يسمّون باسم "**غيشيرو**" ويجيبون عليه النداء، لكن حينها يشير الاسم إلى بشراتهم الفاتحة. كان اسمًا لهم لا وظيفة. كيف لشخص أن يحصل على وظيفة تدعى "أبيض"؟ لاحقًا وحسب، أدركت أن المفردة، بهذا الاستخدام، جاءت من اللغة السواحيلية "**kacheru**" والتي تعني "مخبر"، هكذا عرفت أنه يعمل في شرطة مخابرات سريّة.

كما أن ابنها الثالث، جوزيف كاباي، غامض بدوره، يبزغ في ذهني كطيف في شبورة. بما أنني لم ألتقه وجهًا لوجه، فصورته تكوّنها لمحات وقطع غريبة وحسب. حين كنت صبيًا، أرعى قطيع والدنا، تشاجر مع صبي يكبره، متنمر لطالما قصده وهو يحلب أبقار أبي. يشرب المتنمر بعض الحليب قسرًا فيورِّط كاباي. في أحد الأيام طعنه كاباي غاضبًا مدافعًا عن نفسه بسكّين فكانت طعنة قاتلة. اعتقل، لكن لأنه قاصر أُخذ إلى "وامونيو"، مدرسة إصلاحيّة مهنيّة، حيث تلقى بعض التعليم النظامي. بعد هذا، لا أدري قسرًا أم طواعية -حارب من أجل الملك جورج السادس، في الحرب العالمية الثانية، عنصرًا من كتيبة الرماة الأفريقيّة الملكيّة.

تكوّنت "الكي أيه آر - KAR"، كما تعرف، في 1902، بضم وحدتين سابقتين، وحدة الرماة الشرق أفريقيّة والفوج الأفريقي المركزي، وهذا الضمّ وليد أفكار النقيب فردريك لوغارد الذي اشتهر بابتكاره لنظام الحكم البريطاني غير المباشر، وهي استراتيجيّة استخدام السكان الأصليين لمنطقة ما ليحاربوا السكان الأصليين في منطقة أخرى، ويُستخدم في كل جماعة الرؤساء التقليديون أو المعيّنون كي يقمعوا شعبهم لصالح العرش البريطاني.

كان للفوج دور كبير في مطاردة المراوغ الألماني فون ليتو فوربك في الحرب العالمية الأولى، كما كان له دور ضد الملك الأشانتي، الأشانتهين، في الحروب الأشانتيّة. غنّى رجال الفوج عن أنفسهم بوصفهم رجال الملك الذين يأتمرون بأمره.

Twafunga safari
Twafunga safari
Amri ya nani?
Ya Bwana,
Tufunge safari.

نسير
نسير
بأمر من نسير؟
بأمر الملك
هيّا نسير.

لم يكن كاباي الوحيد من أسرتنا الممتدة الذي حارب في الحرب العالمية الثانية. فقد انضم إليها أيضًا موانغي ابن عمي، أكبر أبناء فافا موكورو. بدأت أسماء غريبة تظهر في جلسات القص من وقت لآخر حول نار وانغاري -مثل موسيليني، وهتلر، وفرانكو، وتشرتشل، وروزفلت- وأماكن أيضًا -مثل أميركا، وألمانيا، وإيطاليا، وروسيا، واليابان، ومدغشقر وبورما-. كانت هذه الأسماء والأماكن ضبابيّة، ومثل تلك التي أحاطت هاري ثوكو في البدايات، كانت مثل ظلال في شبورة. هل كان هتلر هذا، على سبيل المثال، هو ذاته الذي رفض مصافحة جيسي أوينز؟ يمكنني أن أستوعبهم في حدود الغيلان المخيفة لقاء الأبطال في بلاد اللامكان الشفوية. هتلر وموسيليني،

اللذان هدّدا باستعباد الأفريقيين، كانا أسوأ الغيلان وأبشعهم، وبرهان نيتهم الخبيثة كان بالجوار. حتى قبل مولدي، كان بينيتو موسليني قد دخل أثيوبيا في 1936 ونفى الإمبراطور الأفريقي هيلا سيلاسي وزاد إهانة على هذا الجرح بتكوين مستعمرة شرق إفريقيا الإيطالية من أثيوبيا والمقاطعات المجاورة. قال هيلا سيلاسي لعصبة الأمم المتحّدة التي تفرجت صامتة على غزو دولة أثيوبيا العضوة فيها: "اليوم نحن، وغدًا أنتم". تحدث النّاس عن هذه الأحداث كجزء من حياتهم اليوميّة. كيف لهؤلاء الشبّان والشابّات، وبعضهم عمّال في شركة أحذية "ليمورو باتا" المجاورة، أن يعرفوا قصص مجريات كهذه في أزمانٍ مضت وأماكن بعيدة؟ عزّز الراقصون الصغار الذين غنّوا عن هتلر السيئ قاصدًا كينيا ليضع أنيارًا[13] حول أعناق الأفريقيين صورة الوحش المخيف الذي أُفلِت في العالم. لكن في وجه هذا الوحش ونواياه القاتلة تقف شخصيّات شجاعة، وهي جزء من جيش الإنقاذ البريطاني، من بينهم ابن العم موانغي وأخي كاباي. سمعنا عن مآثرهما في الحبشة ضمن الحملة المناهضة لمستعمرة موسيليني، شرق أفريقيا الإيطاليّة، مع انضمام العديد من أسماء الأماكن الجديدة للأحاديث أيضًا، مثل أديس أبابا، وإرتريا، ومقديشو، وأرض الصومال الإيطالية والبريطانية. بالطبع استعصت عليّ تعقيدات الحرب. تضافرت مقتطفات ومقتضبات القصص والهمس حول استسلام جنود موسليني في تشكيل صورة لما حدث. كان الأمر بسيطًا بالنسبة لي. فالأبطال قد هزموا الغيلان، على الأقل أولئك المحتشدين في طريقهم إلينا، وقد كان لأخينا وابن عمنا دور في هذا النصر. تصوّرت جوزيف كاباي، الذي لم ألتقه، باعتباره أشجع الأبطال وقد استسلم له جنود موسليني حقًا. كانت بيننا رابطة دم، دم والدنا، لكنه لا يزال شخصية في أرض خيالية بعيدة.

---

13 جمع نير، وهي أداة خشبيّة معترضة توضع حول عنق الثور أو لزوجين من الثيران لجر المحراث. م.

لم تقتصر دلائل الحرب على القصص ببساطة، بل كانت حولنا في كل مكان. لا يمكن للفلّاحين بيع طعامهم إلا عبر مجلس التسويق الحكومي. كما لم يكن نقل الطعام بين الأقاليم مسموحًا دون رخصة، متسببين في النقص والمجاعة لبعض المناطق. رغم أنني لم أفقه الأسباب آنذاك، إلا أن نظام إنتاج الغذاء هذا وتوزيعه كان في الواقع مساهمة المستعمرة في اقتصاد الحرب البريطانيّة. في ليمورو، أنتج الحظر مهربًا شهيرًا، كاروغو، الذي يقود شاحنته بسرعة فائقة تُفلتُه غالبًا من الشرطة التي تطارده. قبض عليه لاحقًا وسجن، وقد أصبح أسطورة في المخيّلة الشعبيّة، ويعزى له تعبير "عداد سرعة بمقياس كاروغو"، وأيضًا "**Tura na cia Karugo [انطلق مثل كاروغو]**" والتي تعني "فرّ بأقصى سرعتك" أو "لا تأبه بحدود السرعة".

ثمة أيضًا الدلائل المرئية في عبور الجنود لليمورو، أولئك الذين يعلقون أحيانًا في مسالك البلد الترابية التي تقود إلى الطرقات. مهدت الحكومة هذه المسالك بالمُرام لجعلها سالكة. عند تنقيبها عن المُرام، خلّفت أعمال الحكومة مقلعًا مستطيلًا عميقًا بحجم ملعب كرة قدم بقرب أهوار "مانغو" عند "كيمونيا"، دون مزرعة كاهاهو. مع التحسينات، صار الجنود يقفون أحيانًا ويركنون مركباتهم بجانب الطريق ويتناولون غداءهم في أي مساحة فارغة وسط الجنبات المحيطة. كانوا يمنحون بضع حبّات من "الكوكي" واللحم المعلّب للفتية من رعاة القطعان. أحد إخوتي العلّات، نجينجو وا نجيري، الراعي المساعد لأبي آنذاك، غالبًا ما يجلب بعضها للبيت، ويتحدث عن الجيش، لكنه لم يذكر قط أنه رأى شقيقنا جوزيف كاباي معهم. هل هو أيضًا، أينما كان، يركن عربته بجانب الطريق ويأكل "الكوكي" واللحم المعلّب ويعطي صبية القطعان بعضًا منه؟

في أحد الأيام، سقطت شاحنتان من قافلة الشاحنات المحمّلة بالجند

عن الطريق في مقلع المرام الغائر. توقفت بقية القافلة وركنت بجانب الطريق. ثمة فوضى في حركة المنقذين والمُنقذين. انتشرت الأخبار سريعًا. تقريبًا، حضر كل أهل القرية لمشاهدة الجرحى والقتلى وهم يُنقلون. كان التألّم مريعًا، خصوصًا بالنسبة لنا نحن الأطفال. غير أن تلك الشائعة التي سرت قائلة إن كاباي قد يكون ضمن القافلة العسكرية هي الأسوأ بالنسبة لآل ثيونغو. لا أحد لدينا لنسأله. والقصص التي تقول إنه بعيد في الحبشة لم تطمئن قلقنا. فاقم صمت الحكومة مخاوفنا. شعرت بأنني محروم من بطل حرب، وأخ علّة لن أراه أبدًا.

لكنه جاء في إحدى الليالي إلى البيت على شاحنة جيش، بمصباحين يشقّان العتمة. لم يكن الطريق يصل إلى عزبتنا. خلّفت الشاحنة مسارين وراء بستان اللورد كاهاهو إلى مساكننا. لسوء الحظ كانت السماء تمطر حينها. وهكذا علقت الشاحنة في الوحل، ثم حاول السائق أن يخرجها بتشغيل المحرك فاصطدمت بكوخ أمي وتوغلت في الوحل. قضى رجال الجيش، في زيّهم الميداني الأخضر والخاكي معتمرين قبعاتهم، معظم زيارتهم الليليّة في محاولة الحفر لإخراجها، مستخدمين الكشّافات ليروا. احتشدنا حولهم، ولم أتبيّن حتى من يكون كاباي إلا عندما ترك جماعته يحفرون، وهو طيف وسط أطياف معتمة، وألقى تحية خاطفة على العائلة. كان عائدًا من حملة أفريقيا الشرقية، يرتاح في نيروبي ويتزوّد منها، قبل أن يعيدوا نشرهم في الجبهات الأخرى في مدغشقر أو حتى بورما. من الواضح أنه وأصحابه قد أخذوا الشاحنة دون إذن، آملين أن يتجولوا لبضع ساعات، بما يكفي ليروي كاباي، قليلًا، ظمأه الذي لا بد أنه قد شعر به تجاه البيت خلال سنوات نأيه. كانت الزيارة فرصة أيضًا له ولرفاقه غير الغيكويين، الذين لا بد أنهم شعروا بأنهم أبعد عن ديارهم، كي يأكلوا طعامًا معدًا في المنزل على عكس مؤونتهم من "الكوكي" واللحم المعلّب. ذكر

بعض البلدان في الحديث عن أصولهم -أوغندا، وتنجانيقا، ونياسالاند. قال إن كتيبة الرماة الأفريقيّة الملكيّة تضمّنت أناسًا من كل أنحاء أفريقيا. حين أخرجوا الشاحنة بعد الحفر، بالكاد استطاعوا أن يأكلوا على عجل وقد كانوا تواقين للمغادرة والعودة إلى المعسكر في نيروبي. لذا لم نمض وقتًا طويلًا معه، لكنني بالكاد خلدت إلى النوم من التفكير بالتراجيديا التي انتهت للتوّ. كأن كاباي قد بزغ من قصةٍ ما، وقال مرحبًا، فوداعًا، ثم قفز عائدًا إلى القصة. لم يكن الاصطدام بكوخ أمي والحفر لإخراج الشاحنة في الليل عودة بطولية لشخص يحارب الغول حول العالم، لكن مركبته كانت أول مركبة تجيء إلى عزبتنا. أدركنا مكانة أخي حين لم يثر مالك الأرض شكوى عن المسارات التي خلفتها العربة في أرضه أو عن أشجار البستان المحنيّة. نُقشت الزيارة في ذهني إلى الأبد، وباتت الأحاديث عن الحرب الكبرى تجلب ذكرى شاحنة عسكريّة عالقة في الوحل بجانب كوخ أمي.

لا أدري كم مضى من الوقت على زيارة كاباي، قبل تلك الأحداث السحريّة التي تلته. إذ جاء رجل أبيض إلى عزبتنا. رغم امتلاك البيض لمزارع الشاي على الناحية الأخرى من سكة الحديد، حتى إنني سمعت بوجود ملاك بيض لمصنع أحذية "باتا" في "ليمورو"، فإن أقرب شيء قد رأيته إلى الرجل الأبيض هم الباعة الهنود في المتاجر. لكن ها هنا رجل أبيض حقيقي، على قدمه، في عزبتنا، ونحن نجري بجانبه وننادي "**موثونغو، موثونغو** [Mūthūngu: أبيض]". قال شيئًا بدا مثل "**Bono**" أو"**Buena**" " ثم طلب بيضًا، أعطته أمي بعضًا منه، رافضةً ماله في المقابل، فتلفظ بشيء كأنه "**grazie** [شكرًا]" وذهب قائلًا "**ciao** [وداعًا]"، التي اعتبرناها آنذاك مفردة أخرى لقول "شكرًا لك". تبعناه، حشد الأطفال، ونحن ما زلنا نناديه "**موثونغو**". ثم جاءت الصدمة.

رأينا رجالًا بيضًا يقومون بأعمال الطريق، لا يشرف هؤلاء البيض على السود لكنهم كانوا في الواقع يكسرون الصخور بأنفسهم. ثم جاء المزيد من هؤلاء العمال طلبًا للبيض، "**mayai** [ماياي: سواحيليّة]"، يلقون كلمات مثل "**buonasera** [مساء الخير]"، "**Buongiorno** [صباح الخير]" "**pronto** [مرحبا]"، "**grazie**"، لكن الكلمة الأكثر تكررًا من بينها، تلك العالقة في الذهن، كانت "**بونو**". لقد لقبناهم بالبونو: عرفت أنهم سجناء إيطاليّون من حرب دارت بين شهري أيار وتشرين الثاني في عام 1941 حين استسلم الإيطاليّون في أمبا ألاغي وغوندار، منهين حملة شرق أفريقيا. كان السجناء عمالة مستوردة، كُلّفوا ببناء الطرق من نيروبي إلى الداخل، بالتوازي مع السكة الحديديّة التي بنتها عمالة هنديّة مستوردة من قبل. بات السجناء منظرًا معتادًا في قريتنا، ولكل منزل حكاية إيطالية يقصّها.

حكايتنا متعلّقة بوابيا، شقيقة كاباي، التي لا يمكنها أن تخطو خطوة، ناهيك عن المشي، دون الاعتماد على العكازين. بعد أشهر، قد تكون سنة حتى، عاد أول "بونو" زارنا إلى عزبتنا. هذه المرة، بعد أن جمع البيض والدجاج الذي دفع حقّه، تحول انتباهه إلى وابيا، بسواحيليّته المرتبكة سأل عدة أسئلة عنها. لا أستطيع تذكر الكلمات التي تلفظ بها بالضبط، لكن أحد إخوتي العلّات ادّعى أنه قال إن بمقدوره جلب دواء قد يعالجها. أحببت وابيا. لكم كان سيكون رائعًا لو استطاعت أن تستعيد نعمة البصر والقدرة على المشي دون اعتماد. أي أن أدوية البيض ستكون ساحرة تفوق ما تصوّرنا، تفوق حتى ما في القصص التي أخبرتنا وابيا بها أيضًا.

انتظرنا الإيطالي. بات **نديرو** الأبيض في خيالنا، المعالج في القصة التي قصّتها والدتي، غير أن لديه لكنة إيطاليّة، ولم نكن نبحث عن مقره، بل

هو قادم إلينا، ونحن ببساطة ننتظر عودته. تعدى الطريق الآن ليمورو فلم يعد يتردّد "البونو" على منطقتنا كما اعتادوا، لكننا لم نفقد الأمل: لا بد أن الإيطالي سيجلب علاجًا. يا له من استقبال سيحظى به كاباي حين يعود من الحرب وترحب به شقيقته وقد استعادت كامل قدرتها على المشي والإبصار!

صور زيارة كاباي، بالرغم من أنها باتت ضبابية مع الوقت، ثم الآن وقد تجاوزتها توقعاتنا الجديدة، لم تذهب، بل عادت في بعض الأوقات بكامل خياليّتها كلما أثير موضوع الحرب في محادثة أو أداء. أشهرها رقصة موثو " m ũthĩu"، وهي رقصة "نداء وردّ" للصبية، فيها يتباهى السارد المنفرد الذي لم يغادر القرية قط ضمن العديد من الأبيات، بالأعمال البطولية المشتملة على القتال في غابات بورما، والعودة أخيرًا إلى الوطن وقد ألقى القنابل على اليابان وطرد هتلر و[الإمبراطور] هيروهيتو. هذه الإنجازات التخيليّة كانت سبب ضرورة أن تطيع الجوقة المغني المنفرد البطل وتخافه. بالطبع، يبدو الراقص المغني شرسًا حين يستل فجأة سيفًا خشبيًا عُقد على خصره، يداوله بين يديه ثم يقذفه في الهواء، ثم يمسكه ببراعة فيما يواصل الرقصة. بورما، قنابل، هيروهيتو، كانت مفردات جديدة تضاف لمفرداتي المتزايدة الخاصة بالحرب. لكننا ما زلنا ننتظر الإيطالي.

ثم لم نعد بعد نرى "**البونو ماياي**" في أي من قرانا يتجولون أو يطلبون شيئًا. لم يعودوا. ونديروّنا الأبيض لم يعد. أمّا وابيا، أختي العلّة العزيزة، لم تشف أبدًا. خلّف "البونو" بصمتهم المعمارية في الكنيسة التي شيدوها بجانب الطريق على طرف وادي الأخدود الأفريقي العظيم في ساعات الراحة، كما خلّفوا بصمتهم البيولوجيّة الاجتماعيّة في عائلات مفككة وأطفال بنيّين بلا آباء ولدوا في قرى عديدة قد زاروها.

ثم عاد أخونا العلة إلى البيت أخيرًا. حدث هذا في عام 1945، إذ انتهت

الحرب، وسُرِّح الجنود. ثمة دموع وضحكات. أما ابن العم موانغي، الابن الأكبر لفافا موكورو، فقد قتل في اشتباك، ولم يخبرنا أحد أين قتل، لكن فلسطين، أو الشرق الأوسط، بل حتى بورما ذكرت كلها في سياقات مختلفة. نجا كاباي، كاباي الأسطورة، العظيم بالنسبة لنا، أعظم بل أعلم من أبناء اللورد القس ستانلي كاهاهو. بل ثمة همسات حتى عن مغازلته لابنة مالك الأرض.

أصبح كاباي، الجندي السابق، رفيق السيّدات، ومدخّنًا شرهًا، مولعًا بالبيرة التي يشتريها من متجر بيع كحول هندي مرخص، يشربها خارج حدود المبنى، على العشب وراء حدود الفناء الخلفي، كان واحد من بضعة أفريقيين قادرين على شراء القنينة تلو القنينة مما ينتج مصنع جعّة شرق أفريقيا المملوك للأوروبيين. لاحقًا أتيح بيع الجعة الأوروبية في سوق "ليمورو"، لمالك متجر أفريقي، أثابو موتوري، فصار الشرب في فنائه الخلفي.

شعرت بالخيبة إذ يندر أن يجيء كاباي إلى البيت، وحين يجيء فهو لا يتحدث بعمق ولا بشرح مفصّل عن الحرب الكبرى، على الأقل في حضوري. بل حتى إنه لم يتحدث عن ابن العم موانغي، إذا ما التقاه أم لا أثناء الحرب. ذكر "مدغشقر" مرة، لكن باقتضاب، كأنها كانت محطة استراحة وحسب. علّق في مرة ثانية على راقصي "الموثو" وذكرهم لبورما واليابان. "تبيّن أن الأدغال البورمية شراك الموت لنا في وحدة شرق أفريقيا". قال.[14] "حوّلت الأمطار الموسميّة الطرق الترابية إلى أنهار من الوحل. كان اليابانيّون مقاتلين شرسين. لكن نحن من شرق أفريقيا أثبتنا أننا محاربو أدغال. أما تفجير "هيروشيما"، فحسنًا، لم أكن هناك، ولا يجب أن يكون هذا موضوعًا للرقص. لن يعلم العالم قط ما أعطينا نحن الأفريقيين لهذه الحرب وكيف". هذا أكثر ما فصّل به عن الحرب. كنت أحب الاستماع لحديثه عن المعارك التي خاضها، أكان

---

14 إشارة إلى وحدة المشاة الحادية عشرة (شرق أفريقيا)، جزء من الجيش الرابع عشر تحت الجنرال بيل سلِم. التلال الموازية لوادي كاباو كانت تعرف باسم وادي الموت.

قد التقى موسيليني وهتلر وجهًا لوجه قبل انسحابهما أو صافح تشرتشل والجنرالات الروس أم لا.

في إحدى المرات النادرة التي جاء فيها إلى البيت، زامنت الزيارة واحدة من جلسات القصّ في كوخ والدته. باتت حينها الحرب وتبعاتها شيئًا من الماضي. تلك الليلة كانت اللغات وعادة الحديث خلف ظهور الناس موضوع النقاش العام. حينها قاطع كاباي بتأملات في مخاطر الغيبة. وقال آنذاك قصته.

مرّة، قبل التسريح، عمل في مكتبٍ مجاور لمكتب امرأة أوروبية. اعتاد أصدقاؤه من الجيش زيارته وكانوا يتحدثون بلغة الغيكويو عن المرأة، يتساءلون كيف ستكون مضاجعتها، ويشاكسونه أحيانًا بقولهم إنه قد فعل هذا على الأرجح. هو نفسه اختار ألا يجيب وحذّرهم من مثل هذا الحديث. إذ في كينيا، في تلك الأيام، كانت مغازلة الأفريقي لأوروبيّة مخالفة للقانون. كما أنه لا يشعر بالارتياح أصلًا في المناجاة الخاصّة عن شخص حاضر من غير المتوقع أن يدرك ما يقال عنه.

ذات يوم، فيما هم منهمكون بالحديث عنها، صادف أن مرّت بهم المرأة. حيّتهم بغيكويويّة ممتازة، مضيفة أن في رأيها، لكل النساء، سوداوات أم بيضاوات، التشريح نفسه. طار الرجال حرفيًا مع أقرب مخرج أمكنهم النفاذ منه بسهولة، ولم يُشاهدوا بعدها قط بقرب المبنى. "شكرًا"، قالت السيّدة قاصدة كاباي.

بعد التسريح وضع كاباي مكتبًا لخدماته السكرتيرية والقانونية في مركز السوق الأفريقي في ليمورو. لقد اكتسب سمعة بوصفه أسرع الراقمين على راقمة "ريمينغتن"، صوت التتابع والطرق قد يسمع من الشارع جاذبًا الانتباه. يصطف الناس خارج مكتبه طلبًا للنصائح القانونيّة وكي يستكتبونه

رسائلهم بالإنجليزية. أصبح مكتبه مركز معلومات شاملًا في ما يخص مسائل البيروقراطية الاستعمارية. عزّز هذا سمعة كاباي ضمن أصحاب الثقافة الأوسع في المنطقة. بالنسبة لنا، عائلة ثيونغو، كان أفضلنا تعليمًا. ربما هذا ما أوقد رغبتي في التعلّم، والتي أبقيتها لنفسي. لم أجهر برغبات تستحيل تلبيتها؟

أردت طفلًا أن أرافق والدتي طيلة الوقت. إذا ما ذهبت لمكانٍ من دوني، فإنني أبكي لساعاتٍ طوال. وقد توّجني هذا بلقب "كيريري" أي: الطفل الباكي، فلم توقفني لا تهويدات ولا تهديدات. أنهك نفسي بالبكاء حتى أنام، وحين أستيقظ تكون والدتي بجانبي. يروق لي تناسي المرات القليلة التي استيقظت فيها وهي غائبة، ما يعني المزيد من البكاء يليه النوم فيليه الاستيقاظ، مفترضًا أن لبكائي علاقة بظهورها مجدّدًا.

لا بد أنني نمت نومًا طويلًا ذات مرة حد أنني حين استيقظت وجدت أمي تحمل طفلًا بين ذراعيها. أتذكر أن هذا الرضيع الذي لا يغادر ثدي أمي أو ظهرها أو يديها تجاوزني في البكاء. كان لبكائه قوة تفوق بكائي لأن والدتي تتوقف عن أي شيء وتلحق به. توقف بكائي حين أُخبرت أن أمي ذهبت لمكان ما كي تجلب لي طفلًا فأحظى بأخ أصغر رفيق في اللعب. كان بيننا سنة. سمي نجينجو على فافا موكورو، وبالرغم من التنافس المعتاد بين الأشقاء إلا أننا أصبحنا لاحقًا لا نفترق، خصوصًا بعد أن علّمته المشي، أو هكذا افترضت، لأن ثمة وقتًا حاكى فيه كل ما أفعل. لقد كان بكائي نداءً لرفيق لعب حقًّا. والدتي، بالسحر على الأرجح، تكهّنت بهذا وتصرفت وفق رغباتي الدامعة. هذا الإيمان بإمكانياتها السحرية للتنبؤ باحتياجاتي دُعّم لاحقًا بأفعالها الأخرى.

كانت عيناي تشقّان علي في طفولتي. جفناي يحتقنان، وعيناي تدمعان. كثيرًا ما بكيت من الألم. اعتادت أمي أخذي إلى معالج تقليدي، عند محل "كاميري" بالقرب من مركز ماء الصنابير الوحيد في "مانغو". كان المعالج يبضع بضعًا صغيرة بشفرة الموسى بموازاة الحاجب فوق الجفن المحتقن. يعصرها حتى تنزف دمًا ثم يدعك علاجًا عليها، وعلى نحو ما أشعر بتحسّن. لكن هذه الرفاهية تستمر لأسابيع قليلة وحسب. كنت أتردد على ضريح المعالج. كنت أخزّر عيني لأرى، ضايقني الناس ودعوني بلقب "**غاشيشي**"، أي الصغير الذي بالكاد يرى. لم أحبه، لأن الألقاب، حتى تلك المتعلقة بعادات سيئة مضت، قد تعلق بنا. نجحت في الكبر على الطفل الباكي، ولم أرد أن تستبدل بالطفل الأخزر.

جاء اللورد ستانلي كاهاهو لإنقاذي. لا أدري إن كانت أمي من قصدته أم العكس. لكن في أحد الأيام حممتني والدتي وأخذتني إلى الطريق، عند بوابات منزل كاهاهو، حيث جاء القس وأقلنا بسيّارته، وهي "فورد، موديل تي" قديمة. لم أكن قد ركبت قبلها داخل أي سيّارة، تمنّيت أن عينيّ لا تؤلمانني لأستمتع بالرحلة إلى مستشفى الملك جورج السادس، في "نيروبي"، المعروف سابقًا بالمستشفى المدني المحلي، لكنه سمي الآن على الملك الذي ذهب أخي العلة كاباي إلى الحرب تحت رايته. كانت المرة الأولى التي نزور أنا وأمي فيها المدينة الكبيرة. قال الطبيب بعد أن فحص عيني إن تنويمي في المستشفى ضروري. لا أدري إن كان لزوم هذا بسبب حالة عيني الصحية أم لواقع شح الصيدليات وأن بعض الأدوية لا تتوافر إلا في المستشفى. لقد تُركت بمفردي في سرير المستشفى بجانب المرضى الآخرين، وقد كانت المرة الأولى التي تتركني فيها والدتي مع غرباء تمامًا. كان كل شيء متضمنًا الرائحة مختلفًا عن بيئة الهواء المنعش في البيت. لكنني استطعت التأقلم على نحو ما. المرضى الآخرون

طيبون آنذاك، والأطباء كذلك. تضافر الناس في وقت الأسى كان مؤثرًا.

جاءت أمي والقس كاهاهو لزيارتي مرة. ثم تركاني بوعد العودة قريبًا. لا أدري كم مكثت في المستشفى، أسبوعين، أم ثلاثة، أم شهرًا، لكن بدا لي أن تنويمي استغرق زمنًا طويلًا، في مكان بعيد جدًا عن البيت. كلما تحسنت افتقدت والدتي وبيتي أكثر. أخيرًا أقر الطبيب خروجي، لكنني لم أغادر مرافق المستشفى. ليس لدي مكان أذهب إليه، ولا أدري متى ستأتي أمي والقس كاهاهو. كنت مرهقًا من المستشفى لكن لم يكن لدي سبل تواصل مع أمي، لذا جربت طريقة نؤمن نحن الأطفال بأنها وسيلة تواصل فعّال مع روح محبوب غائب، إن همست في فم أصيص طين باسم من تحب، فسيسمع أو ستسمع. لم يكن ثمة أصيص طيني بالجوار. لذا أخذت ما يشبه الأصيص، أي الإبريق، وهمست باسم أمي. لم أصدق ما حدث بعد هذا، في اليوم التالي أو ما شابه، جاءت أمي. كنت سعيدًا لرؤيتها بعينين متعافيتين. لكن لِم لَم تأت لرؤيتي قبلها؟ ولم هي بمفردها؟ لقد وضّحَت أن القس كاهاهو مشغول للغاية وسوّف يوم الزيارة. أخيرًا لم تعد تحتمل. تولّت المسألة بنفسها، سألت الناس أين يمكنها أن تستقل حافلة إلى مستشفى الملك جورج وكيف، فجاءت إلي. كنت سعيدًا بالمغادرة إلى البيت، لكنني حزين على من تركتهم ورائي.

ذهبنا إلى محطة الحافلات. كانت خدمة الحافلات رديئة ولا يمكن التنبؤ بها في تلك الأيام. لكن أخيرًا جاءت حافلة فاستقللناها واتّخذنا مقاعدنا. استطعت هذه المرة أن أنظر عبر النافذة وأرى المناظر التي على جانبي الطريق. لقد كانت مذهلة. بدا لي كأن العشب والأشجار تتحرك للخلف فيما الحافة تتقدّم. كلما أسرعت الحافلة إلى الأمام، تسارع تراجع المناظر الطبيعيّة إلى الخلف. قطعنا مسافة طويلة. ثم جاء المحصّل ليحصل رسوم النقل. أعطته أمي كل ما تملك من مال وأخبرته أننا سننزل في آخر محطة

عند "ليمورو". نظر إلينا بغرابة ثم قال: أمّاه، أنتِ ذاهبة في الاتجاه الخاطئ، إلى "نغونغ"، لا "ليمورو". في المحطة التالية، أخبرنا أن نترجل وننتظر على الناحية الأخرى من الطريق مجيء حافلة عائدة.

لحسن الحظ، في تلك اللحظة، جاءت حافلة تسير في المسار المعاكس. أوقفها وتحدث للسائق والمحصل. أعاد لأمي المال الذي أخذه منها. عاد بنا المحصل الجديد في الحافلة الجديدة عبر المدينة وأنزلنا أخيرًا في إحدى المحطات، دون أن يأخذ منا مالًا أيضًا، ثم أخذتنا الحافلة التالية إلى "ليمورو" ومنها إلى البيت.

سررت بوجودي في المدينة الكبيرة. لم أرَ مبانيَ من حجارة مجتمعة بهذا القدر قط. هل هذه هي نفس المباني التي رآها والدي شابًا في رحلته من "مورانغا"؟ أم هي التي آوت أخي العلّة كاباي، رجل الملك؟ هل أيًّا من هذه المباني هي مصدر الشاحنة التي اصطدمت بمنزلنا؟ أو ربما كلها مبانٍ نيروبية مختلفة. لا يهم في الواقع: أنا سعيد لأنني أستطيع أن أرى الآن ولم يعد عليّ أن أتحمل موسى يبضع جفني ولن يدعوني الناس "غاشيشي". لكنني مذهول أكثر من أن أمي، التي لم تجيء من قبل إلى "نيروبي" دون رفيق معاون، قد قادتني فيها كلها. بالتأكيد تستطيع أمي أن تفعل أي شيء تصبّ تركيزها عليه.

تعافت عيناي، بت قادرًا على العودة إلى ألعاب طفولتي بحرية ومتعة أكبر. إحدى الألعاب التي حرمتني منها عيناي العليلتان لعبة الانزلاق من جانب التلّ جالسًا على لوح في درب زلق قد صقله الماء الذي يجلبه الأولاد من أهوار "مانغو". ينتهي الدرب الزلق على درب ممهد تستعمله العربات. فكرة اللعبة أن يهبط اللاعب بأسرع ما يمكنه ثم ينعطف بغتة يمينًا أو شمالًا دون الطريق. يتطلب الأمر كله عينان جيدتان حتى يتفادى المرء ارتطامًا محتملًا بمركبة عابرة. بات بوسعي لعب هذه الرياضة. لا شك أنها خطرة لكنها منعشة، وفي آخر اليوم أعود مغطى بالوحل. منعت أمي هذه اللعبة على الفور، موبخة إياي على تعليم أخي الصغير عادات سيئة.

كما كنّا نلعب ما يشبه "البلياردو"، الأرض هي الطاولة، وبدلًا من الحفر الأربعة كانت لدينا واحدة. يتنافس لاعبان، كل واحد معه ستة أغطية قوارير في يده، يقفان على بعد مسافة متفق عليها، ثم يقذفان القطع بالتناوب للحفرة، الفكرة أن تُدخل قدر ما تستطيع في الحفرة من الرمية الأولى. بالنسبة للأغطية التي تخطئ الحفرة، يحاول اللاعب الآخر، بمضرب من نوعٍ ما، غطاء قنّينة مملوء بالطين لتثقل، أن يدخلها في الحفرة. يحصد الفائز أغطية الخاسر. اللاعب صاحب النقاط الأعلى هو البطل الذي ينتظر من يتحدّاه بأغطيته الستة. ثمة صبية ظلوا الأبطال الصامدين لأيام وقد جذبوا

في وقت ما منافسين من القرويين الآخرين. لم أبرع فيها قط لأنها تحتاج إلى تحالف جيد بين العين واليد. هذه اللعبة تحديدًا، في موسمها، كانت مسببة للإدمان وغالبًا ما تسببت في هجر بعض الصبية لمهماتهم المنزلية سعيًا وراء الشهرة عبر تكديس أغطية القناني. يلعب المَهَرَة أحيانًا لقاء المال. كانت أمي حازمة ضد لعبنا إياها.

لم تحب أمي أيًا من الألعاب التي تتضمّن تجمعًا من الصبية في مكان بعيد عن البيت. أرادتنا أن نكتفي بتلك التي يمكننا أن نلعبها في فنائنا، كقفز الحبل ولعبة الحجلة، لكنني أنا وأخي الصغير لم نكن بكفاءة أخواتنا العلّات وصديقاتهن في هذه الألعاب. إذ بوسعهن في قفز الحبل القيام بأعقد الحيل.

كالأطفال في بقية الأماكن، تخيّلت الطائرات. كنت آخذ ورقة ذرة جافة، بطول بوصة وعرض نصف بوصة، وأثقبها في المنتصف حيث أضع غصينًا متشعبًا إلى اثنين يأخذ شكل حرف "Y" للتوجيه. وفيما أمسك بالطرف الحر من الغصين وأركض عكس الريح تستدير الورقة، وكلما ازدادت سرعتي أسرع دورانها. صنع أخي طيارته الخاصة بنفس الطريقة. صرنا طيارين نتسابق، ونكوّن مناورات وتشكيلات هوائية معقدة. أمتعنا هذا. كما لم أحتج لتخزير عيني كي أرى.

كما صنعنا البلابل، التي تدور حول محورها حين نضرب أطرافها بشريط صغير من خيوط السيزال. الهدف في هذه اللعبة أن نرى من يستطيع أن يبقي بلبله يدور لفترة أطول، لكن تتضمن اللعبة أحيانًا سباقًا بين البلابل على مسافة معينة ليربح من يجتاز خط النهاية أولًا. ثمة مناورات أعقد تشمل محاولة إيقاع بلبل منافسك ببلبلك فيما بلبلك يواصل دورانه.

تطورنا إلى تصاميم ذات هندسة أصعب: نصنع دمى دراجات، وسيارات،

وشاحنات، وحافلات بكل مكوّناتها -كالهيكل، والعجلات، والمقود- تقودها القوة البشريّة بدلًا من محركات الاحتراق الداخلي. أضاف بعض الصبية درّاجين، وسائقين، وركّابًا. كنا نجتمع في طرق ريفيّة وأماكن مفتوحة لنعرض أعمالنا وأيضًا لنرى أفضل تصميم كي نوظّف منه بعض الأفكار في إبداعاتنا المستقبلية.

لكننا تعلمنا أيضًا صناعة دمى مفيدة. حين لم يكن لدى أمي بنيّات صغيرات، فعلنا من أجلها ما تفعله سنيناتنا من البنيّات لأمهاتهن: أي البحث عن الحطب وجلبه على ظهورنا وقد أوثق كل واحد منّا حمولته بحزام مثبّت على جبينه. لا يحمل الرجال الأحمال هكذا، بل على رؤوسهم أو أكتافهم. وقد أكسبنا هذا لقب "بنيّات أمهم"، عُني به التقدير لكنني لم أحب هذا التعبير. لذا بحثنا عن بديل رجولي لا يشمل ظهورنا، ولا أكتافنا، ولا رؤوسنا. فوجدناه: عربة! ما دمنا لا نقدر على كلفة العربة اليدوية مثل تلك الموجودة عند مالك الأرض وفي مركز التسوق الهندي، قررنا أن نصنع واحدة من الخشب. أخذنا قطعة خشب سميكة، قطعناها، نحتناها بالساطور، ثم ثقبناها في المنتصف من أجل الترس. صنعنا هيكل العربة برمته من الخشب وحسب. لكننا لم ننجح في جعل عربتنا اليدويّة عمليّة، خصوصًا على التراب المتحرك حين تغوص العجلة في الأرض، أو في الطقس الماطر حين تعلق في الوحل. كان علينا الحصول على عجلة معدنية مناسبة. عرض علينا صبي يدعى غاسيغوا أن يجلب لنا واحدة حقيقية، عجلة مستعملة مُنقذة من عربة يدوية قديمة، لقاء ثلاثين سنتًا. لكن آنذاك حتى السنت الواحد كان صعب المنال.

جربت يدي في قطف الشاي. رجوت أخواتي الكبيرات ليسمحن لي بمرافقتهن لمزرعة الشاي المملوكة لرجل أبيض يلقب "غاسوريو" لأنه يرتدي بنطالًا بحمالة على بطنه. جاءت بذور الشاي من الهند إلى "ليمورو" أول مرة

في 1903، لكن بالنسبة لي، محدقًا في الخضرة الهائلة أمامي، بدا لي أن أشجار الشاي طالما كانت جزءًا من هذه الأرض منذ الأزل. يوكل مشرف أفريقي صفوفًا من المحصول إلى قاطفين مختلفين. "ليمورو" باردة آنذاك لذا فهي هدف دائم لرش المطر. سلال السيزال المعلّقة من رؤوسنا بمثابة أردية واقية من المطر. كانت هذه المهمة عسرة علي، بالكاد أصل إلى قمة شجيرة الشاي، كما لم أستطع قطفها بالطريقة التي تستطيعها اليد الخبيرة. بوسعهم قطف الأوراق وقذفها ببراعة من وراء أكتافهم في السلال الكبيرة على ظهورهم. لم يكن لدي سلة، وقد بتُّ مزعجًا، دائمًا في الطريق، لذا لم تأخذني أخواتي معهن ثانية. وبالرغم من حاجتي إلى ثلاثين سنتًا، لم أصرّ عليهن.

كان قطف حشائش الحمى أسهل، ويوم حان موسمها ذهبت مع إخوتي وأخواتي لحصادها عند مالك الأرض، وهذه المرة جاء أخي الصغير أيضًا. مع هذا لا يزال صعبًا: لقد استغرقنا اليوم بأكمله لملء سلة سيزال صغيرة.

لا أذكر كم استغرقنا، لكن تمكنّا في الأخير من كسب مال كاف لشراء العجلة المعدنية. رفع المالك الرسوم المطلوبة. كنت أتوق لشراء العجلة فأعطيت المال الذي لدي عربونًا، لكن حين جمعت الباقي لم تعد العجلة متوفرة وبات هو المدين لي بالمال. وعدنا أن يجلب لنا عجلة أخرى. وقد خبنا، استأنفنا جهودنا الهندسية وخرجنا أخيرًا بعجلة ناجعة أفضل من سابقتها وأصقل. جمعنا بعدها الخشب، والمسامير، والأسلاك حيث ثقفناها ونجحنا في صنع مظهر مشابه للعربة اليدوية. متسلحان ببدعتنا الجديدة على نحو كبير، شققنا مسافات طويلة لجمع الحطب وجلب الماء في علب صفيح. كثيرًا ما تفشل العجلة في الحركة المستقيمة، خصوصًا على الأسطح الخشنة غير الممهدة، فتحتاج إلى قوّتينا، أحدنا في الأمام يسحبها بحبل والآخر في الخلف يدفعها بالمقابض.

أخذنا بدعتنا منزلية الصنع إلى كل مكان، حتى لحقول حشيشة الحمّى، حيث جذبت انتباه بقية الأطفال، خصوصًا نجيمي وغيتاو، ابنَي مالك الأرض الصغيرين، اللذين يأتيان إلى الحقول عادة، ليس للعمل، بل لصحبة سنناثهما، كاسرين رتابة الحبس في البيت. ذهل الأطفال من بدعتنا ورجونا كي يدفعوها. كنا مترددين في السماح للآخرين بلمسها، لذا جلبوا لنا عربة حقيقية بديلًا لعربتنا. يا له من فرق بين العربة الحقيقية واختراعنا! لكن لخاصّتنا جاذبية الدمية منزليّة الصنع!

استخدمنا هذا الطلب على لعبتنا لكسب امتيازات أخرى. لم تلتهم حقول حشيشة الحمّى كل الغابة. لا تزال وافرة بالشجيرات. كنا نذهب لتسلّق الأشجار، فنبني الجسور أحيانًا بوصل أغصان شجرة مع الأخرى، أو نستخدم الأغصان لنتمرجح من شجرة لشجرة. أما ما تلهّفنا عليه كثيرًا فمطاردة أرنب برّي وصيده أو حتّى ظبي. لوحظ ظبي مرة في حقول حشيشة الحمّى، وكل القوة العاملة توقفت عما كانت تفعل لمطاردة الحيوان، كانوا يصرخون: "امسكوا بالظبي"، لكن سرعة الحيوان تفوق المطاردين الصارخين. عادة ما نسمع بصبية نجحوا بطرح واحد وما شابه، لكن اتضح من هذه التجربة أننا دون مساعدة كلب لن نتمكن قط من أن نمسك أرنبًا بريًّا، ناهيك عن الظبي. مقابل الإذن بدفع عربتنا، أقنعنا نجيمي وغيتاو بجلب كلابهما لمساعدتنا في صيد حيوان وحمل جثته إلى المنزل على العربة. كنا محظوظين بملاحظة الأرنب البرّي، طفقنا فورًا نلاحقه وقد قادتنا الكلاب. خلّفنا الأرنب البرّي والكلاب وراءهم، لكن النباح قادنا إلى شجيرة شائكة كثيفة الأغصان. كان الكلاب ينبحون تجاهها، وهي حيث لجأ الأرنب البريّ الخائف، لا الأحجار المقذوفة عليه ولا هز الشجيرة دفعا الأرنب البرّى لمغادرة جحره. لم نمسك بأرنب بريّ قط، وبعد بعض الوقت بلت جِدّة العربة منزليّة الصنع

بالنسبة لنجيمي وغيتاو، وفقد امتياز دفع العربة قيمته عندنا. تقت أنا وأخي لامتلاك كلاب تأتمر بأمرنا في أي وقت نرغب فيه الصيد، أو كلاب تلحق بنا فيما نطيّر طائراتنا.

لكن العربة لم تفقد بعد جاذبيتها بالنسبة لأولئك الذين يرونها للمرة الأولى. لقد فُتن فتى هندي بسحر الدمية. يحيط المجتمع الهندي بنفسه، لا يتصل بالأفريقيين ولا البيض إلا عبر متاجره. المتاجر الهنديّة في واجهة مساكنهم. عدا ذلك فالحياة العائليّة في الفناء الخلفي، محاطة بسور حجري مرتفع. كما تحاوط الأسوار العالية حتى فناء المدرسة. الأفريقيون الوحيدون الذين ألقوا نظرة خاطفة على حياة العائلة الهندية كانوا المنظفين والكنّاسين، الذين قالوا إن الهنود من جنسيات مختلفة، وأديان مختلفة، ولغات مختلفة -كالسيخ، والجاينيين، والهندوس، والغوجارت. يتحدثون عن الصراعات داخل العائلة الواحدة وبين العوائل، مناقضين صورة التناغم الظاهر. حتّى إن التواصل أقل بين الأطفال الهنود والأفريقيين. أحيانًا حين يغامر بعض الأطفال الهنود خارج حدود المتاجر، يقذفهم الفتية الأفريقيون بالحجارة من أجل المتعة الناتجة عن رؤيتهم وهم يرتدّون لأفنيتهم المحصّنة. من داخل الحصن، يردون على الحجارة بحجارة مضادة. أكثر من نخاف هم السيخ ذوو العمائم، إذ يقال إنهم يحملون سيوفًا ونخشى حين يركضون عائدين للداخل من أنهم سيأخذون أسلحتهم الخطرة. لكن فضول الأطفال تجاه بعضهم يفوق حواجز الأسوار الحجرية وتحذيرات الكبار أحيانًا. وهكذا جذبت عربتنا المتهادية منزلية الصنع عيني طفل هندي رجانا أن نسمح له بدفعها. لقد مهد الطريق بإعطائنا كرتين زجاجيتين صغيرتين ملونتين. لاحقًا صارت هدية الحلوى من وقتٍ لآخر ترأب الصدع البشري. وأخيرًا عقدت بيننا صداقة من نوع ما، بجروين لأم ولدت العديد من الجراء في ولادة واحدة.

أخيرًا بات لدينا كلبان بمقدورنا أن ننسبهما لنا. جلبناهما إلى البيت في نصر، لكن أمي تكره براز الكلاب إلى درجة أنها وضعتهما في سلة وأخذتهما عائدة إلى مركز التسوّق الهندي وحررتهما. أخبرنا صديقنا الهندي أن الجراء فرت فأعطانا بديلًا لها. حاولنا تربية الجرو بسرية، فبنينا له مربضًا في الدغل بالقرب من مكبّ النفايات. أطعمناه بسرية، لكن لا بد أن أمي قد اكتشفت أمرنا. إذ استيقظنا يومًا فألفينا الجرو قد غادر. لم نر صديقنا الهندي الكريم ثانية، ولم نستطع الطرق على بابه لنسأل عنه. إضافة إلى هذا، ما الذي يمكننا قوله له؟ هرب الجرو ثانية؟

شفيت بعدها من أدنى محبة للكلاب. إذ حين ذهبت إلى حقول حشيشة الحمّى ذات يوم، قاطعًا الدرب الذي يوصل إلى منزل مالك الأرض، جاءت كلابه، تلك التي كانت رفيقتنا في الصيد، تنبحني. فررت كي أنجو بحياتي، لكن الكلاب طرحتني فغرز أحدها أنيابه في ساقي فوق الكاحل مباشرة، عضة خلّفت وراءها ندبة وخشية دائمة من الكلاب.

تذكرت هلع الأرنب البرّي الذي حاولنا سابقًا الإمساك به وشعرت به. تركت الصيد وحدي وتمسكت بدُمَاي منزلية الصنع.

ذات مساء، سألتني أمي: هل تود الذهاب إلى المدرسة؟ حدث هذا في عام 1947. لم أستطع تذكر اليوم أو الشهر. لكنني أذكر أنني في البدء ظللت دون شيء أقوله. لكن السؤال والمشهد نُقِش في ذهني إلى الأبد.

حتى قبل تسريح كاباي، التحق معظم الأطفال ممن يصغرونه، بمن فيهم أخي الكبير والس موانغي، بالمدرسة، كفّ معظمهم بعد سنة أو اثنتين، بسبب تكاليف الدراسة. أما الفتيات، وهن بالغات الذكاء، فوضعهن أسوأ، إذ يلتحقن بالمدرسة لأقل من سنة، وقد تعلّمت بعضهن في البيوت وعرفن ما يكفيهن لقراءة الكتاب المقدس. كانت المدرسة أمرًا بعيد الاحتمال، فهي إما لمن يكبرني أو ينتمي إلى عائلة ثرية. لم أفكر فيها قط بوصفها احتمالية بالنسبة لي.

لذا ربّيت الرغبة في الدراسة بصمت. رغم أن مكانة أخي كاباي في منزل أبي هي التي زرعت بذور هذه الرغبة، إلا أن ما نمّاها لديّ مسألة التأثر بأطفال القس اللورد كاهاهو: نجامبي، الفتاة، ونجيمي، الابن، كلاهما سنيناي، أكثر من كونه تأسيًا بكاباي أو شقيقي والس موانغي. حين كنت أعمل في حقول والدهم وأحصد زهور حشيشة الحمّى، كنت أتفاعل معهم غالبًا، لكنني لم أتخيل قط أنني قد أصير ضمن عالمهم. لقد عشنا في نطاقين متضادين.

فملكية كاهاهو للعربات، وارتياد الكنيسة، والقوة الاقتصاديّة،

والحداثة، جميعها مضادة لنا في مواصلتنا للعمل الشاق، والفقر، والتمسّك بالتقاليد، رغمًا عن مآثر كاباي المجيدة، وثراء أبي بالبقر والمعز وتأييده اللفظي للأسلاف. الملابس التي يرتديها أبناء كاهاهو كانت برّاقة: للفتيات فساتين، أما معظم أخواتي فيلتفعن بملافع قطنية بيضاء، تصبغ أحيانًا بالأزرق، على تنورة، تثبت أطرافها معًا بدبابيس وتحزم بحزام منسوج من الصوف. قمصان صبية كاهاهو وبناطيلهم القصيرة الخاكيّة، التي تثبت بالحمّالات، كانت النقيض لقماشي المستطيل القطني الوحيد، كنت أتأبط وسطه تحت إبطي الأيسر وأعقد أطرافه في أنشوطة فوق كتفي الأيمن. لا بنطال ولا ملابس داخليّة. حين كنا نجري أنا وأخي على النتوء الجبلي، نلعب ألعابنا، كانت الرياح تحوّل أقمشتنا إلى أجنحة كاشفة أجسامنا العارية. ربطت المدرسة باللباس الخاكي، والبنطال القصير، والحمّالة، وحشية الكتف. وبما أن أمي طرحت مسألة المدرسة أمامي، حضر الزي إلى الرؤية.

كان هذا عرض المستحيل الذي سلبني كلماتي. اضطرت أمي للسؤال ثانية.

"نعم، نعم" قلت قولي بسرعة تحسبًا كي لا تغيّر رأيها.

"تعلم أننا فقراء".

"نعم".

"لذا أيمكن ألا تحظى دائمًا بوجبة منتصف اليوم؟"

"نعم، أمي".

"عدني أنك لن تخزيَني برفضك يومًا للذهاب إلى المدرسة بسبب الجوع أو لأي مصاعب أخرى؟"

"نعم، نعم!"

"وأنك ستبذل أفضل ما في وسعك دائمًا؟"

كنت سأعد بأي شيء تطلبه في تلك اللحظة. لكنني حين نظرت إليها وقلت نعم، أدركت أنني وهي عقدنا اتفاقًا: سأبذل الأفضل دائمًا مهما تكن الصعوبات، مهما يكن الحاجز.

"ستبدأ في مدرسة "كامندورا" إذن".

لا أدري لم اختارت أمي "كامندورا"، حيث يذهب أطفال مالك الأرض، بدلًا من مدرسة "مانغو"، التي التحق بها أخي والس موانغي. ربما بسبب الاختلافات في الدراسة، أو لأن خالي غيسيني، وهو يكبرني بكثير، ملتحق بكامندورا وسيرعاني. أظن أن أمي وثقت بالقس اللورد كاهاهو بناءً على دوره في مساعدتها على علاج عيني وهكذا اعتمدت على نصيحته. لم أمانع هذا الاختيار لأنني حينها سأحظى بزي مدرسي كأطفال مالك الأرض بالتأكيد.

لم يكن لأبي رأي في هذه المبادرة. كانت حلم أمي وصنيعها وحدها. لذا جمعت المال لدراستي وزيّي ببيع منتجاتها في السوق. ثم أخذتني ذات يوم إلى مركز التسوّق الهندي، كنت قد زرته من قبل، لكنني لم أرى المتاجر باعتبارها متاجرًا قد تعنيني في شيء مباشر باستثناء بعض المتاجر التي تخزّن مكعبات السكر غير المعالج -قصب الجور أو "الجاغري" أو "cukari wa nguru" كما نسميه- الذي نشتريه لقاء بضعة سنتات، هذه سكاكرنا. لكنني رأيت المتاجر المدعوّة "بازار الشاه" أو "معدّات الخياطة" حينها في ضوء آخر: ففيها الآن ما يمكن أن يشبع رغبتي. شققنا طريقنا أخيرًا إلى متجر متخصص في الزي المدرسي. على الجدار علقت صورة رجل هندي نحيل يرتدي نظارات. يبدو أنه يرتدي قماشًا قطنيًا يعمل بمثابة بنطال وقميص في نفسِ الوقت. كيف له ذلك، فكّرت، متسائلًا هل بوسعي توضيب قماشي ليغطي جسدي بالطريقة نفسها. ابتاعت لي أمي قميصًا وبنطالًا قصيرًا، سادة، دون حمالة بنطال ولا حشية أكتاف، لكن عدم توفر هذه الزينة لم يُبهت

بهجتي. نسيت أن أسأل أمي عن الهندي واهن المظهر ولماذا تعلق صورته على الحائط. كنت منهمكًا في تأملي لممتلكاتي الجديدة. خيبتي الوحيدة أنني مضطر إلى الانتظار حتى تبدأ المدرسة قبل أن أرتديها. وقد حدث أخيرًا!

اليوم الذي أرتدي فيه زيّي الخاكي وأقطع ميلان إلى "كامندورا" هو اليوم الذي أدخل فيه سديم عالم الأحلام الناعم وأطفو. أنا في السديم مثل نجامبي، أصغر بنات مالك الأرض، التي قادتني إلى المدرسة في اليوم الأول، لتريني صفي الابتدائي، صفّ "B"، الذي تدرس فيه أختها الأكبر، جوانا. المعلمون مثل شخصيات في حلم. آيزاك كوريا ذو العينين الكبيرتين يسجل التلاميذ الجدد. سألني عن اسمي، فقلت نغوغي وا وانجيكو، لأنني أُعرَف في البيت بأمي. ارتبكت حين قوبل هذا بالقهقهات في الصف. ثم سألني: ما اسم والدك، فقلت، ثيونغو. نغوغي وا ثيونغو، هذه هي الهوية التي يجدر بي حملها في المدرسة، لكنني لم أتشوّش من الطريقتين اللتين أعرّف بهما نفسي.

لاحقًا، عرفت أن صفَّي "B" و"A" نوع من المرحلة التأهيلية، أقل قليلًا من الصف الأول، أو الدرجة الأولى، كما كان يسمى. دخلت صفّ "B" في الثلث الثالث، أمّا الآخرون فكانوا يدرسون في الفصلين السابقين. كانت نجامبي في الصف الأول، تسبقني بصفّين، لذا لا تستطيع أن تدلّني في هذا الصف. نجلس على مقاعد طويلة دون طاولات أو مناضد. تتزامن دروس الصفوف الثلاثة معًا في كنيسة حيطانها وسقفها من الصفيح المموج لكن في مساحات متباعدة دون عوازل. بمقدوري سماع كل ما يجري في المساحات الأخرى ورؤيته، لكن، كما تعلمت سريعًا، الويل لأي أحد يضبط وهو منتبه لما يحدث خارج مساحته. لكن يشقّ ألّا تنظر حيث معظم التدريس يأخذ شكل النداء والرد. يكتب المعلم بعض الأرقام أو الأحرف على السبورة السوداء ويقرأها جهرًا، فيما يعيد الأطفال خلفه أو خلفها، في غناء جماعي.

يبدو الجميع، معلّمون وطلاب، مُبهرين في غرابتهم.

عدت إلى المنزل مساءً، لا أزال في الحلم، فقط كي أستيقظ على الواقع. كان عليّ أن أنزع الزي المدرسي وأبدّل إلى لبسي المعتاد. بات هذا روتينًا. في البدء لم أجد بأسًا، لكن سرعان ما ألفيت أن الخجل يتسلّل بازدياد إلى وعيي بالعالم، خصوصًا حين أواجه الأطفال الآخرين الذين بدلوا لباسهم ببساطة إلى قمصان وبناطيل قصيرة عاديّة. لكن العناية بملابسي المدرسية واحدة من الوعود التي قطعتها لأمي. تغسل أمي طقم القميص والبنطال القصير كل نهاية أسبوع ليمكنني ارتداءها في أيام الاثنين. حين أوسّخ الملابس أثناء أيام الأسبوع، تغسلها وتجففها على النار في الليل.

ظلت المدرسة بيئة مختلفة تمامًا عن بيئة حياتي المعتادة. كنت أشعر بأنني أجنبي في عالمنا، حيث يشعر الجميع بالانتماء. ثمة العديد مما لا أفهمه. لكن عرفًا واحدًا بين الطلبة والمعلمين قد حيّرني. قبل الانقسام إلى المساحات المختلفة، يصطف كل الطلبة في نفس المكان، يحنون رؤوسهم، ويغلقون عيونهم، فيقول المعلم شيئًا من قبيل: أبانا الذي في السماء، ويتولى الطابور ما تبقى. لا أغلق عينيّ. فأنا أود أن أرى كل شيء. لكن حتى بعد قول آمين، يواصل بعض الأطفال غمغمة شيء لأنفسهم، وأعينهم لا تزال مغمضة. ظلت هذه العادة تحيرني لوقت طويل، وفي إحدى المرات لكزت فتى بجانبي لأرى هل سيفتح عينيه، لكنه أبقاها مغلقة. أدركت سريعًا أن الأطفال يصلون صلاة صامتة. في بيتي لا نصلي بصمت ولا فرادى. حين كان أبي يعيش في المسكن، كان يستيقظ صباحًا، يقف في الفناء ميمّمًا وجهه إلى جبلِ كينيا، يريق بعض الشراب الشعائري، ويقول بضع كلمات تنتهي بطلب جهري للسلام والنعمة من أجل الأسرة كلها. تعلمت لاحقًا أن أغمض عينيّ لكن ليس لدي ما أصلي صامتة بشأنه. لقد كان أكثر مرحًا حين كنت

أصطف بعينين مفتوحتين، إذ ثمة الكثير ليشغل انتباهي.

ابتعت لوحًا أسودَ وطبشورًا أبيضَ لدواعي الكتابة. كنّا ننسخ على ألواحنا ما تكتبه المعلمة على السبورة السوداء. ثم تجول بيننا وتقيّمنا على اللوح، واضعةً علامة خطأ أو صح بجانب كل مفردة أو رقم، ثم تجمعها، وتحيط الدرجة النهائية بدائرة. في البدء لم أدرك بعد أن قيّمتني أن عليّ الانتظار حتى تسجل الرقم في السجل لحفظه. دعكت واجبي حالما قيمته المعلمة، لكن حين عدت إلى المنزل وسألتني أمي ماذا فعلت وكيف كان مستواي فقلت إنني مسحت كل شيء، قالت: إذن لا تعُد لمثل هذا، انتظر حتى تطلب منك المعلمة أن تفعل ذلك. صححت المعلمة فكرتي أيضًا، وإلا فسأحصل على صفر إن فعلت ثانية، بعدها حين صارت المعلمة تكتب على لوحي "10/10"، صرت أقول لأمي إذا ما سألت عن صنيعي: عشرة من عشرة، تسأل أمي أسئلة فاحصة تنتهي بقولها: هل هذا أفضل ما بوسعك؟ هذا السؤال الذي ظلت تسأله في الرد على مستواي المدرسي، وتمارين الصف، والاختبارات: هل هذا أفضل ما يمكنك فعله؟ حتى حين أخبرها فخورًا أنني حققت عشرة من عشرة، تسأل السؤال بطرق مختلفة، حتى أجيبها بنعم، لقد بذلت أفضل ما بوسعي. يا للغرابة، إذ يبدو أنها مهتمة بالآلية التي أصل بها أكثر من النتائج.

اندفعت عبر الصفوف التمهيديّة من واحدٍ لآخر، دون أن أفهم تمامًا لمَ عبرت من صف "B" إلى "A" ثم إلى الصف الأول، كلها في الفصل الدراسي نفسه، استمر تخطي الصفوف من فصل لآخر فإذ بي قد وصلت خلال عام دراسي واحد إلى الصف الثاني، ولا تزال أمي تسأل: هل هذا أفضل ما بوسعك؟

لست متأكدًا في ما يخص أفضل ما بوسعي، كل ما أعرفه أنني ألفيت نفسي ذات يوم قادرًا على قراءة الكتاب التمهيدي بلغتي أنا، الغيكويويّة، الكتاب الذي نستخدمه في الصف بعنوان **"Mũthomere wa Gĩkũyũ"**.

بعض الجمل بسيطة، مثل تلك التي تصف رسمًا يظهر فيه رجل وفأس ملقاة على الأرض، وجهه يعتصر من الألم فيما يمسك ركبته اليسرى بكلتي يديه، وثمة قطرات من الدم تتدفق منها. الصورة أكثر تشويقًا من المفردات:

Kamau etemete.

Etemete Kuguru.

Etemete na ithanwa!

كاماو جرح نفسه.

لقد قطع ساقه.

قطع نفسه بفأس!

أمر سريعًا على الفقرات الطويلة الخالية من الرسومات التوضيحيّة. ثمة فقرة أعدت قراءتها مرارًا، وفجأة، في أحد الأيام، بدأت أسمع موسيقى في الكلمات:

أعطى الرب "الغيكويوين" بلدًا جميلًا

وافر الماء والغذاء، وارف النبات

لا بد أن يحمد "الغيكويوون" الرب طيلة الوقت

لسخائه معهم.

حتى حين لا أقرأها، بمقدوري سماع الموسيقى فيها. لا أستطيع تحديد ما يجعلها جميلة وخالدة في ذاكرتي، ربما اختيار وترتيب المفردات، أو الإيقاع. أدركت أن حتى المفردات المكتوبة قد تحمل الموسيقى التي أحبها في القصص، خصوصًا لحن الجوقة. ومع هذا لم يكن هذا النص قصة، بل بيان وصفي. كما يفتقر للرسم التوضيحي. هو بذاته صورة، كما أنه أكثر من صورة ووصف. النص موسيقى. المفردات المكتوبة بوسعها أيضًا أن تغنّي.

ثم في أحد الأيام عثرت على نسخة من العهد القديم، ربما كانت لكاباي،

وفي اللحظة التي ألفيت نفسي فيها قادرًا على قراءته أصبح كتابي السحري الذي يقص علي القصص حين أكون بمفردي، ليلًا أو نهارًا. لم أعد بحاجة لجلسات القص في كوخ وانغاري لأسمع قصة. كنت أقرأ العهد القديم في أي مكان وزمان، ليلًا أو نهارًا، بعد أن أنهي مهامي. أصبحت الشخصيات التوراتيّة رفيقتي. بعض القصص مرعبة، مثل قايين [قابيل] حين قتل أخاه هابيل. ذات ليلة في بيت وانغاري أصبحت قصتهم محل نقاش ساخن. القصة، كما ظهرت في الجلسة، تختلف قليلًا عن تلك التي قرأتها لكنها لا تقل عنها رعبًا. في هذه النسخة عوقب قايين بالتيه في الأرض أبدًا. يحمل وسم الشيطان في جبينه ويسافر ليلًا، وهو طويل يصل رأسه إلى السماء. يدّعي بعض الحكّائين أنهم التقوه في هزيع الليل الأخير من إحدى الليالي ففروا إلى بيوتهم فزعين.

أكثر القصص زهوًا كانت قصة داوود. حيث يعزف داوود على القيثارة للملك شاؤول [طالوت] متقلب المزاج. تقلّبها بين الحب والكره صعب احتماله. بعد سنوات لاحقة تقاطعت مع سطور من الأغنية الروحانية:

"**اعزف على قيثارتك يا داوود**". لكن داوود عازف القيثارة، الشاعر، المغني هو في الآن نفسه محارب يمكنه أن يحمل النقّافة في وجه جليات [جالوت]. هو، المنتصر ضد العمالقة، مثل القواع المخادع[15]، في القصص التي قيلت في كوخ وانغاري، الذي يهزم الوحوش الأقوى دائمًا. حين تعلمت لاحقًا كيف أصنع قاذفة موصولة بغصن ذي فرعين يأخذ شكل حرف "Y"، فكرت في نقّافة داوود، رغم أنني لم ألتق جلياتي في حرب إلا أن داوود، الشاعر المحارب، ظل مثالًا في ذهني.

بعض الأحداث والمشاهد عبارة عن سحر مغلّف بسحر: مثلًا حين

---

15 القواع المخادع، واحدة من الشخصيّات المخادعة في فلكلور شرق أفريقيا، بمثابة الثعلب في الثقافة العربيّة. م.

ابتلع الحوت يونان [يونس] ثم تقيأه سالمًا على شاطئ آخر، أو قصة شدرخ، وميشخ، وعبدنغو، والملاك في ما بينهم، يتجوّلون في فرن مشتعل دون أذى، قصة تأويل دانيال كتابة الحائط [التي ظهرت لبيلشاصر] تأويلًا صحيحًا MENE, TEKEL, PERES- [مَنَا، تَقَيْل، فَرْس]- القصة التي جعلتني أبحث عن كتابات الجدران كي أؤوِّلها، وقصة دانيال في عرين الأسد، وقد خرج سالمًا، ونفخ يوشع في البوق الذي أسقط أسوار أريحا. بعض هذه الصور جبارة وظلت مطبوعة في ذهني. أدركت عندها لِم يبدأ المسيحيون في "كامندورا" صلاتهم بالابتهال لرب إبراهيم وإسحاق.

يحبطني الليل لأنني أقرأ على ضوء مصباح "كيروسين" مكشوف لا يعتمد عليه. يتطلّب "البارافين" المال وثمة أيام يخلو فيها المصباح من الزيت. أعتمد في معظم الوقت على نور النار الذي لا يعتمد عليها بدورها. ضوء النهار مرحب به دائمًا. فهو يتيح لكتاب السحر أن يقص علي القصص دون مقاطعات عدا إذا ما اضطررت للقيام بهذه المهمة أو تلك. هذه القدرة على الهرب إلى عالم سحري تستحق عناء ذهابي إلى المدرسة. شكرًا، أمي، شكرًا لكِ. لقد فتحت المدرسة عينيّ. فصرت كلّما سمعت في الكنيسة الكلمات التي تقول: **كنت أعمى فأبصرت**، من ترنيمة "**النعمة المذهلة**" أتذكر مدرسة "كامندورا"، واليوم الذي تعلمت فيه القراءة.

لكن لِم يتذكر المرء بعض الشخصيّات والأحداث بوضوح ولا يتذكّر بعضها الآخر إطلاقًا؟ كيف يختار الدماغ ما يدفنه في العمق وما يسمح له بالطفو على السطح؟ لا يزال بعض طلاب "كامندورا" راسخين في ذهني. ثمة ليزي نيامبورا، ابنة كيهيكا، في الصف الخامس، معروفة بكونها أذكى حتى من الأساتذة أنفسهم، والتي أصبحت بعد سنوات، من بين نساء ورجال المنطقة، الأولى التي تُقبل بجامعة "ماكيري" لتتخصّص في الرياضيات. أخوها بورتن

كيهيكا اشتهر بوصفه العدّاء الأسرع في المدرسة وبعد سنوات واصل إشباع حبّ السرعة بالسباق على دراجة في الطرقات السريعة ذات الهاويات الكثيرة والمخارج الضيقة. ثمة نجامبي كاهاهو، مرشدتي الأولى، التي التحقت لاحقًا بمدرسة "ألاينس" للبنات ومنها إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، ثم تزوَّجت، توفيت بعد زواجها وفاة تراجيديّة أثناء الولادة. ثمة ندونغو وا ليفينغستن الذي يرتدي حمّالات بنطال تقع دائمًا عن كتفه وتظل تتدلى على جانبه، الوحيد الذي لديه لوح بسطور ذات مسافة بادئة، ومن ظلت كتابته نموذجيّة دائمًا. ثمة مومبي وا مبيرو أيضًا، التي أصبحت لاحقًا أول من يركب "سكوتر" من الرجال والنساء في بلدتنا. ثمة ماري، التي تزوجت لاحقًا من كيبوثو، شقيق مومبي، ماري التي تصارع الصبية الكبار وتطرحهم أرضًا. خلال فترة مكوثي في "كامندورا"، كنت مرعوبًا منها، أتجنبها، ولا أظن أنني قد تحدثت معها قط، حتى لمرة. ثمة واميثي وا أوماري (هاميسي أوماري، الذي تزوج بعد سنوات وانجاو، واحدة من أخواتي العلات) وجوما، المنحدران من عوائل مسلمة، ورغم هذا التحقا بمدرسة مسيحية، لم يبدو هذا الواقع مزعجًا لهم أو لأي شخص آخر.

لكن قد يكون الأطفال قساة، متنمرين لا يرحمون، كما حدث في حالة آيغوغو. كان فارع الطول، أطول من بقية الأطفال وأكبر منهم. يعني اسمه "الغراب" أو "الطير الأسود". لذا يحتشد بعض الصبية قربه وينعقون. يزعجه هذا، لكن حين يندفع إليهم غاضبًا يتفرّقون في كل الاتجاهات. يُرهق في بعض الأيام من محاولة اللحاق بمعذبيه قبل أن يقرر العودة إلى بيته، تراه فردًا وحيدًا بين الشجيرات مع بعض الأطفال وطائفة أخرى يتعقبونه على بعد مسافة منه يغنّون اسمه بنبرات ساخرة مختلفة. لم يستطع الحصول على مساعدة من المعلمين: فكيف يمنعون الأطفال من محاكاة الغراب؟ كف

الفتى في الأخير عن الذهاب إلى المدرسة، ومهما تكن أسبابه الأخرى، كانت هذه القسوة الجمعيّة من ضمن العوامل المسبّبة.

العديد من معلّمي "كامندورا" بمثابة خيالات في ذاكرتي، رغم أني أتذكر آيزاك كوريا واسع العينين، الذي سجّلني ابنًا لأبي بدلًا من أن يسجّلني ابنًا لأمي. ثمة أيضًا پول كاهاهو، الذي لعب فيما بعد دورًا في أقدار عائلتي الممتدة، وأخته، جوانا، التي أقرّ بفضلها في تعليمي القراءة، وراهابو (نيوكافي كيامباتي)، التي ادعى العديد من صغار العائلات أنها معلمتهم. ثمة معلم واحد، بنسون كاماو، يلقب "غيثوري"، أي: الرجل العجوز، الذي عهدناه يغني دروسه في أغانٍ سخيفة مثل: **البقر ممتلكات، المال ممتلكات، المعز ممتلكات** والتي تصبح مملة على نحو عبثي بتكرارها، لكنها مع هذا ظلت في البال.

واحد من الأحداث التي أتذكرها بقلبٍ موجع، وقعت حينما كنت في الصف الأول، وقد اختارتني الأستاذة جوانا لأنضم إلى فرقة أداء ستنشد "التطويبات" عن ظهر قلب من إنجيل "متّى" وبضعة مقاطع من إنجيل "مرقس" في اجتماع نهاية العام للآباء والطلبة. حفظت كل الفقرات في ذاكرتي، فقد كانت شعريّة، بمثابة موسيقى. وقد تطلّعت إلى تأديتها، حلمت بها. لكن في يوم العرض غادرت المنزل متأخرًا قليلًا ووصلت فيما المجموعة تقول:

"وَقَدَّمَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ أَوْلاَداً صِغَاراً لِكَيْ يَلْمِسَهُمْ. فَزَجَرَهُمُ التّلاَمِيذُ. فَلَمّا رَأَى يَسُوعُ ذلِكَ، غَضِبَ وَقَالَ لَهُمْ: "دَعُوا الصِّغَارَ يَأْتُونَ إِلَيّ، وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ، لأَنّ لِمِثْلِ هَؤُلاءِ مَلَكُوتَ اللهِ!"[16]

خلّف عدم لحاقي بفرقة الإنشاد ثقبًا داخليًا، بجانب الحاجة إلى فرصة ثانية لأكفّر عن نفسي لنفسي. طيلة فترة التحاقي بالمدرسة أملت دائمًا أن

---

16 ترجمة كتاب الحياة. م.

مثل هذه الفرصة ستجيء من نفسها.

لكن الفرصة لم تأتِ قط. أخبرني أخي الكبير والاس موانغي، باتفاق واضح مع أمي، أن عليّ مغادرة "كامندورا" والالتحاق بمدرسة "مانغو". هكذا على حين غرة، دون أن يكون متَوقّعًا. حدث هذا في نهاية عام 1948، وقد أمضيت حينها عامين وحسب في "كامندورا"، أو على نحو أدق، سنة ونصف، لأنني بدأت في الفصل الأخير من 1947. تولّدت لدي العديد من التساؤلات لكنني أدركت حينها أن هذه هي النهاية لطور مهمّ من حياتي. انتهى ذلك التردد بين الحلم والحقيقة أثناء فترتي في "كامندورا"، لكنني حملت منذ ذاك سحر تعلّم القراءة وذكرى الخسارة في داخلي. على الأرجح ستزيد "مانغو" المجهولة هذه سحر القراءة، وربما تهدهد ألم الخسارة، لكنني لم أصدّق أنها سترأب الثقب أبدًا.

لم تكن "مانغو" بعيدة: فهي على النتوء الجبلي المقابل لبيتنا، أي عزبة أبي، إن أراد المرء أن يصلنا عليه أن يهبط منحدر النتوء باتجاهنا، ثم يعبر واديًا صغيرًا بالقرب من أهوار "مانغو"، ثم يصعد النتوء التالي، نتوء "كيبيا"، إلى المسكن. قصر المسافة وخبر بدء أخي الصغير الدراسة في "مانغو" كانا كافيين لإبهاجي، وهكذا بدأت أشعر بالرضى تجاه التغيير.

كان نجينجو فريدًا عندي وظل هكذا حتى بعد إدراكي أن قدومه إلى العالم ليس متعلّقًا بدموعي. لكن المنافسة الأخويّة على اهتمام أمنا دائمًا ما ولّدت بيننا التوتر. وإذ قاسمنا أمنا الفراش، فقد كنّا نتصارع على من يكون بجانب صدر أمي. لكن لحظات التوتر تتبدّل بلحظات مودّة حين نتقاسم كل شيء، كالموزة والبطاطا الحلوة، ونقضم بالتناوب، سعيدان. لكن بعد أن تمضي بضعة أيام، نتبادل الاتهامات والاتهامات المضادة لصاحب القضمة الأكبر أو من كان دوره جائرًا، تحل أمي النزاع حين تأمرنا بمحبة أحدنا الآخر بصفتنا إخوة، ثم يتبع هذا الأمر حديث مقتضب عن أهمية العائلة. لم تكن مضطرة لتقنعنا: لقد كنا أخوين وصديقين مقرّبين في الوقت نفسه.

مرة، بعد انتقالنا إلى مدرسة "مانغو" مباشرة، قفزت سورًا خفيضًا شائكًا حول المدرسة. أصابت إحدى الأشواك مقدمة قدمي اليسرى وقطعت اللحم قطعًا غائرًا. تورّمت في ما بعد وآلمتني ألمًا شديدًا فلم أقدر على المشي.

لم تكن ثمة عيادات طبيّة قريبة ولا أطباء يمكننا الدفع لهم. داومت أمي على غسل الجرح بالماء المالح وحسب. كان أخي يحملني، فعليًا، على عربة يدويّة من مكان إلى آخر. بشكلٍ ما بعد أسابيع من تطبيب أمي لقدمي، تمكنت من المشي ثانية. خلّفت هذه الحادثة ندبة بطول بوصة بقيت معي حتى اليوم. كما خلّفت امتنانًا وافرًا، إذ علمت في ما بعد بأمر طفل قضى نحبه من جرح مماثل، جرّاء مرض الكزّاز.

لكن هذه الذكرى ومحبّتي لنجينجو قد شابها الشعور بالذنب الذي جلبته ملابسي الجديدة. لقد اعتدت على البنطال الخاكيّ القصير في المدرسة، بينما واصلت في البيت ارتداء قماشي الحر التقليدي المعقود على كتفي الأيمن، تمامًا مثل أخي، الذي يرتدي أحيانًا السروال القصير تحته. لم نعد نفترق أنا وأخي. كنت أحاول أن أعلّمه ما تعلمته في المدرسة، لكنه يمانع، خصوصًا أنه سيلتحق بالمدرسة ويتعلم مباشرة من معلمين قديرين كما فعلت. أراد أن يُحترم بصفته مساويًا لي أما أنا فأردت أخًا أصغرَ يتطلّع لي.

في إحدى نهايات الأسبوع حين كان ثمة أنشطة رياضة في شركة أحذية "ليمورو باتا"، سُمح لي بارتداء زيي المدرسي. أخي، الذي لم يلتحق بالمدرسة بعد وبالتالي ليس لديه زيّ، ارتدى سروالًا وعقد قماشه. المهرجانات الرياضيّة مسليّة دائمًا. أحببت السباقات أكثر من غيرها، خصوصًا سباق المسافات الطويلة، الذي يستمر لميل أو أكثر، إذ كنت مولعًا بالإيقاع وتغيير "التكتيكات". يبدأ العديد من المتنافسين معًا. ثم ينسحب بعضهم، وحين يوشك المضمار على النهاية ينعزل اثنان أو ثلاثة متقدمين على الآخرين جميعًا ويتنافسون كي يهزم أحدهم الآخر عند خط النهاية. في سباق المسافات الطويلة، يتغيّر القادة، يأتي بعضهم من الوراء فعليًا، يتفوقون على الآخرين ويتجاوزونهم بلفّة. وجدت وأخي المتعة في التجول حول ملاعب الرياضة ونحن نختلط بالجموع. وهكذا،

أمامي، رأيت بعض الطلاب الذين لم أعرفهم حق المعرفة، يسيرون باتجاهي. أدركت فجأة، كأنها للمرة الأولى، أن أخي في إزاره التقليدي.

الحرج الذي تسلل إلى وعيي بالعالم حولي منذ أن ارتديت ملابسَ جديدة للمرة الأولى كي أذهب إلى المدرسة عاودني حينها بغزارة. استولى عليّ الهلع. قمت بالأمر الوحيد الذي ظننت أنه سينقذ الموقف. سألت أخي هل بإمكاننا أن نشق طريقين مختلفين حول الملعب لنرى من سيصل لجهة الآخر أولًا. أنا وأخي معتادان على مثل هذه المنافسات الأليفة وقد قبل التحدي فورًا. حسنًا، تجاوزت الصبية الآخرين ذوي الزي. لم ينظروا لي أي نظرة، بأي شكل كان. فأنا في النهاية مستجد في المدرسة. حين التقيت أنا وأخي، كنت نادمًا، فيما هو يغمغم بمرح لأنه هزمني حينها. دمّر تصرّفي ما تبقى من يومي. لربما سأشعر أن مأزقي أخف وطأة لو أفصحت عنه لأخي. لكنني لم أفعل فظل ولم يبارح. المشكلة، وقد أدركت حينها، ليست في أخي أو في الصبية الآخرين، بل فيّ أنا، كانت بداخلي. لقد فقدت الاتصال بمن كنت ومن أين جئت. الإيمان بالنفس أهم من القلق الهائل عن ما يظنه بك الآخرون. قدّر نفسك ليقدّرك الآخرون، فمن الأفضل أن تأتي المصادقة من الذات. في مآزق لاحقة، ساعدتني هذه الفكرة لمكابدة التحديات وتجاوزها اعتمادًا على إرادتي وعزيمتي حتى حين شكك بي الآخرون. والأهم، جعلتني أدرك أن التعليم ونمط الحياة قد يؤثران على الحكم تأثيرًا سلبيًا وتفرق النّاس.

شعرت على سبيل التعويض أنني بت أقرب إلى أخي وأكثر حماية له من قبل. بدأت أتطلع بشدة لانضمامه إليّ في "مانغو". أردت التأكد من أن شيئًا لن يدخل بيننا.

بالكاد أمضينا فصلين دراسيين في المدرسة الجديدة حين أغويت، غواية جاءت على شكل قطار وتحدت التزامي بالذهاب إلى المدرسة.

أخبرتنا أمي في إحدى المساءات، أخي الصغير وأنا، أنها ستغادر لبضعة أيام. كانت ذاهبة إلى "إلبورغن"، التي كنا نسميها "واربوغا" آنذاك، في وادي الأخدود الأفريقي العظيم، لتزور مع جدتي غاثوني، خالها داودي غاتون، وأختها، خالتي وانجيرو. سترعانا النساء الأخريات وسألتنا أمي وعدًا بأن نحسن السلوك خلال سفرها. كان القرار مفاجئًا، وقلق أمي يفوق سعادتها حيال الرحلة المتوقعة.

سمعت أن جدّتي لأمي تعيش بعيدًا مع خالتي وانجيرو. لكنهن مجرد أسماء بالنسبة لي لأنني لم ألتقيهن وجهًا لوجه، أو أنني لا أتذكر لو حدث هذا. لكن في اللحظة التي أضافت فيها أمي أنها ذاهبة إلى هناك بالقطار، تغيّر المشهد تغيرًا دراماتيكيًا. أردنا مرافقتها نحن الاثنين. قلنا لا يمكنكِ تركنا وراءكِ، وطفقنا نبكي. لكننا كنّا في منتصف السنة الدراسيّة، وأخي الصغير كان للتو قد ابتدأ الدراسة. نعم، لكن يا أمي، لا يمكنكِ تركنا هكذا. قالت أمي لا أريد دموعكما، فالخيار خياركما، قررا إذا ما كنتما راغبين في ترك المدرسة ومرافقتي. لديكما ثلاثة أيام لتفكرا في هذا!

خط سكة الحديد الذي بدأ عام 1896 في "كيليندني، مومباسا"، ووصل إلى "كيسومو" في كانون الأول من عام 1901 عابرًا قلب الأراضي الكينية، جلب مع نشأته ليس المستعمرين الأوروبيين وحسب بل العمال الهنديين،

منهم من فتح متاجرَ في الإنشاءات الرئيسية التي أثمرت لاحقًا وأصبحت بلدات على طول السكة الحديدية. وقد أنتجت أيضًا قوة عاملة أفريقيّة من الفلاحين الذين بعد أن خسروا أراضيهم لم يعد لديهم سوى قوة أطرافهم التي وظفوها لخدمة المستعمر الأبيض، هذا إذا لم يؤخذ جهدهم بالإجبار، ولخدمة الدوكواله[17] الهنديين لقاء مبلغ زهيد. أما الأرض التي كانوا أسيادها فقد قسمت لمرتفعاتٍ بيضاء للأوروبيين فقط، وأراضي العرش التي تملكها الدولة الاستعماريّة لصالح الملك البريطاني، والمحميات الأفريقية لأهل البلد. أصبح الهنود، إذ لم يسمح لهم بتملّك الأراضي، التجار الذين يقطنون في البلدات الصغيرة والكبيرة المحاذية للسكة الحديديّة بين "مومباسا" و"كيسومو". السكة الحديديّة هي الصلة بين هذه البلدات قبل أن ينافسها الطريق الذي بناه "البونو". هذه هي السكة نفسها التي أرعبت والدي وأخاه الأكبر، لكنها باتت معتادة وقد صارت جزءًا طبيعيًا من المحيط حد أن أمي تتحدث عن ركوب القطار، فيما نحن نضجّ لننضمّ إليها.

لا يمكنني توضيح عظمة غواية قطار الأحد من "مومباسا" إلى "كيسومو" أو "كامبالا". يتوقف دائمًا في "ليمورو"، حيث افتتحت محطة القطار في العاشر من تشرين الثاني لعام 1899. يصل القطار عادة في منتصف النهار. يأتي الأوربيون والهنديّون هناك ليلتقوا بالأقارب ويودعوا آخرين. يأتي بعض الأفريقيّين أيضًا ليقوموا بالمثل. لكن يتجوّل معظم الأفريقيّين هناك ليروا قدوم القطار ومغادرته، يظل الصغار للتسكع واللعب على رصيف المحطة، يمكن لنا سماع صافرة القطار من منازلنا، وحتى الدخان قد يراه المرء وهو يشق طريقه كالثعبان في السماء حين يقف على قمة مكب النفايات. تستيقظ أخواتي الكبيرات وإخوتي الكبار في كل يوم أحد ويستعدون، ليس

---

17 دوكواله: مفردة مأخوذة من الهنديّة مكوّنة من "Dukaan: متجر" و"Wala/Wallah: مالك". (دانا سايدينبيرغ، 1983.) م.

للكنيسة أو لأي احتفال محلّي، بل للقطار. يجلس البعض في مجموعات صغيرة في المسكن الفسيح، يعتنون بشعور بعضهم فيما يغسل آخرون أقدامهم في أحواض، يدرّمون أظافرهم وأعقابهم بحجر تقشير. كان المسكن يعج بأنشطة صاخبة، إذ يجيء بعض الأصدقاء من القرى المجاورة ليروا إن كان الجميع مستعدين للذهاب معهم إلى رصيف المحطة.

انطبع أحد الآحاد في ذهني إلى الأبد. كالعادة، انتهى إخوتي وأخواتي من اغتسالهم واستعداداتهم مبكرًا. لكنهم لم يؤقتوا جيدًا. فجأة سمعوا صفير القطار وقد وصل المحطة. سنتأخر على القطار! جاءت الصرخة متنافرة النبرات. خلال ثوانٍ هرعوا مسرعين، يجرون عبر المنحدر كأنهم في منافسة رياضيّة. أخواتي غاثوني، وكاغيسي، ونياغاكي، وصديقاتهن واميثا ونياجيكو، وإخوتي العلّات كانغي ومبيسي وموانغي وا غاسوكي، أطول إخوتي، وآخرون كانوا يركضون كأنهم يلحقون بحياتهم. وقفت وأخي الصغير وإخوتنا المقاربون لسنّنا -وانجا، ووانجيرو وا نجيري، وغاكوها، وغاكونغوا- على قمة مكب النفايات واستمتعنا بمشاهدة السباق إلى رصيف محطة قطار "ليمورو".

حين سمعنا مغادرة القطار بعد دقائق، طفقنا نغنّي ما ظننا أن القطار يصوّت به: تو أو-غا-ندا، تو أو-غا-ندا، وقد بدا أن القطار يقر أغنيتنا ورقصنا بصفيره المطوّل ودخانه الذي يرسله إلى السماء.

لم أذهب قط للمحطة لأشهد رومانسيّة القطار، لكننا سمعنا بالطبع العديد من قصصه المغرية. ينقسم قطار الركاب إلى أقسام: الدرجة الأولى للأوروبيّين فقط، الدرجة الثانية للهنديين فقط، والدرجة الثالثة للأفريقيين. لكم تُقت إلى الذهاب، كي أرى كل شيء بنفسي. وهنا، أخيرًا، ثمة فرصة لا تقتصر على الوقوف في المحطة والتحديق في القطار العابر وحسب، بل لأكون راكبًا أنا نفسي. لماذا أتيح للمدرسة واتفاقي مع أمي أن يعرقلاني؟

سألت أمي السؤال في اليوم الثالث وهي حازمة في كلامها، وانتظرت قرارنا. كان أخي الصغير عجلًا في جوابه. سيصعد القطار، وسيستأنف الدراسة بعد ذلك. حان دوري الآن. هل سأدع أخي الصغير يسبقني في تجربة سحر القطار؟ لكن كيف أترك المدرسة وأتقبّل ما فعلت؟ تمنّيت أن تقرر أمي عنّي. لم يكن هنالك ضغط منها على كل حال، فالقرار قراري. تدفق الدمع على وجنتيّ. لم أستطع نقض الاتفاق الذي عقدته مع أمي بشأن المدرسة. لم أستطع هجر أحلامي. سيفوتني القطار لا ريب!

في هذا الطور من حياتي كنت ضمن مساحة اجتماعيّة معرّفة بمنزل كاهاهو، ومنزل فافا موكورو، ومنزل أبي. هذه العزبات الثلاث متجاورة، رغم أن منزل فافا موكورو يقع على بعد بضع ياردات خارج أرض كاهاهو. رغم أنهم لم يشيدوا جدرانًا منيعة بينهم، إلا أن هذه المحاور الثلاثة مثّلت نماذج مختلفة من الحداثة والتقليد.

كانت حداثة اللورد القسّ كاهاهو جليّة في كل شيء. لقد حظي بتعليم ابتدائي، ودُرِّب قسًّا، والتحق كل أبنائه بالمدرسة، كما أصبح اثنان منهم، جوانا وبول، معلمين. متّسق دائمًا مع مهنته المصنّفة ضمن مهن "الياقة البيضاء" بوصفه قسًّا، كانت كل عائلته متأنقة في أطقم وفساتين. وهو أول من زرع حشيشة الحمّى وخصّص بستانًا للبرقوق، وأول من امتلك عربات تجرها الثيران وعربات مجرورة تسحبها الحمير، وهو أول من جلب المحاريث التي تجرها البغال فيما الحرّاث يمسك بالمقابض، هو أول من امتلك سيّارة، ولاحقًا شاحنة. أخوه الأصغر، إدوارد ماتومبي، هو أول من أسس منشرة مملوكة بالكامل لأفريقي في المنطقة. ينزّ اللورد القس ستانلي كاهاهو حداثة في شخصه وعائلته.

عزبتهم، على كل حال، ظلت لغزًا بالنسبة لي. فلم أجتز قط البوّابات الخارجيّة. يحيط بعزبتهم دغل صنوبر، ولا أستطيع أن أرى سوى لمحات من

المنزل عبر فراغات الشجر. لكن هذا تغيّر حين دعت زوجته، ليليان، أطفال العائلات التي تعمل في أرضهم في أحد الأيام لحفلة عيد الميلاد.

كنّا جميعًا، مسيحيّين وغير مسيحيّين، نحتفل بعيد الميلاد. في عشيّة الميلاد، ينتقل الأطفال والشباب والشابّات من منزل لمنزل، في الظلام، بفوانيس "بارافين" زجاجية محمولة باليد، يغنون الترانيم. في اليوم ذاته، لا ينتظر أحدهم الدعوة الخاصة لمنزل الجيران لشرب الشاي وتناول فطيرة "البراثا" الهنديّة. كل البيوت، عدا تلك التي رأى أهلها أنفسهم متحضّرين مثل آل كاهاهو، مفتوحة للضيوف العابرين. تعدّ معظم البيوت أطباقًا متشابهة: مرق الكاري النباتي وبطاطس وفاصوليا أو بازلاء. لم تكن مسألة اختيار. إذا ما استطاعت العائلات، فإنها تضيف الدجاج، أو لحم البقر، أو الماعز للكاري. لم تستطع معظم المنازل توفير الخبز من المتاجر الهنديّة. لكن كل العائلات خبيرة في إعداد فطيرة "البراثا". بضعة أرطال من طحين القمح يكفي للعديد من أرغفة الخبز الرفيعة تلك. نُتخم بأكلها، وقد ارتبط الميلاد عندي بفطيرة "البراثا والكاري". كان موسمًا احتفاليًا للجميع على حد سواء، لم تكن ثمة حفلات خاصة للأطفال. لذا كانت الدعوة لحفلة الميلاد المخصصة للأطفال، والأكثر من هذا في منزل مالك الأرض الغامض، لهو شيء جديد في حياتنا. حاولنا أن نبدو بأفضل مظهر. كان هذا قبل سنوات حتى من حلم الالتحاق بالمدرسة وارتداء القمصان والبناطيل القصيرة. حينها كنا أخي الصغير وأنا لا نزال في ثيابنا التقليديّة غير أن أمي تأكدت من نظافتنا.

تبادلنا النظرات الخاطفة، وتلاحمنا في وجه المشهد الذي أمامنا. كل شيء كان كاشفًا. ثمة ذلك المسكن الفسيح المغطى بالعشب المجزوز والمشذّب تشذيبًا خفّض ارتفاعه تتخلله دروب منمّقة تصل بين المباني المختلفة، نقيض مسكننا المحتوي على التراب والغبار. كان المنزل الأساسي رباعي

الزوايا جدرانه من الخشب السميك وله أسقف معدنيّة مموّجة ذات أنابيب تصريف تؤدي إلى خزّانين يجمعان ماء المطر في الزوايا. أما المطبخ فهو مستقل عن المبنى الأساسي، مبني على الطراز عينه لكنه أصغر، وتصريف الماء يصب في خزّان أصغر. خاب أملي لأن مقر الحفلة في المطبخ، رغم فساحته، لكنه ليس في المنزل الكبير، غير أن أكداس شطائر المربى في المستوعبات الكبيرة عوّضت النقص الذي خلّفه مقرّ الحفلة.

ظننت أننا سنشرب الشاي ونتناول شطائر الخبز اللامعة فورًا بعد الانتهاء من المقدمات الترحيبيّة وموعظة معنى الميلاد. بيد أنهم طلبوا منّا أن نغلق أعيننا للصلاة. لم نتلُ أنا وأخي صلاة قط، ناهيك عن صلاة من أجل الطعام. بدأت ليليان ما بدا لي أنه مونولوجًا لا ينتهي مع الرب. فتحت عينيّ في منتصفه كي أسترق النظر إلى أكداس الشطائر. تلاقت عيناي بعيني أخي اللتين تفعلان الشيء نفسه. أغلقت عينيّ ثم فتحتهما ثانية بعد وقت قصير لألفي أخي يفعل الأمر نفسه. أدركنا حينها ما تعنيه الصلاة، التي تقف بيننا وبين الطعام، للآخرين. لم نتمالك أنفسنا. كركرنا بصوت جهور، فانزعجت ليليان.

كانت عيناها باردتين، ونبرتها حادّة، فيما هي الآن تعطينا، أخي وأنا، محاضرة صارمة عن الآداب المسيحيّة. فأطفالها قد أدبوا على الآداب المسيحيّة، ولن يفعلوا قط ما فعلناه على مرأى من الرب، ولو فعلوا، لما سمحت لهم بتناول الخبز أو أي طعام لأيام. لكنها ستسامحنا، إذ لوثنيّتنا، فنحن لا نعرف ما هو أفضل. كانت كل أعين الأطفال، بمن فيهم نجامبي ونجيمي، تحدّق فينا. تلاشت رغبتي في الخبز. نهضت وقد شعرت بالإهانة، فغادرت. تبعني أخي، لكن ليس قبل أن يجلب معه بضع شطائر.

لم يرحني الغضب من ليليان لأنني في أعماقي خجل من سلوكنا. أكنا

غير مسيحيين أم لا، لم يكن ما فعلناه لائقًا. إضافة إلى أنني ما زلت أحمل ذكرى تدخل اللورد كاهاهو السخي في شفاء عدوى عيني. كما أن لأمي الرأي نفسه. بينما هي توبخنا على سلوكنا المشين، أكّدت انتفاء علاقة هذا بلا مسيحيّتنا. كانت تميّز بين ليليان وزوجها، وقد شجعتني لأنسى العبارة المهينة "لم يربّوا على الآداب المسيحية." لكن المفردات لا تغيب. لقد نُقشت في ذهني، وقد سمعتها ثانية خلال مشاجرة بين كاهاهو وفافا موكورو.

منزل فافا موكورو نقيض منزل كاهاهو. كان واثقًا بأساليب أسلافه بقدر ثقة كاهاهو بأسلافه المسيحيين. بالنسبة له، فالتقاليد مقدّسة. يمتثل هو وأطفاله لكل طقوس العبور، وهي لا تقتصر على كونها طقوس الانتقال من طور حياة لآخر، بل ضرب من التعليم الاجتماعي. في منزله شهدت مراسم الولادة الثانية.

نياكانيني، الصغيرة كما عُرفت بحب، هي آخر مولودات فافا موكورو من زوجته الثانية، مبوثو. كانت تصغرني بكثير. في سن السادسة أو ما قاربها مُدّدت بين ساقي أمها في وضع جنيني. وسط أغاني الجوقة النسائية التي اصطفت على شكل نصف دائرة، أعادت مبوثو تمثيل الحمل والمخاض. عضوات الجوقة كنّ شاهدات مشاركات أيضًا. أدّت بعضهن دور القابلات وجلبن نياكانيني للحياة مرة ثانية. كان طقس "الغيتريو" ضربًا من الارتجال الشعري الأوبرالي، نوعًا من أغاني النداء والرد، شكلًا من التحدي والتحدي المضاد، سرد الصراع والتسوية. أراق فافا موكورو الشراب لأرواح الأسلاف ليكونوا مع الأحياء ومع الفرد المولود ثانية. مثّلت والدة نياكانيني، مبوثو، الرضاعة الرمزية لحديث الولادة. مجددًا، بالغناء والرقص، رأينا الطفلة تنمو من الطفولة إلى البلوغ. لا تزال في وضعية العرض، تتبع نياكانيني أمها فعليًا إلى الحقول، حيث يعملن معًا في قطف الخضرة وجني البطاطس. لا تلحق

بهن الجوقة، لكن حين تعود الأم والابنة بحصادهن، يُستقبلن بالزغاريد. حينها رغم أن الطبخ الفعلي قد انتهى، يعدن تمثيل التحضيرات بما جلبنه معهن من الحقول. فعلت نياكانيني كل ما فعلت والدتها، لكنها هي التي بدأت بتوزيع ما طبخ سلفًا، معطية القليل لوالدتها والجوقة، وهكذا تشير إلى نجاحها في الانتقال من الطفولة إلى مرحلة اليفاعة التالية. لو أنه صبي، لتبع والده إلى حقول الرعي كي يجلب بعض الحليب. في آخر الشعيرة، تصبح نياكانيني الطفلة التي تقصد مرحلة البلوغ، وهي المرحلة التالية التي ستُخضعها لشعائر القبول عبر الختان. ثم أخيرًا تُقدّم وليمة تحتفي بالصبيّة التي صارت إليها، بعد أن وُلدت ثانية.

بالنسبة لفافا موكورو فكان هذا التعليم الاجتماعي كافيًا، ولم يكن يسمح لأي من أطفاله أن يلتحق بمدرسة البعثة التبشيريّة، ناهيك عن قدّاس الكنيسة، بالرغم من أن إحدى بناته من زوجته الأولى، ويا للسخرية، تزوّجت رجلًا غيكويويًا قد أسلم، كما فقد ابنًا في الحرب العالمية الثانية، الحرب الأحدث من بين الحروب. ابنة ثانية من بناته، تلقّب "ماكاني"، أي ورق الشاي، والتي لم تلتحق بالمدرسة، تبنت أحدث تصاميم الفساتين الغربيّة، كانت واحدة ممن يتحدونه مجاهرة دون عواقب. لكن حينذاك كانت والدتها وفافا موكورو قد افترقا.

لم يرغب قط بأي صلة مع آل كاهاهو، الكاهاهويّين الذين يمثلون بالنسبة له كل رفض وخيانة للتقاليد. حتى حين عملت بعض بناته، من كان جمالهن أحدوثة الشباب، في مزرعة حشيشة الحمى التي يملكها اللورد القس كاهاهو، عملن سرًا. كان يفضّل أن يعملن في مزارع الشاي المملوكة للأوروبيّين على أن يعملن في حقول هذا المارق.

من سوء حظه كان ثمة علاقة "روميو جولييتيّة" تنشأ بين إحدى بناته،

وامبوي، وأكبر أبناء كاهاهو، بول. مثل أبيه من قبله، تخرّج في "مامبير"، مدرسة البعثة التبشيرية الابتدائية للكنيسة الأسكتلندية في "ثوغوتو، غيكويو"، وعمل معلمًا في "كاماندورا". كانت بينهما علاقة جنسيّة سريّة كُشفت بحملها. اتّبع فافا موكورو التقاليد وأرسل وفدًا من الكبار لمنزل كاهاهو ليبحثوا المسألة. لم يستقبلهم آل كاهاهو، بل نقل عن ليليان قولها: "ابننا نشأ تنشئة مسيحيّة ولن يقترف شيئًا كهذا". لِم، سألت ليليان بسخرية جارحة، لستم قادرين على تربية أولادكم مثل أولادنا؟ جُرح فافا موكورو، وغضب من مساندة آل كاهاهو لابنهم في إنكار مسؤوليته، فأقسم أن يطارد المسألة حتى لو عنى هذا الاحتجاج عند أبواب الكنيسة نفسها التي يعظ فيها القس كاهاهو أيام الآحاد ويعلّم ابنه فيها أيام الأسبوع. لكن قبل أن يفي فافا موكورو بتهديده، أرسل آل كاهاهو ابنهم پول لمدرسة في جنوب أفريقيا. لم تُحل المسألة، عدا أن الفتاة التي أنجبتها وامبوي بدت تمامًا مثل پول كاهاهو. هذا الفتاة الصغيرة البهيّة وحّدت العائلتين التي رفضها رؤوسهما. كان لهروب پول لجنوب أفريقيا، على أية حال، الأثر المضخّم غير المقصود لتعليم ما وراء البحر في منطقتنا بصفته مرغوبًا ومتاحًا في آن. كما أنها جلبت جنوب أفريقيا إلى موطننا وعزّزت حداثة آل كاهاهو.

لأن أبي منفصل عن طقوس التقاليد والمسيحية معًا، معتبرًا نفسه حداثيًا، كان متغطرسًا بالنسبة لفافا موكورو واللورد القس ستانلي على حد سواء. ربما نشأ موقفه من أخيه عن احتكاكه بشخص أبيض في المدينة الكبيرة، إذ عمل خادمه. أما بالنسبة لكاهاهو، فأبي يعتبر نفسه دائمًا المالك صاحِب الحق في الأرض التي احتلها كاهاهو، ولهذا يرى أبي في موعظة القس نفاقًا. حتى أخبار ذهاب پول كاهاهو إلى جنوب أفريقيا لم تهم أبي، الذي رغم أنه لم يكن مرحبًا بالتعليم، لا يزال قادرًا على التباهي بابنٍ، هو جندي سابق،

قد رحل لما وراء البحار وعاد متعلمًا.

تعلّمت أنا نفسي توقير الحداثة من اللورد القس كاهاهو، ومن فافا موكورو قيم التقاليد، ومن أبي شكًا صحيًّا في الاثنين. ولطالما راقتني الجوانب الأدائية من المسيحية والتقاليد معًا.

عُرف أبي في كل المنطقة بامتلاك "موراتينا" عالية الجودة، وهو نبيذ يعد منزليًا من أنقى قصب السكر الذي يزرعه بنفسه، وأصفى العسل، وأجود القمح الطبيعي، مخزّن في قرع مجوّف مقطّع ومشكّل بمهارة. لكنه طوّر تنظيمًا معينًا لقضاء وقته. إذا لا يشرب أبدًا خلال أيام العمل. أمّا أولئك المدعوون للشرب في بيته فعليهم احترام زوجاته وأبنائه. إن أساؤوا التصرف، فسيطردهم. رغم أنه بطريرك مبجّل، فهو يقر بسيادة نسائه على بيوتهن كل واحدة على حدة.

في ذهني، شيّدت بطريركية أبي نفسها في طورين متمايزين. لدي ذكرى ضبابيّة تعود لطفولتي المبكّرة من "كراله"، وهي جزء من العزبة، مساحة مسوّرة بالخشب وتحيط بها وشيعة من الشجيرات الشائكة، صور من عودته مساءً إلى البيت وهو يقود قطيعه الممتد من الأبقار إلى "كراله" الشاسع، يعينه الأبناء الكبار أحيانًا، أو إحدى زوجاته، ثم حين يغلق على القطيع في الداخل يقصد "ثينغيراه"، التي تتوسط المسافة بين مساكن زوجاته الأربع. كان حريصًا كي لا يبدي أي تفضيل لأحد أكواخ زوجاته. حين تجلب له النسوة الطعام، يدعونا نحن أطفاله لمشاركته. نستمتع معًا بوليمة يوميّة. لم يكن حكّاءً عظيمًا غير أنه مولع بتعليمنا عادات الأكل الحسنة، كأن لا نقضم ما يفوق قدرتنا على المضغ، وألّا نبتلع ما مضغناه على عجل. يخبرنا أن

نتأنّى، فالطعام لن يغادر إلى أي مكان. يزوره رفاقه الكبار أحيانًا، للتشاور في القضايا الراهنة. ابتسامة أبي واحدة من أجمل الابتسامات على الإطلاق، لكن ضحكته قد تكون ساخرة، أو شيطانيّة في أحيان، حين يرد بها على قضايا لا يؤيدها.

رغم أنني لم أتبيّن قط كيف حدث التحوّل، لكن الطور الثاني أعقب طرد أبي من الحقول المحيطة بالعزبة، وإذ بات من النادر حينها أن يمكث في كوخه، فلم نعد نشاركه الوجبات. ما زالت النسوة يأخذن إليه الطعام يوميًا، لكن إلى أطراف غابة قلم الطوز وشجر الحمى التي يمتلكها جدّي لأمي، ليس المكان بعيدًا عن متاجر سوق "ليمورو" الأفريقي. ثمة "ثينغيرا" جديدة بنيت بجانب أملاكه، على مبعدة من العزبة القديمة. يجيء إلى البيت غالبًا في الأسبات والآحاد حين يكون لديه "**موراتينا**" يقتسمها مع أصدقائه. إن مكث لباقي الليلة، ينام في كوخ إحدى النّساء.

أردت دائمًا أن أساعد في الرعي مثل الصبية الكبار لكنه لم يطلب منّي قط. مرة، قبل أن أبدأ الدراسة بوقت طويل، رافقت واحدًا من الصبية، أخي العلّة نجينجو وا نجيري، إلى دار أبي الجديدة. يدفن الهنود موتاهم وسط شجر قلم الطوز والحمى. قالت أمي إنك إن وقفت على مكب النفايات في البيت يمكنك أن ترى الأشباح الهنديّة تطوف حاملة المصابيح. هل رأيتِ الأرواح بعينيك؟ نعم، تقول، وتصف كيف رأت في بعض الليالي أضواءً صغيرة تتقدم وتتحرك في ظلام حالك. وقد ضغطت من أجل المزيد من التفاصيل. إن كانت قد رأت فعلًا أجساد الأرواح على سبيل المثال، لكن أمي تغلق الموضوع، وتنزعج بعض الشيء لأننا نستجوب مصداقيّة شهادة العيان. تحدّثتْ باقتناع كامل كأنها تصف مواجهة في السوق. ربّما لم أصدّقها، لكنني ما زلت أخشى المكان قليلًا. كانت الأراضي فسيحة، والأشجار باسقة، والخميلة كثيفة في بعض المواضع، وافترضت أن الرائحة الغريبة المنبعثة من الأشجار والخميلة

هي رائحة حرق لحم الأموات الهنود. تجول المعز والماشية في كل مكان لكنها لا تجتاز غالبًا أقصى أطراف الغابة، حيث هناك بقع طويلة جرداء. بعد يوم السوق، يدع أخي العلّة القطعان تجول في السوق الأفريقي كما يدعها في بعض الأحيان تأكل العشب الطويل في باحة المتاجر الخلفيّة، فلم يمانع الملّاك لأنه كفاهم الحاجة لتشذيبها. وسط الغابة، بقرب "كرال" أبي الجديد، ثمة درب يقود إلى محطّة السكّة الحديديّة وسوق "ليمورو". يستوقف أخي العلّة بعض الفتيات العابرات ويدردش معهن، قائلًا لهن "اعطينه لأخي"، مشيرًا إليّ، مقسمًا أنني أعرف كيف أتصرّف. تبتسم السيّدات ويغادرن أو ينادينه ببعض الأسماء. لم أفهم ما عناه بتلك الكلمات ولا رد أولئك الفتيات. مهما تكن الحال، كان مجرد التسكع أو استكشاف ما داخل الغابة يمنحنا شعورًا جيّدًا، دون القلق عن مكان الأبقار والمعز، إلا أننا في المساء نجمعها ونقودها عائدين إلى "الكرال" ثم نغلق عليها البوّابات. فكّرت آنذاك أنني حين أكبر سأطلب من أبي أن يجعلني مساعده الرئيس في الرعي وهكذا سأتعلّم كيف أحلب الأبقار كما يفعل أخي العلّة، وسأتحدّث مثله مع الفتيات.

لكنني لم أحظ بفرصة قط، ليس لأنني بدأت الدّراسة لكن بسبب كارثة حلّت بنا. أصيبت بقراته ومعزه بمرضٍ غريب. انتفخت بطونها، وتبع هذا الانتفاخ إسهال ثم الموت. لم تكن خبرات الطب التقليدي كافية لهذا المرض. كما لم يكن ثمة خدمات بيطريّة للمزارعين الأفريقيين آنذاك. نفقت حيواناته واحدًا تلو الآخر. درجت الشائعات على أن معزه وأبقاره تسلّلت إلى باحة متاجر الشاي في السوق الأفريقي، وأكلت بعض الأقمشة المنشورة كي تجف وشربت الماء النظيف من الصهاريج. لهذا سمّم المالك المنزعج منتقمًا العشب والماء في ما بعد.

مهما يكن التفسير، كانت المصيبة التي حلّت بأبي ترد كثيرًا في

النقاشات بين مؤيدي حفظ المال في المصارف وأولئك الذين يعتقدون أن الماشية هي الطريق الحقيقية الوحيدة لقياس الثراء. الحقيقة الوحيدة التي يتنازعون فيها: أن الرجل الذي كان قد امتلك كل شيء فقد الآن الأشياء كلها.

خسارة أبي لثروته قد حطّمته. البطريرك المنعزل الفخور الذي ترك كل زوجة تدير منزلها كما يلائمها بات يحاول الآن أن يدير كل العزبة بالتفصيل، ويستجوب تحرّكات بناته، صادحًا بقوله إنه لا يريد أن تصبح أيًا من بناته مثل بنت فافا موكورو. ساء تدخله في الأمور بعد أن هجر "ثينغيراه" القريبة من الكرال الفارغ وانتقل إلى كوخ نجيري، الزوجة الأصغر، فيما يصر على أن تجلب بقيّة الزوجات طعامه إليه هناك. أحبط فعله هذا توازن القوّة الرقيق الذي توصّلت إليه النساء فيما بينهن. حين يريد تلطيف التوتّر الذي سبّبه في ما بينهن، فإنه يزيده سوءًا وحسب.

رغم أننا جميعًا خشينا أبانا، إلا أنني لم أره يضرب طفلًا قط. بل إنه شديد الحزم في ما يخص ضرب الأمهات لأطفالهن، فهو يثنيهن عنه، وهو موقف غير معتاد في تلك الأيام. كما أن امتناعه عن ضرب زوجاته، إلا نادرًا، أمر آخر غير معتاد آنذاك، إلا أنه يحظى باحترامهن وكانت كلماته قانونًا. لكنه بعد هذه الخسارة صار مشاركًا في العنف المنزلي، بالأخصّ تجاه أمي. المرأة الوحيدة التي لم يضربها كانت نجيري. فهي جسيمة قويّة البنية، وتقول قصة إنه ذات مرة وهو مخمور، حاول تأديبها، لكن فيما هو داخل الكوخ، أقفلت الباب من الداخل لتمنع الناس من أن يشهدوا عيانًا وضربته وهي تصرخ عاليًا بما يكفي ليسمعها العالم أجمع، قائلة إنه يقتلها. كانت هذه

واحدة من القصص المتداولة لتبيّن إلى أي مدى قد غرق.

البطريرك الفخور الذي لم يذهب قط إلى منزل شخص آخر ليشرب الكحول دون دعوة، الرجل الذي لا يشرب في أيام العمل قط، طفق يشرب طيلة الوقت، ولم يعد يخمّر شرابه لنفسه، وراح يقصد منازل الآخرين من أجل "الموراتينا". كرِه أبي في ما مضى الأزواج الذين يعترضون زوجاتهم في طريقهن من السوق لأجل حصة من مكاسب مبيعاتهن. لكنه بدأ يفعل ذلك. لكم كان مؤلمًا أن أراه منتظرًا نهاية الأسبوع ليطلب الأجر الذي كسبته بناته، أخواتي، من العمل في حقول حشيشة الحمّى التي يملكها اللورد ستانلي كاهاهو أو في مزرعة الشاي في المرتفعات البيضاء. كنّ يراوغنه، وقد فر بعضهن منه بالزواج.

جرّب يده في الزراعة، لكن لأنه لا يملك أرضًا اعتمد على حقوق الزراعة الممنوحة له من والد زوجته، أي جدي لأمي. قبل أن يخسر كل شيء زرع محاصيلَ كالبطاطا الحلوة، وقصب السكر، والعرعروط، واليام، على قطعة أرض بقرب المتاجر الهندية، لكن كان هذا بمثابة هواية لا لكسب الرزق. كان شديد الفخر بجودة ما ينتجه، فقطعة أرضه بمثابة حديقة نموذجية. لكن باتت الزراعة الآن مصدرًا للرزق. فيما يجاهد لكسب رزقه من التراب، كانت ثمة مساومة بين مكانته العامة وحسه بالرجولة.

بقدر قدرة يده على قلب التراب، كان يتنافس مع نسائه وبالأخص أمي. كانت قطعة أرضه بجانب قطعة أرضها، وكأن مرح تودّده لها في ما مضى بات منافسة جادّة بينهما على السلطة. لكن حين يصل الأمر إلى مخالبة الأرض لتثمر، فلا أبي ولا النساء الأخريات ولا أحد أبدًا يضاهي أمي. تضع مهادًا حول المحصول، حتى في ما يخص المعز تفوقت أمي على أبي درجة. فليس لديه واحدة، فيما لديها جديان سمّنتها في شبكٍ بداخل كوخها. لديها ثلاث

أخريات تطعمها أحيانًا في الكوخ لكنها تتبعها حيث ذهبت خلال النهار دون أن تضلّ.

في السنة التي عادت فيها من زيارتها القصيرة إلى "إلبورغن" مع أخي الصغير، رأت تأثير عملها السحري على الأرض. وفيما محاصيل الآخرين قد ذوت تحت الشمس، أثمر محصولها. يتوقف النّاس أحيانًا بجانب الطريق ليعبّروا عن إعجابهم بالبازلّاء، والفاصوليا، والذرة في قطع أراضيها المتفرّقة. في نهاية الموسم، حصدت أمي أفضل محصول البازلاء والفاصوليا في المنطقة، والذرة أيضًا. عرضت النساء الأخريات مساعدتها في حصاد البازلاء وتقشيرها، عبّأن عشرة جرب من البازلاء، وأربعة من الفاصوليا، وملأن مخزنها بالذرة، وقد جلبت هذه المأثرة متفرجين من الجوار.

قرر أبي أن الحصاد ملكه ليتصرّف فيه، بل يبيعه. أمّا أمي، المعتادة على استقلال أسرتها، فقد رفضت بصرامة. جاء في أحد الأيام إلى البيت، ثم افتعل شجارًا، وطفق يضربها، بل استخدم إحدى عكازات أختي العلّة وابيا لمساعدته، حتى تكسّر العكّاز إلى قطع. رجوته أنا وأخي ليتوقف. كانت أمي تصرخ من الألم. وبالرغم من خوفهن، حاولت النساء الأخريات منعه، فقد توسّلنه أن يتوقف، وصرخن بوحدة ليسمع العالم أجمع بأن زوجهن قد جنّ. حين استدار إليهن بغضب، تمكّنت أمي من الفرار بملابسها التي ترتديها وحسب، وقصدت بيت والدها، أي جدّي، مخلّفة وراءها المعز والحصاد.

لعدة أيام لاحقة، تحدّثت العائلة عن الضرب، ادعى البعض أن حتى معزها صرخت معترضة. لم يبد أن أحدًا استطاع تعليل الغضب الذي أبداه أبي لكن ثمة تهامس هنا وهناك يرجع السبب إلى زوجته الصغرى، نجيري، العاملة الوحيدة في مزرعة شاي مملوكة لأوروبي والتي كانت مغرمة بأحد المشرفين. تقول النسوة إن أبي اعتبر أمي المذنبة. افترض أن مقاومة نجيري

له، جعلته يصبّ غضبه واستياءه على الهدف الأسهل.

برحيل أمنا، رعتني أنا وأخي النساء الأخريات، بالأخص غاسوكي وانغاري. انتظرنا أن تعود أو أن يذهب أبي إلى أصهاره كي يرجو عودتها. هذه هي الآلية المتّبعة آنذاك: يتحادثون أحاديثَ تنتهي حتمًا بتحذيرات ونقود وتسوية. يدرك الجميع أنها مسألة وقت وستُحل. لكنني وأخي الصغير افتقدناها بشدّة، فقرّبنا تقاسم الفقد والحاجة من بعضنا أكثر.

اعتاد أخي الصغير الحديث عن رحلته بالقطار. يحصي بتركيز شديد المحطات التي مر بها، "نافياشا، غلغل، ناكورو، مولو"، هذه على الأقل المحطّات التي استطاع تذكّرها. بل قد ادّعى أن "كيسموسو وكامبالا" قريبتان جدًّا من "إلبورغن"، وقد وسعه أن يذهب إليهما لكن منعه من ذلك انشغاله في "إلبورغن" باللعب مع جدتي وخالتي وانجيرو وابنتها، أي ابنة خالتنا بياتريس. علمت منه أن خالتي وانجيرو، وهي تاجرة، كانت أمًّا عازبة. تحدث عن حنان جدتي رغم أنه لم يعط تفاصيلَ. لم أتولّع بسرده، كنت أعارض انتصاراته بحديثي عن أيامي المجيدة في المدرسة، الموضوع الذي لم يعد هو أيضًا مولعًا بسماعه. بات خلافنا المكبوت مبارزة غير معلنة، فهو يبالغ في مآثره في "إلبورغن" وأنا بمغامراتي التعليميّة في المدرسة. لكنه يغلبني إذ يذكّرني أن أمي وعدت ببيع بعض حصادها من أجل تعليمه ليستأنف الدراسة عند بدء الفصل الجديد. ستكون لديه تجربة الدراسة بجانب تجربة القطار. رغم أنني غرت من رحلته، غير أني سعيد لأنه سينضم أخيرًا إليّ في المدرسة. لكن فيما تجيء الأيام وتغدو، تزايد قلقنا بشأن عودة أمي، فاقم قلقنا المتزايد روتين الحياة الاجتماعيّة اليومي في عزبة أبي.

ثم ذات يوم فيما أنا وأخي نلعب مع إخوتنا في مساحة مفتوحة بين أرض كاهاهو وأرض فافا موكورو بكرةٍ مصنوعة من القماش ومحكمة

بخيط. حتى الفتيات انضممن إلينا في ذلك اليوم. آنذاك ظهر أبي فجأة. وقف على مبعدة، أومأ لي أنا وأخي كي نرافقه. لم يدعني أبي له من قبلها أبدًا، ناهيك عن قطع المسافة للحقل الخارج عن عزبتنا ليدعوني. ركضنا إليه، متأكدين أنه يبشّرنا بعودة أمي.

"أريد أن تكفوا عن اللعب مع أولادي. هيّا اذهبوا، الحقوا بأمكم"، قال، مشيرًا إلى الجهة التي تؤدي إلى منزل جدّنا.

لم تكن لدينا فرصة كي نودّع الأطفال الآخرين ونخبرهم بأننا نفينا عن رفقتهم وعن المكان الذي عرّف حياتنا حتى ذلك الحين. لكن قبل مغادرة البيت، تمكنت من التسلل إلى كوخ أمي كي أستعيد مواد الدراسة، ومنها نسختي الممزقة الحبيبة من قصص العهد القديم.

هذا الطرد، وإن لم يكن الطرد من الفردوس، فهو طرد من المكان الوحيد الذي عرفته. لقد فاقت حيرتي ألمي. والدتي هي رأس الأسرة على الدوام، والبيت دائمًا حيث تكون أمي، وبهذا المفهوم كنت متجهًا إلى البيت وأنا أذهب إلى أمي. لكن رفض والد المرء اعتباره أحد أبنائه ليس بالأمر الهيّن. ضاعف هذا الانتقال شعوري بأني مُبعد، وهو شعور كتمته منذ أن أدركت أن الأرض التي عليها عزبتنا لم تعد لنا. كنت مبعدًا في "كامندورا"، حيث ينتمي إليها الآخرون أكثر مني، وفي "مانغو" حين انتقلت إليها. الآن بت مبعدًا عن منزل أبي. لكن ثمة جوانب من العزبة القديمة ستظل جزءًا مني على الدوام: جلسات القصّ، والتواصل اليومي مع أطفال آخرين تتغيّر ولاءاتهم من وقت لآخر، بل حتى العراك والدموع. عنّت بعض المشاهد على بالي: الألعاب التي لعبناها، والأغاني التي غنّيناها، ورقصنا في الفناء ترحيبًا بالمطر إذ يعني النعم وينمو به الأطفال. كنا نهرع بمرأى قطرات المطر إلى الفناء، مكوّنين دائرة، لنغنّي:

لتهطل أيها المطر
أهبك قربانًا
عجلًا بأجراس
يصدح دِنغ دُنغ

ذات مرة فيما كان عدد هائل من الأطفال يلعبون، بمن فيهم أخواتي وإخوتي العلات -وانجا، ابنة غاسوكي، غاكونغا، ابنة وانغاري، وغاكوها ووانجيرو، ابن نجيري وابنتها- وأنا، لعبة المطاردة "امسك بي إن قدرت". كنت أجري حول كل كوخ من الأكواخ الأربعة، وكلهم يلحقون بي، فتعثرت فجأة بشيء ووقعت. كشط الرمل جلد كتفي الأيسر. ظلت تلك الندبة، وستظل دائمًا، بمثابة ذكرى. لحسن الحظ أن أخي الصغير وكتاب القصص لا يزالان برفقتي، بعد أن نفاني أبي من العائلة الكبرى، إضافة إلى سلوان لمّ شملنا بأمي في منزل والدها، مسقط رأسها.

سبق لي أن التقيت بجدّي لأمي لكن لوقت قصير. نظرًا لغياب أُمها التي تعيش في "إلبورغن" فيما يعيش والدها في "ليمورو" مع موكامي، زوجته الصغرى، لم تشعر أمي بحاجة لزياراته المتكررة. بالنسبة للأطفال، كانت هويتنا دائمًا مع عائلة أبي لا مع أصهاره، حتى وإن سُمي أحد منا على أقارب الأم. سميت نغوغي على جدي لأمي. لكن أمي اعتادت مناداتي نجوغو، أي "الفيل"، أو بالتّصغير "موكوغي" أو "بابا الصغير". بالنسبة للنساء الأخريات، بالأخص ضرائرها، يسمينها دائمًا "ابنة نغوغي".

جدي ذو قوام مهيب، يرتدي قماشًا داخليًّا أبيض، يتأبّط أحد أطرافه تحت إبطه الأيسر، ويثبت النهايات معًا فوق كتفه الأيمن، كأنها غلالة بكم واحد، وفوقها قطعة خارجية مساوية لطولها كأنها لحاف، تجري تحت إبطه الأيمن ومربوطة فوق الكتف الأيسر. فيما "ليمورو" باردة والسماء ترذّ المطر، خصوصًا في تمّوز، يرتدي أحيانًا معطفًا طويلًا عليهما. كان مالك أراضٍ مشهورًا بجهده، وبصفته كبير عشيرة كمامي ووصيّها، لهذا لديه قدرة على استخدام إرث العشيرة الممتد من الأراضي. على عكس أبي، لم يكن لأسلافه جذور في ليمورو، فجدّي بعائلته الممتدة وعشيرته كلها، لهم فدّانات مزروعة

وأراضٍ عذراء يديرونها. بعد موت أحد أبناء عمومته، ندونغو، ورث جدّي أرملتيه، لذا فهو كبير عائلة ندونغو الفخري. بالنسبة لأبناء ندونغو، بمن فيهم كيموشو، أكبرهم، فقد قبلوا به واعتبروه كبير العائلة الممتدّة. أنجب من نجانغو، أصغر الأرملتين، خالي غيسيني. كانت تداخلات العائلة المشتبكة معقّدة، ولست واثقًا من أنني استطعت فهم كل تلك الخطوط الدقيقة. عاشت العائلة في ثلاثة مساكن في نفس المنطقة.

بانفصاله عن زوجته الأولى، جدتي غاثوني، حار جدي نغوغي إن كانوا قد مرروا بذرة الانفصال لابنتهما، وكان لا يدري ما يفعل بعد ترك أمي لأبي. تنص التقاليد على انتظار أن يطلب الزوج رجوع زوجته، الطلب الذي سيفتح الباب للنقاشات. استقرت أمي في كوخ نجانغو، وقد اعتبره الجميع ترتيبًا مؤقتًا، لكن وفودي أنا وأخي عقّد المسائل.

ربما ظن أبي أن ظهورنا سيشكل ضغطًا عليها كي تعود هي وتطلب عفوه بشروطه، لكن ظهورنا سهّل عليها في الواقع أن تتمسك بقرار عدم عودتها إلى عنفه المنزلي. دون وجودنا، لربما وجدت من الصعب أن تبقى بعيدة. آنذاك أرادت من أبيها أن يسمح لها ببناء كوخٍ لها على أرضه. كان يقظًا. حكيمًا في نطاق القوانين والممارسات التقليدية، لذا أراد أن ينتظر إرسال أبي وفد الحديث الرسمي. في المحصّلة، أمي متزوجة قانونيًا، فقد دفع والدي الجهاز المطلوب، والطلاق يعني أن جدي سيعيد إليه الجهاز، أي المعز. إضافة إلى أن ليس ثمة آلية لدى الجماعة تخص طلاق زوجين لهما ذرية راشدة مثل إخوتي وأخواتي الكبار. لم يكن الطلاق خيارًا، لا خيار إلا الانفصال وحسب. لذا عاشت أمي في الأعراف، مغرّبة عن بيت زوجها وليست مقبولة تمامًا في بيت أبيها. فصارت وهي التي تمتّعت دائمًا باستقلاليتها تشعر الآن بأنها حيوان محبوس، مجبرة على العيش في كوخ مزدحم، تتشارك مع غيرها مساحة الطهو

دون أداة واحدة يمكنها أن تدّعي ملكيّتها، مساحة تخلو من طعامها هي، لأن محصولها قد أخذ منها.

حاولت أن أتوصل إلى طرق لمساعدتها لكنني قلق بدرجة أكبر على تعليمي. وجدت خطة للتجارة بأدوات المدرسة: أقلام رصاص وألواح وكتب التمارين. يعتقد أخي الصغير أنني أعجوبة. قصدت حينها خالي غيسيني. يكبرني غيسيني ببضع سنوات وحسب، ولا أدعوه في الواقع خالي. أخوالي الآخرون، غيكونيو وموثوغا يكبرانه، لهما عائلات، وقد افترضت دائمًا أن مفردة "خال أو عم" مصطلح يستخدمه الأطفال لتقدير من هم أكبر منهم. لكنني وغيسيني قد التحقنا بنفس المدرسة، "كامندورا"، رغم أنه سبقني ببضعة صفوف، لذا كنت أراه نظيرًا لا خالًا. كان متحمسًا للفكرة، وقد أصبحت حينها حلمًا مشتركًا: شراء أقلام الرصاص والمسّاحات من المتاجر الهنديّة وبيعها على طلاب المدرسة المحتاجين بسعر أعلى. بدأنا بحسبة الأرباح الممكنة إذا واصلنا استثمار الربح في بضائع جديدة. سريعًا ما أصبحنا أثرياء في خيالنا، وهذا ما حفّزنا لنحقّق خططنا. قطعنا بعض الأشجار من غابة جدي لنبني كشكًا رباعي الأركان ونسقفه بأعواد رفيعة. في البدء كان الأمر سرًّا، يعرفه غيسيني وأخي الصغير، نجينجو. لكن حماسنا لا يعرف الحدود، ولمّحنا بالثراء الممكن لأحد إخوة غيسيني. لم يسخر من الفكرة. بل أخبرنا قصة رجل فقير وضعت دجاجته بيضتين. كان جائعًا لكنه كبح نفسه، وضعها في زبدية، وجلس على مقعد مغلقًا عينيه ليفكر في قرار بشأن ماذا سيفعل بها. سيأخذها إلى السوق، هجس، وهو لا يزال يستند على ظهر مقعده، والزبدية أمامهِ على الأرض. قال إنه بالمال سيبتاع المزيد من البيض ويبيعها بفائدة، ثم يبتاع المزيد وهكذا حتى تصبح لديه نقود كثيرة. سيستثمر كل المال مجددًا في ابتياع وبيع أشياء أخرى بمكسب. انتهى به الأمر بعدها، في خياله، وقد

امتلك منزلًا وتزوّج. عاش هو وزوجته بسعادة إلى أن جاء يوم تنازعا فيه فردت عليه زوجته. غضب غضبًا شديدًا من جحودها السافر فركلها. إذ ذاك ضرب الزبديّة فصار البيض محًا وقشرًا محطمًا. لذا كفوا عن أحلام اليقظة. كم قلم رصاص من المتوقع أن تبيعوا؟ كم طفل ها هنا يذهب إلى المدرسة؟ لم سيرفض أحد الشراء بسعر زهيد من المتاجر الهندية ويقصد مكانًا نائيًا ليبتاع نفس الأشياء بسعر أغلى؟ وهكذا قوّض أحلامنا بالثراء الميسّر. ظل هيكل الكشك والأعواد هناك لأشهر، بمثابة تذكار حلم مهجور.

شعر الخال غيسيني بالذنب لانهيار خطّتنا. حاول تهدئتي بتعليمي كيف أمسك الخلدان. الخلدان بلاء المزارعين. تأكل جذور النبات، وبعد برهة من وجودها بوسعك أن ترى قفرًا وكومة تراب إثر حفر جحورهم. الخلد عدو لا مرئي لأنه يتنقل عبر أنفاقٍ يحفرها في جوف الأرض. كيف للمرء أن يمسك بمخلوق كهذا؟ سهل، هذا ما قاله لي غيسيني. يلزمك شرَك: قطعة خشب، مفرغة من الداخل، فيها ثلاثة أوتار، اثنان منها بأنشوطتين مرتخيتين من الطرفين، والأوسط، الذي يحمل الطعم، مشدود. احفر خندقًا وضع الشرك في درب الخلد، غطّها بالتراب، ثم اربط الأوتار في عود مرن مقوّس مثبّت في الأرض أعلاه. فيما يعبر الخلد مع العقدة ليأكل الطعم في الوسط، يستقيم العود فتشد العقد حول الخلد. لم أصدّقه لكننا حاولنا على أية حال. أعددنا شركَين، أحدهما لي. فشل شركه، أما شركي فقد أمسك بخلد من المحاولة الأولى. انتشرت أخبار مهارتي. أصبحت صائد خلدان احترافيًّا، أعمل بمقابل، وأكسب تقدير المزارعين. لربما أصبحت بطلًا حتّى، مثل أسطورة صائد جرذان القرية.

ثمة فترة خلال حياتنا في عزبة والدنا، عرفنا فيها جرذانًا سمينة، بحجم قطة تقريبًا، قد غزت القرية. قيل إنها تحمل الطاعون، لذا حين يُعثر على مثل

هذه الجرذان، فإن النساء والرجال وحتى الأطفال يلاحقونها بعصيّ. يجذب الضجيج أحيانًا العاملين في الحقول فينضمون للمطاردة بأي أداة في أيديهم. وحين تمسك، تصبح الجرذان أداة للتنفيس عن الغضب. فرّ القليل منها. ثمّة واحد تفوق كليًا على الصيّادين والشراك وكل شيء. حتى القطط بدا أنها تخافه. يختفي في منزل، أو شجيرة، ليظهر في موقع آخر ساخرًا من النّاس. أو ربّما أنها جرذان أخرى، بنفس الشكل. ثمة حديث دار عن ساحرات داخل جسد الجرذ.

ظهر ذات يوم من العدم رجل بصندوق داخله مصيدة لها باب، مكوّن من شبك. سمع بالجرذ الغامض. سأل حينها بضعة أسئلة، عدا ذلك لم يتكلم كثيرًا. علّق شيئًا بداخل الصندوق. ثم ترك المصيدة في أحد المنازل المتضررة، ويا للعجب، في اليوم التالي حين عاد كان ثمة جرذ كبير في الصندوق. تبعت القرية بأجمعها صائد الجرذ، الذي اختفى بغموض كما جاء. لم يطلب مكافأة، كما لم يعد أبدًا، أما الجرذان، بذلك الحجم، فلم تعد تظهر ثانية. أو هكذا ادّعى النّاس. ظل النزاع قائمًا: هل هو هذا الجرذ وحده أم ثمة جرذان أخرى؟ وأصبح صائد الجرذ أسطورة.

أملت أن أصبح صيّاد خلدان بشهرته وأحظى بقرية ممتنّة تتبعني. لكن صيّاد الخلد ليس مرموقًا كصائد الجرذ، ولم يتبعني أحد عدا أخي الصغير. قد تكون الخلدان صعبة المنال، فيحتاج الصيّاد خليطًا من المهارات، والصبر، والحظ. الانتظار موتِّر، والمردود ضئيل لا يشكّل فارقًا في احتياجاتنا.

ظلّت مسألة التعليم تشغلني على وجه التحديد. جلسنا أخي وأنا نفعل ما اعتدنا فعله: نسعى إلى العمل في مزرعة اللورد ستانلي كاهاهو، لكن هذه المرة من أجل تأمين التعليم لا العجلات. تفصل وشيعة ملكية كاهاهو

عن ملكية جدي. حقول حشيشة الحمى الفسيحة تقف بين بيتنا الجديد وعزبتنا السابقة. شعرت بأنني غريب، منضمًا إلى إخوتي وأخواتي في نفس الحقول، قادمًا كما صرت أفعل من منزل جدي. لكن اجتماعي بإخوتي المتبقين، رغم أننا نجتمع باعتبارنا عمّالًا في حقول كاهاهو، مضى على خير فيما عدا الارتباك المحزن حين المساء عندما نضطر أن نغادر ونمضي في طرقنا المفترقة. مكتسباتنا ليست كثيرة. بجانب أن العمل يستمر ما دام ثمة زهور تقطف، أي سبعة أيام أو ما يقاربها.

أرافق أمي أحيانًا حين تذهب إلى المتاجر الهنديّة بحثًا عن عمل. لربما أحصل على شيء يدفع لي أكثر مما أحصل عليه من قطف حشيشة الحمى وصيد الخلدان. بعث المكان شعورًا مختلفًا عن تلك المرة حينما جئت معها لزيي المدرسي. آنذاك كان ذهني منصبًا على متاجر الملابس. أما الآن فأتوقف لبرهة عند البقّالات: أكياس من الفاصوليا، بازلاء، سكر، ملح، صناديق تظهر أكياس من الطحين، فلفل أخضر وأحمر وأصفر، ثوم وبصل، فليفلة ورجلة، فواكه، بابايا، مانجو، وتمر. لاحظت أيضًا نفس صورة الهندي الهزيل الذي رأيته من قبل، بنظاراته مرتديًا بنطالًا أبيض وشالًا ملقى على كتفه. سألت أمي حينها من هذا الرجل ولم صورته معلّقة على جدران العديد من المتاجر. هو أحد الآلهة الهنود، قالت دون أن تعير الصورة الكثير من انتباهها. فذهنها منشغل بالحصول على عمل، أي عمل، له مردود. غوفجي لديه عمل لها في واحد من المتاجر: تنظيم البطاطس. توضع البطاطس السليمة في شوال، تجمع الصغيرة لتباع بادرة، أما التالفة فترمى. ساعدت أمي في هذا العمل، فكان أكثر الأعمال التي قمت بها رتابة، أكثر رتابة من قطف الشاي وحشيشة الحمى. ينطوي صيد الخلدان والجرذ وبناء كشك للتجارة على مغامرة، حتى وهي بلا مردود. تضاءل حماسي للعمل مع الأيام. لكنها احتاجت المال لمهمة

شراء الطعام، المهمة التي لم يكن عليها أن تضطلع بها، ومن أجل تعليمي أيضًا. واصلت العمل في تنظيم البطاطس دوني. سُمح لها في بعض الأحيان أن تأخذ بعض البطاطس التالفة بمثابة مقابل من نوع ما.

ثمة تاجر هندي يدعى مانوبهاي لكنه يعرف عامة بمانو. يتحدث الغيكويو بطلاقة، رغم أنه يخلطها أحيانًا بالسواحيليّة. أنشأ هذا الرجل مخبزًا، مخبز "مانوباهي ليمورر". عرف خبزه باسم "مانو" مقابلًا للخبز المخبوز في مخابز "إليوت" في "نيروبي"، الذي يدعى ببساطة "إليوت". "مانو وإليوت"، كما تسمى الأرغفة، في منافسة. ينتج مخبز "مانو" أرغفة أكثر من المشترين الموجودين، وقد أُجبر في بعض الأحيان على رمي أكداس من الخبز غير المباع في مراحل مختلفة من التخمر والعفن. حين يحدث هذا، ينتشر الخبر بسرعة فيعكف العديد من الناس، راشدين وأطفالًا ونساء ورجالًا، على الأكداس، وفي غضون ثوانٍ يختفي كل فتات الخبز. صادف هذا تصيّدنا لعمل. ألفيت نفسي ضمن حشد من الناس نلتقط الخبز المرمي ونجلب بعضه إلى بيوتنا في حبور. لسوء الحظ لا يفعل مانوباهي هذا كل يوم، وليس ثمة طريقة تنبئنا متى ستكون المرة المقبلة.

بت أقرب إلى جدي مما كنت لأبي. شعرت بالزهو حين طلب مني القدوم لمنزله مرة. جلس على مقعد ثلاثي الأرجل منحوت بعناية، وجلست على آخر يصغره. سقتني موكامي كأسًا من الحليب الدافئ. فطلب منها أن تحضر "الصندوق". أخرج كيسًا من الصندوق، أدخل يده فيه، وأخرجها بكومة رسائل. اقرأ هذه، قال، وهو ما فعلته. يتبع هذا بقول: لا، لا، ليست هذه، فأنتقل للتالية، وهكذا حتى أصل للرسالة المطلوبة التي يقول عندها: نعم، اقرأها كلها. يومئ مرات أخرى فيما أقرأ. هيّا! هيّا! ينفعل باستحسان ورضى. وإذ بي فخور لأن مهاراتي القرائية قد لاقت تقديرًا. اجلبي له المزيد

من الشاي، ينادي جدّي زوجته. ثم يناولني بعدها ورقة وقلمًا، بحبر. يمليني الرد مفردة مفردة، سطرًا بسطر، فقرة تلو فقرة، طالبًا مني أن أعيد ما كتبته حتى تلتقط الرسالة النبرة التي يريدها. هيّا! مرحى! يقول، ثم يضحك بتقدير واستحسان. "بوسعه حقًا أن يمسك قلمًا!" يرفع صوته لزوجته، التي تتقدم نحونا بالشاي. يبدو منبهرًا بصدق من تعلمي. بتّ ناسخه. يسألني عادة أن أذهب إلى منزله لمساعدته في كتابة رسالة ولكن غالبًا كي أقرأ له رسائل قديمة وأساعده في تنظيم المستندات، بما فيها إيصالات الضرائب. بصفته زعيمًا في ما مضى، فقد تولّد لديه تقدير لأوراق الحكومة. كما كان لديه تقدير لكل مستند مكتوب ولهذا لديه أكياس منها في صناديق جذّابة. كان يسألني أسئلة عن هذا المستند وذاك، وما تقوله، ثم يخبرني كيف أنضّمها. بتّ أمين سرّه مع ذلك لم يسألني يومًا عن رأيي في محتواها. فأنا مجرّد ناسخه الشخصي. خلال ذلك، أتناول طعامًا لذيذًا وأشرب الشاي مع الكثير من الحليب، إذ يمتلك جدّي العديد من البقر. راق هذا أمي لأنه يسقط عنها معدة تحتاج الإطعام. تكوّن لدي انطباع بأنها وزوجة جدي ليستا مقرّبتين.

أحبّ جدي زوجته الشّابة موكامي بحقّ. زوجته التي ترتدي دائمًا فساتين غربيّة الطراز. كانت قد كرّست نفسها كليًا لرفاهيته. رغم أنها ليست متعجرفة ولا تنزلق للشجار مع الجيران، إلا أنها ذات سلوك متحفّظ جعل النساء الأخريات، حتى أمي، على مبعدة. لا يجرؤ أحد على التسكع في منزلها دون معرفة موثوقة بأنه مرحّب به. أتساءل أحيانًا إن كانت موكامي هي التي أقصت جدتي غاثوني.

أوقفتي موكامي ذات مساء خارج كوخ نجانغو، وأخبرتني بضرورة أن تكون زيارة جدي هي أول ما أفعله في الصباح. افترضت أن لديه رسالة أقرأها أو أكتبها. لكن لم في الصباح الباكر؟ ها أنا ذا، فتحت موكامي الباب،

ثم منحتني مقعدًا، فجاء جدي إلى الصالون متأنقًا. تناولنا الشاي والبطاطا الحلوة معًا. انتظرت تكليفي. ثم نهض جدّي، مودّعًا وداعات اليوم، وغادر لمناسبة ما. شكرتني موكامي فغادرت، حار ذهني لكن بطني راضٍ. لاحقًا في المساء أخبرتني موكامي أن أعاود القدوم غدًا.

باتت زيارة جدّي قبل أن يطرق طارق آخر بابه جزءًا من روتيني اليومي. بدا امتيازًا واستمتعت بهذا الشرف. كما أشعرني هذا أنني ازددت قربًا إليه. أدركت لاحقًا أنني حللت محل غيسيني باعتباره المنادى الأول عند الشروق. يؤمن جدّي أن الصبيان يجلبون له الحظ. لذا يريد أن يكون صبيًّا أول من يلتقيه صباحًا قبل أي امرأة، بل حتى أي فتاة، تعترض مسيره. أنا إذن طير فأله السعيد. من الواضح أن ثمة أشياء جيّدة تحدث له بعد زيارتي له فجرًا.

لابد أن جدّي أحسّ بالتوتّر والاحتقان الفجّ في كوخ نجانغو. أو لربما اتضح آنذاك أن أبي لن يأتي متضرّعا من أجل زوجته وأبنائه. لذا خصّص مساحة أكرين[18] لأمي كي تنشئ بيتًا، من الساخر أنها بجانب أرض اللورد كاهاهو.

أخي والس موانغي، في مراحله الأولى التي عمل فيها نجّارًا متدرّبًا، نظّم هيكل الكوخ طيني الجدران المسقوف بالحشائش، يكاد يكون نسخة طبق الأصل تقريبًا من المنزل الذي غادرناه في عزبة أبي. لاحقًا بنى كوخه، رباعي الأركان ثنائي الحجرات، يرتفع على قوائم خشبيّة. أختي نجوكي، التي خرج زواجها عن مساره، انضمت إلينا فيما بعد. خلال الموسم المطير قررنا، أخي الصغير وأختي وأنا، أن نزرع غصينات بعض الشجيرات حول الأكر الواحد، بأمل أنها ستتجذر وتصبح وشيعة. ثم جاء موسم الجفاف. جلبت أمي

---

18 الأكر: وحدة قياس للأرض تعادل 4046.9 م^2.

للمنزل غصينًا صغيرًا لشجرة ما وزرعتها في الفناء. قالت إنها شجرة كمثرى، فضحكنا عليها. قلنا لها: أمي، أنتِ تفعلين الأشياء كما يحلو لكِ، لم تزرعيها خلال الأمطار، واخترتِ أن تزرعيها حين توقف المطر. لم تجادلنا، بل ابتسمت وحسب. لكنها واصلت سقايتها وبحلول نهاية الموسم مات زرعنا، أما شجرة الكمثرى فها هي حيّة. أعدنا الزرع كله من أجل الوشيعة مرة أخرى.

وهكذا انبثقت الحياة الجديدة: من مجتمع يسود فيه الزواج التعددي أصبحنا عائلة بوالدة عزباء. ما زلت أؤدي دور النسّاخ وعصفور الفأل لجدي. كما أنني آنذاك سأذهب إلى "مانغو" من بيتي الجديد ذي شجرة الكمثرى الفريدة في فنائه، وأعود منها إليه.

تبعد المدرسة ميلين عن بيتي الجديد، لكنها متفوّقة في ما يخص قرب المسافة على "كامندورا". وافقت مغادرتي مدرسة "كامندورا" إلى "مانغو" منتصف العام في الصف الثالث. فوجئت فيما كنت معتقدًا أنني هنا عملًا بنصيحة أخي، إذ وجدت أنني جزء من جمع مغادرين، مستجيبًا للضغط نفسه. لم يكن سبب انتقالي جليًا لي، لكنني عرفت من الأطفال الآخرين أن للأمر علاقة بمصطلحين غامضين "كيروري" و"كارينغا". لم يشرح لي أحد آنذاك أصولهما ولا ماذا يعنيان. لكن لهذين المصطلحين تاريخ.

بعد أن تحوّلت كينيا من ملكية شركة بريطانيّة إلى دولة مستعمرة في 1895، تركت الدولة الاستعماريّة التعليم في يد البعثات البروتستانتية والبعثة الرومانية الكاثوليكيّة، وكان من ضمنها جمعيّة الكنيسة التبشيريّة المؤسسة عام 1799. ثمة بعثات أخرى جاءت لاحقًا مثل الجمعيّة التبشيريّة الإنجيليّة المؤسسة عام 1898. أمّا البعثة المهيمنة في منطقتي فهي بعثة الكنيسة الإسكتلندية، المؤسسة عام 1891، ومقرها "ثوغتو"، على بعد اثني عشر ميلًا من "ليمورو"، حيث أنشأت مدرسة بقيادة البروفيسور ج. دبليو. آرثر، عُرفت المدرسة شعبيًا باسم "مامبير"، التي تعني "حديثة" أو "تقدّميّة". توسعت البعثة لاحقًا في فتح مدارس في أماكن أبعد، مثل "كامندورا". فيما تلك المراكز متأثرة بالحداثة، "كيريو"، وتقدم الكثير من الرعاية الطبية اللازمة وتعلم

مهارات مفيدة في عمل الخشب والزراعة بجانب تعليم قرائي وكتابي محدود، فهي هنا أيضًا من أجل التبشير. التمسيح الناجح يقاس بسرعته، وعمقه، ونزعه للفرد من ثقافته كليًا، ودفعه لتبنّي ممارسات وقيم جديدة. على سبيل المثال، بين الغيكويوين، يعتبر الختان بمثابة شعيرة عبور تحدد الانتقال من الصبا، وهي مرحلة لا تترتب عليها مساءلة قانونيّة، إلى الرشد، فهي مرحلة بمسؤولية كاملة. في عام 1929، تمادت عدة جمعيّات في المنطقة الوسطى -مثل بعثة الكنيسة الإسكتلندية بقيادة البروفيسور آرثر، والجمعيّة التبشيريّة الإنجيليّة والبعثة الأفريقية الداخليّة، التي أدانت سلفًا ختان الإناث باعتباره ممارسة بربرية لا مسيحية- في حملتها ضد هذه الممارسة وأعلنت أن على كل معلميها الأفريقيين ووكلائها توقيع بيان يقسمون فيه ألا يختنوا الطفلات، وألا يكونوا أعضاء في رابطة غيكويو المركزية، وهي المنظمة السياسية الأفريقية الرائدة آنذاك، وألا يتبعوا جومو كينياتا، الأمين العام لمنظمة "كي سي إيه [رابطة غيكويو المركزية]"، الذي صار لاحقًا ممثلًا للمنظمة في إنغلترا، وألا ينضموا إلى أي احتفال إلا لو نظّمته الحكومة أو البعثات[19]. طلب البيان من مسيحيي المدارس أن يتمسكوا باتخاذ موقف من هذه الممارسة ومن سياسة المقاومة بالمثل، المقاومة التي استمرت بالرغم من حظر رابطة هاري ثوكو الشرق أفريقية في 1922، وبالرغم من نفيه وسجنه، وبالرغم من مذبحة الاثنين وعشرين كينيًا خارج مقر شرطة "نيروبي" المركزية، بل اشتدت بقيادة "كي سي أيه". ثمة صراع مصالح. منذ البدء ورجال البعثات هم المتحدثون المقبولون لدى الاستعمار باسم المصالح الأفريقية، بل بروفيسور آرثر له مقعد في المجلس التشريعي الاستعماري بصفته متحدثًا رسميًا لشؤون الأفريقيين،

---

19 Theodore Natsoulas, "The Rise and Fall of the Kikuyu Karing'a Educa- tion Associa-) tion of Kenya, 1929–1952," Journal of African and Asian Studeis 23, nos. 3–4 (1988): .220–21, or go to http://jas.sagepub.com/cgi/ content/abstract/23/3-4/219). (المؤلف).

فيما للأوروبيين والآسيويين ممثلوهم المباشرون. لذا فالصراع على ختان الإناث أصبح وكيلًا عن الصراع على الاقتصاد، والسياسة، والثقافة، ومن الأحق من بين الأشخاص والمنظمات في الحديث باسم الأفريقيين الكينيين.

"**كيدولي**" هي المفردة السواحيليّة لمعنى "بصمة الإبهام" وهي "**كيروري**" في لغة الغيكويوو وقد تطورت لتصبح مصطلحًا ازدرائيًا لأولئك الذين وقّعوا أو وافقوا على البيان. أما أولئك الذين لم يوقعوه " **Aregi g˜utheca k ˜ırore**"، فغادروا مؤسسات البعثة وانضموا إلى حركة المدارس المستقلة الأفريقية الناشئة، في معظم الحالات، متبوعين بطلابهم. واحدة من أولى المدارس المستقلة المعروفة في كينيا أجمعها بدأت في "نيانزا"، أنشأها جون أوالو، أما في المنطقة الوسطى فقد أنشأ موسى نديرانغو وهو تاجر ناجح مدرسة ابتدائية مستقلة في غيثونغوري عام 1925، وويلسن غاثورو، معلمها الأول، الذي وهب المدرسة الأرض التي بنيت عليها. كان في بادئ الأمر عاملًا في مزرعة رجل أبيض، ثم التحق موسى نديرانغو بالمدرسة بين عامي 1911 و1913 في مدرسة الجمعيّة التبشيريّة الإنجيليّة في "كامبوي"، موطن هاري ثوكو. التحاقه بالمدرسة بعد عمله كان سعيًا للاستقلال الذاتي، والذي وجده في التجارة باعتباره رئيس نفسه. تناغمت ذهنيّته هذه مع رأي هاري ثوكو السياسي، المتأثر جزئيًا بصلته مع ماركوس غارفي، الذي كان شعاره، أفريقيا للأفريقيين، مجسدًا رؤيته في الاعتماد على الذات. سعى ماركوس غارفي للاستقلال في التجارة. طبّق نديرانغو الاعتماد على الذات بإنشاء مدرسة ابتدائية يديرها الأفريقيون أنفسهم. بعد حادثة البيان في عام 1929، أنشأت لجان مِحليّة من الكبار والمعلمين العديد من المدارس. ظهرت منظمتان لمراقبة تطور المدارس الجديدة. جمعية "غيكويو كارينغا" التعليميّة (كي كي إي أيه - KKEA) التي أُطلقت في 1933 في "ليروني"، وهي ليست بعيدة عن "كامندورا"،

وجمعية مدارس "غيكويو" المستقلة (كي آي إس أيه [كيسا] - KISA) في 1934، مقرها "غيتومبا، مورانغا".

لكلتي الجمعيتين انتماءات دينيّة: تنتمي جمعية "KISA" إلى الكنيسة الخمسينية الأفريقية المستقلة، وتنتمي جمعيّة "KKEA" إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة الأفريقيّة بالنسبة، فيما جذورها تمتد لتصل إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة الأميركيّة عبر جنوب أفريقيا من خلال الأسقف وليام دانيال ألكسندر، الذي زار كينيا لستة عشر شهرًا بين عامي 1935 و1937. الكنيسة الأرثوذكسية الأفريقية الأميركية التي أنشأها ألكسندر آخر، الأسقف جورج ألكسندر مكغوير، الذي كان ملحقًا عامًا للرابطة العالمية لتنمية الزنوج التي أنشأها ماركوس غارفي. لذا فإن "كارينغا" هو المصلح الذي اختاروه بأنفسهم لأرثوذوكسيّة الدين والتقاليد. نُزعت عن المسيحيّة تلك النزعات الغربيّة، والتقاليد، والميول السلبيّة، فبات الأفريقيون هم من يحكمون شكل التغيير وتوجّهه. أما ختان البنات فصار مسموحًا لكنه ليس ضروريًا.

أصبح مصطلحا "كيروري" و"كارينغا" نوعًا من تمييز المدارس. "كيروري"، المنطبقة على مدارس البعثات التبشيرية، تعني ضمنًا أن المدرسة تحرم الأفريقيين من المعرفة، لصالح تدريبهم على دعم الدولة المستعمرة، التي قصرت تعليم الأفريقيين مبدئيًا على النجارة، والزراعة، ومهارات القراءة والكتابة الأساسية. أمّا التمكّن من الإنجليزية فلم يكن ضروريًا، حيث أراد المجتمع الاستعماري الأبيض عمالًا أفريقيين "مهرة"، لا عقولًا أفريقية متعلمة. سعت مدارس "كارينغا" و"كيسا" لكسر كل حدود المعرفة. اللغة الإنجليزية، التي اعتبرت مفتاح الحداثة، قدحت الخلاف. في مدارس الحكومة والمهمات التبشيريّة، يبدأ تعليم الإنجليزية في الصف الرابع وما بعد، أما في مدارس "كارينغا" و"كيسا" فيبدأ تعليمها في الصف الثالث أو

أبكر، إذ يعتمد هذا على المعلمين.

لذا، تماشيًا مع التقاليد التي أسستها الحرب التعليمية آنذاك، اعتبرت "كامندورا" مدرسة ترفض منحنا التعليم الذي يدفعنا على عجل إلى العصر الحديث. على عكس ذلك، اعتبرت "مانغو" ذات منهج يمتاز بالتحدّي، تتطلب اكتسابًا عاجلًا للإنجليزية فيما ندخل العصر الحديث.

وهكذا، بالانتقال من "كامندورا"، مدرسة "الكيروري"، إلى "مانغو"، مدرسة "الكارينغا"، عبرت انقسامًا تاريخيًا عظيمًا قد بدأ من قبل أن أولد، والذي ظللت أحاول فهمه حتى بعد سنوات عبر روايتي الأولى، "**النهر الفاصل**". لكن آنذاك لم أحاول فهم التاريخ أو تمثيله، أردت فقط أن أحقق أحلامي بالتعليم بموجب الميثاق الذي اتخذته مع أمي.

قد تكون الإنجليزية هي السبب الرئيس في الهجرة من "كامندورا" إلى "مانغو"، لكنني أشك في أن ثمة فارقًا كبيرًا في تعليم اللغة. معظم المعلمين تقريبًا نتاج مدارس البعثة التبشيرية والحكومة وليس بوسعهم غير الاعتماد على ما يعرفون. في الحقيقة معلِّمَاي الوحيدان للإنجليزية والتاريخ في "مانغو"، هما فريد مبوغا وستيفان ثيرو، تخرجا في مدرسة البعثة الإسكتلندية التبشيرية في "ثوغوتو" الواقعة في "غيكويو"، أب في مملكة بروفيسور آرثر التبشيريّة.

يكمن الاختلاف فيما هو غير محسوس. حين أتأمل في "كامندورا"، فإن ما يبزغ في ذهني هي صور للكنيسة، وصلوات صامتة، وإنجازات فرديّة، في "مانغو"، صور الأداءات الاستعراضيّة، العروض العامة، وحس بالجماعة. لقداس الأحد في "كاماندورا" نمط: يُتلى نص من العهد الجديد بثيمة موعظة اليوم، تتلوه صلوات، ثم ترانيم مترجمة للغيكويو وأداء لأناشيد وموسيقى مأخوذة من كتاب ترانيم كنيسة إسكتلندا التبشيريّة. كان اللحن بطيئًا، كئيبًا، متعبًا تقريبًا دون مرافقة آلات موسيقيّة. يستدعي النص والموعظة والترانيم استبطانًا هادئًا لدى المستمعين الكبار، ونفاد الصبر لدى الصغار. آحاد "مانغو" مختلفة.

أنشئت "مانغو" في 1928 على أرض ممنوحة من عائلة كيّا، مديرها الأول

موريس كيهانغو، لكنه استبدل لاحقًا بفريد مبوغا ثم ستيفن ثيرو، لم يكن لها مبنى كنسي رسمي. في يوم الأحد، يصبح ليوان المدرسة مساحة مقدّسة، فتصير الطاولات العاديّة مذابح مزيّنة ملوّنة، والمقاعد الطويلة الخشبيّة العادية تصير هي مقاعد الكنيسة. كان الواعظ في أول يوم حضرت فيه هو موريس كيهانغو، وهو معلم عادي في أيام الأسبوع، في نفس المدرسة، الذي لم يكن محبوبًا، إذ هو ميّال في الصف لاستخدام العصا كي يفرض الأدب والانتباه.

في أول أحد حضرت فيه القدّاس، لم أر قط شيئًا مثله. فهذه الترانيم، التي ترافقها الطبول والصنوج، أشد نغمًا وحيويّةً. بل إن بعضها توليفات حديثة، تستحضر أحداثًا وتجارب معاصرة عبر تصاوير توراتيّة. في الواقع وجدت العديد من الأناشيد مستقاة من أحداث توراتيّة. ففي نشيد: "**في أزمنة الشقاء، ربّاه، أرجوك لا تدر عنّي وجهك. حين وُضع دانيال في عرين أسود، ربّاه، بعثت له ملاكك...** إلى آخره". إضافة إلى أناشيد تورد **طعن كايين أخاه هابيل بسكّين... إلى آخره. وقصة شمشمون ودليلة. وداوود وجليات.** كل ما فعله الرب آنذاك يمكن أن يفعله الآن: أن يمنح القوّة للضعفاء ويشتّت أعداءهم.

كانت صور وأبيات بعض الأناشيد مألوفة: قرأتها في نسختي من مختارات العهد القديم، لكنها توحي وهي تأتي من شفاه جموع العبّاد هؤلاء بقوّة سامية. يتغيّر المؤدون الفرادى، إذ بوسع أي فرد من الطائفة أن ينضم، ينتقل اثنان أحيانًا للبيت التالي أو يكرّران واحدًا سابقًا. تكون بعض أبيات النداء والرد ثِلاثية: بأصوات متحدة، تنقسم إلى تبادلية قبل أن تتحد في غناء بهيج.

ثم تبدأ الموعظة، وهي مستقاة من نص في العهد القديم. يبدأ الواعظ ببطء وهدوء، ويرفع صوته تدريجيًا. ثم يحدث تغير دراماتيكي في صوته

وإيماءاته، فهو يغنّي، ويتضرع، ويقرّ بالذنب، ويُدان، ويعد. يمزّق قميصه، يكشف صدره ويلدمه، يجسّد خضوعه، فيما يستجدي ربّه، ربّ إسحاق وإبراهيم، ليقدّم للناس الحاضرين ما قدّمه قبل عصور لأبناء إسرائيل، فيحرّرهم من الاضطهاد، ويقودهم خارج العبوديّة، عبر البراري الجافة، والبحار الهائجة، معميًا مطارديهم. كأنه شاهد عيان على الخروج. ثم يحاكي صوت الرب مخاطبًا تابعيه: مزقوا قلوبكم لا ألبستكم، واستديروا لي، لأنني يهوه ربّكم! في تلك الأثناء يئن الجمهور ويشخرون مؤيدين، يهيّجون واعظهم. في منتصف الموعظة، في وقفة مناسبة، أو ردًا على سؤال مطروح، يرد بعض أفراد الطائفة ببيت من أغنية، وهم يحثّون الواعظ وبقية الطائفة لينضموا، ثم يستأنف الواعظ أداءه كأن الرد مدمج في الموعظة. ببراعته، لم يعد كيهانغو المعلم الذي أعرف، فجسده وصوته قد تغيّرا. فهو قائدٌ وفرد من جوقة هائلة في آن. مع هذا حين أراه يوم الاثنين أراه المعلم كيهانغو الذي يبدو عاديًا للغاية، بل ولين المكسر. أين الصوت والهيبة اللذان رأيتهما يحرّكان الأرض؟

رغم أنه لا يتصاعد دائمًا لمستوى الحدّة نفسه، إلا أن الأداء التمثيلي متغلغل في كل شيء في "مانغو"، مبديًا تجربة شعبيّة وأملًا بخلاص جمعي. لم يكن النجاح والفشل شخصيًا قط: بل يضمّان الآخرين. لم نكن نتنافس في أوساطنا وحسب، فنحن نتنافس مع قوى أخرى، بل مع الزمن أيضًا. فالحال دائمًا هكذا: الفرد للجماعة والجماعة للفرد.

لا يكشف هذا شيء كالرياضة. لم يكن لمدرسة "مانغو" ملاعب مناسبة ولا مرافق رياضة عظيمة، لكنها تدبّرت أمرها بما لديها. أحد أكثر الأحداث التي حضرتها إثارة كان حين حضرت للمرة الأولى احتفالًا رياضيًا في واحدة من أهوار "مانغو" التي يغلب عليها الجفاف واليباس في موسم الحر.

بدأ الاحتفال في الشوارع مع فرقة مشاة، وهي جديدة علي. يوجّه قائد الطبل، الذي يرتدي "الكِلت" الأسكتلندي، الفرقة بعصا مزيّنة بخيط أخضر مغزول ينتهي بحلى متدليّة وزغب في الطرفين. يقذف العصا عاليًا في الهواء فأشهق خوفًا من عجزه عن إمساكها ثانية، لكنه يمسكها دائمًا ببراعة دون أن يعثر خَطوه. تبدو الطبول والأبواق والترومبين والنوافير وكأنها تتحادث في صوتٍ جميل خالص من الكلمات.

فيما تعبر الفرقةُ السوق ومراكز المتاجر، نركض نحن الأطفال وبعض الكبار حتى، أو نحاول أن نسير بجانبها، إلى مدخل مقرّ الاحتفال حيث بعد ذلك لا يستطيع الدخول سوى أصحاب التذاكر. الملاعب مسوّرة بجدار سميك من الحشائش وقصب الذرة اليابس، لمنع الجهود المشاكسة من خلق كوّات ترى النّاس من خلالها يسترقون النظر، الجهود التي تحبطها عيون رقيبة باستمرار، وهي غالبًا عيون فتيان بزيّ الكشّافة. لم يكن بوسع المنظم أن يفعل شيئًا بشأن الجالسين على النتوء الجبلي أو من يتسلّقون الأشجار البعيدة عن الجدار.

ثمة عروض جانبية ضمن الملاعب، تتضمّن عرضًا لشخص صغير تصبح كلماته وطرائفه موضوع محادثات غزيرة بعد ذلك، لكن أشدّ ما يجذب الجموع تمارين الضغط المتزامنة، والوثب والقفزة النجميّة، واللوحات الحيّة ورغم تصميم بعضها لتبدو سهلة، إلا أنها بدت لي خطرة. تستقطب بعض المنافسات الجموع الصاخبة، مثل السباق ثلاثي الأرجل، وسباقات موازنة البيضة على الملعقة، أو سباقات العربة اليدويّة البشريّة[20]. لكن لا شيء يعلو المتعة المتأتّية عن سباقات الجري، خصوصًا ما تتجاوز ميلًا.

---

20 لعبة تنافسيّة تتكوّن من فرق ثنائية، يرفع فيها أحد أعضاء الفريق الذي يمثل دافع العربة بساقي الآخر الذي يستند على الأرض بذراعيه محاكيًا هيكل العربة، بحيث يجري أحدهما بساقيه والثاني بذراعيه. م.

يصبح الفائزون بطلات وأبطالًا في قراهم. تنضمّ إليهم الجموع فيما يطوفون خلال الجولة الشرفيّة. في نهاية اليوم، يتبع حشد أكبر الأبطال والبطلات على طول الطريق إلى منازلهم باحتفاء. يحملهم الحشد أحيانًا على الأكتاف، يرفع الأبطال أو مساعدوهم الجوائز التي ربحوها عاليًا، تكون قصاعًا أو معازقَ أو مناجلَ ماشيتيّة أو فؤوسًا، إذ دائمًا ما تكون معدّات، لا نقودًا.

كان المهرجان حدثًا سنويًا في مدارس "كارينغا" و"كيسا"، اللتين تتناوبان استضافته، وهكذا يُضمن تداوله من مكان لآخر، ومن منطقة لأخرى. كوّنت هذه الأحداث تآزرًا بين مدارس "كارينغا" و"كيسا"، فيما ترسّخ في الوقت نفسه الرابطة بين المدارس والجماعة. واقع أن التنظيم يحدث دون تدخل الحكومة الاستعمارية أو التبشيريّة ساعد في تعميق اعتزاز الجماعة الجمعي.

كان شعور النصر الجماعي أو الخسارة الجماعيّة حاضرًا في الصفوف، يتجلّى حين تعلن نتائج الاختبارات في نهاية العام. يتوجّه الآباء والأمهات، والأوصياء، والأقارب، والجيران إلى المدرسة ليشاركوا في الاحتفال بالتفوّق. كان إعلان النتائج مناسبة رسميّة يحضرها مؤسسو المدرسة الكبار، من ضمنهم مزي كيبّا، الذي تبرع بالأرض، والذي يدرّس ابنه ستيفن ثيرو فيها. يصبح من يحقق المراكز الثلاثة المبتغاة، الأول والثاني والثالث، فخر عائلته والجماعة. أما أولئك الذين يحتلون الذيل، كما يقول التعبير آنذاك، فيجلبون الخزي لعائلاتهم. لذا ترافق الضحكات والدموع كل احتفال بالتفوق الأكاديمي، يحضر ابتهاج وحزن جمعيّان. لا بدّ أن الضغط من أجل أداء جيّد قد أنتج تسامحًا شديدًا مع العقاب البدني، العقاب الذي يقترب من الاعتداء في بعض الأحيان، الشائع في "مانغو". لا يلقى الأطفال المضطهدون تعاطفًا من والديهم. فالمعلم دائمًا محقّ، فهو في المحصلة عين الجماعة الحاضرة يوميًا داخل الصف.

رغم أن الأمور ستتغيّر في السنوات التالية، لكنني لم أبرز في أي مادة خلال سنتي الأولى في "مانغو"، ولا حتى في الرياضة أو التربية البدنيّة. لكني فعلت أمرًا استرعى انتباه فريد مبوغا، حين كتبت واجبًا بالغيكويو، وهو تقرير عن لقاء مجلس شيوخ متخيّل. بدا أنه اندهش من تصويري لكياسة حديث الكبار في اختياري للمفردات، والصور، والأمثال. قُرئت الورقة في المحفل. لا أتذكر إن كان أخي الكبير هناك. لكن بالتأكيد أن والدتي لم تكن حاضرة. لكن حالما وصلتُ البيت، علمت أمي بالأمر. فوقوفي وانحنائي تقديرًا للتصفيق الذي حظيت به كان تأكيدًا على أنني بذلت أفضل ما بوسعي.

لا بد أن أمي سُرّت، لأنها سمحت لي لاحقًا بتسلّق شجرة كمثراها المحببة وهزّ بعض فواكهها لطرحها. أغدقت عليها الحب والعناية، فيما الشجرة، وكأنها ترد الجميل، غالبًا ما حملت الكثير من الثمر.

كنت سعيدًا بأن تمريني الصفي أسعدها وجلب شرفًا وفخرًا جمعيًا لجماعتي الجديدة.

لم أعرف أنني سأصبح بعد وقت قصير "تروبادور" رحّال. ترافق الموسيقى في "كامندورا" الوعظَ الديني، والصلوات غالبًا، أمّا في "مانغو" كانت الموسيقى مدمجة في كل شيء، علمانيًا كان أم دينيًا. حتى في المهرجانات الرياضيّة تعلن الجوقات الاستراحة بديلًا للفرقة الاستعراضيّة. أما الأداءات الاستعراضيّة، متضمّنة الموسيقى والرقص، جزء من محافل نهاية العام الدراسي. كان بعضها اسكتشات ومونولوجات.

خلّف اثنان منها لدي انطباعًا امتد لوقت طويل. عنوان أُحدهما "دراجة صممت لاثنين"، وهي قصة حب ثلاثيّة الأبطال يتنافس فيها صديقان ليغلبا دهاء بعضهما كي يفوزا بحب فتاة. ينتهي بهما الأمر متشاجرين، وقد منحا الفتاة فرصة لتنسل بعيدًا. فخسر كلاهما. أما الآخر فله علاقة بالعدالة أو فن تصويب الأخطاء ظلمًا. تركت أم لابنيها موزتين كي يتقاسمانها، كلاهما أراد الموزة الكبيرة. مرّ شيخ كبير، يبدو مراعيًا في كل بوصة منه، رأى المشكلة وعرض المساعدة بجعل الموزتين متساويتين. أخذ الحبتين في يديه، قارنهما وأكل قطعة من الكبيرة، خلّف هذا عدم تكافؤ جديد، فحاول تصحيحه بنفس الطريقة. ثم قضى على الموزتين بالتدريج، تاركًا الأخوين يتأملان الخسارة المتساوية. وحّد الأخوان جهودهما ضد الرجل العجوز بعد أن فات الأوان، فهرب من المسرح كأن الموز منحه شبابًا جديدًا. تؤدى معظم

"الاسكتشات" بفن "المايم" الصامت، غير أنها بليغة، إذ تولّد تصفيقًا، وضحكًا، وإيماءات تنم عن الفهم.

أداء الأغاني، والتي كان لأغلبها طابع تعليمي، تنتج مزاجًا مختلفًا وتُرقرق الدمع في عيون بعض الحضور.

Korwo nĩ Ndemi na Mathathi
Baba ndagwĩtia kĩrugũ
Njoke ngwĩtie itimũ na ng'ombe,
Rĩu baba, ngũgwĩtia gĩthomo
Ndegwa rĩu gũtitũire
Thenge rĩu no iranyihahanyiha
Ndirĩ kĩrugũ ngũgwĩtia
Rĩu baba, ngũgwĩtia gĩthomo

لو أنها أيام أجدادنا نديمي وماثاثي
أبتاه، لطلبتك لطقوس الانتقال وليمة
ثم لسألتك أن تسلّحني بدرع وحربة
لكنني اليوم، أبتاه، أسألك التعليم وحده
قطيع ثيراننا قد راح
والجداء تنفد
لن أطلبك مأدبة
أبتاه، التعليم غاية ما أريد.

ثمة تنويعات أخرى يطلب فيها المغنون أدوات كتابة، قلمًا ولوحًا، بدلًا من الحربة والدرع. كنت آخذ الأغاني والكلمات على نحو شخصي: شعرت أنها تعبر عن مصير قطعان أبي.

انتشرت الأغاني الجديدة خارج المدرسة تدريجيًا، أثارها توجه اجتماعي بارز بين الشبّان والشّابّات. حيث ينظّمون في ظهيرة الآحاد تجمعًا في البيوت أو في الهواء الطلق يتحادثون خلاله ويغنّون. لم يعد رصيف محطة السكك الحديديّة المقر الاجتماعي الرئيس. بل في مثل هذه التجمعات في جماعتي الجديدة غنّيت أول مرة أغنية نديمي وماثاثي، بناء على إلحاح الشبّان والشّابات المرح في بيت أخي والس. جاءت العاطفة التي أودعتها في الأغنية من قلب غارق في شعور فقد حديث: نفوق ماشية أبي، وطردي من بيتي. تقاطعت عواطف الفقد العامة والخاصة. انضم الحشد للغناء. وهكذا أصاب غنائي مزاج اللحظة على نحو لم أتوقعه.

قرّر أخي والس أنني مغنٍّ. وحيثما وجد تجمّع شبّان وشابّات كان يبحث عن طريقة ليضمن بها أن أُبدي موهبتي. بالنظر لصغري مقارنة بعمري، فقد أثرت الفضول. النتيجة واحدة دائمًا: يتفاعل البالغون، ويتبع تفاعلهم إطراء. يقولون الفتى ذكي. الفتى الذي كتب المادة التي قرأها مواليمو أو فريد مبوغوا في المحفل هو مغنٍّ أيضًا.

الآن بت في سنتي الثانية في "مانغو". كنت قد أكملت اختبار الدخول التنافسي للصف الرابع وقد نجحت. كان اختبارًا نهائيًا، وهو عقبة حقيقيّة في المنافسة المدرسية. ألغي الاختبار في وقت لاحق: فالعديد من الأطفال يرسبون، وقد انتهى تعليمهم، يصبحون عمّالًا في مزارع الشاي والقهوة. عزّز تجاوز الامتحان سمعتي بين أصدقاء أخي والس.

وصلت في أحد الأيام إلى المدرسة أبكر من وصولي المعتاد فوجدت مجموعة من الطلبة يغنون بدلًا من اللعب كما يفعلون عادة قبل الطابور الصباحي. تصلّبت في مكاني. كان اللحن مألوفًا: أين سمعته؟

فتذّكرت بعدها أين ألفته. ذهبت ذات يوم حين كنت في منزل أبي إلى

أهوار "مانغو". الأهوار بالطبع مخضلّة خلال الموسم المطير وتظل هكذا لعدة أشهر، بل تظل أحيانًا حتى الموسم المطير التالي. ينمو القصب وتطير الطيور فوق الأهوار، بعضها تأسس أعشاشها وسط الحشائش والقصب حيث وضعت بيضها. ثمة طريق ترابي يصل بين "ليمورو" وطريق "نيروبي-ناكورو" الذي بناه سجناء الحرب الإيطاليون. اعتاد بعض البيض المجيء هنا لصيد الطيور، وكلابهم تتخبط في المياه لالتقاط اللعبة التي سقطت من الأعلى. لم أكن قد تجاوزت الطريق حين رأيت، في مكان اعتدنا تسميته زاوية "كيمونيا"، قافلة من شاحنات على سطحها نساء ورجال داخل أقفاص.

تعيدني أي قافلة شاحنات على هذا الطريق إلى ذلك الحادث في مقلع المُرام الذي قتل رجالًا من الجيش وجرح آخرين خلال الحرب العالمية الثانية. تتشنج معدتي، خوفًا من حادث آخر. وقد خلّفت القافلة التي رأيتها نفس المخاوف. لم يكن ثمة حادث هذه المرّة، لكن النّاس غنّوا في القافلة كمن شهدوا حادثًا أو توقعوه.

لم أحفظ كل الكلمات، لكن لامسني اللحن وأسلوب الغناء بحزنهما الدفاعي الهائل. كنت لأحب أن أعرف الكلمات.

والآن يغني هؤلاء الطلبة تلك الكلمات!

Wendani ndonire kuo
Wa ciana na atumia
Mboco yagwa thĩ tũkenyũrana
Hoyai ma, thai thai Ma
Amu Ngai no ũrĩa wa tene

رأيت حبًا عظيمًا هناك
بين النسوة والأطفال

حين نلتقط من الأرض لقمة
نقتسمها بالتساوي
صلوا له بحرارة
تضرعوا له بحرارة
فهو الرب الأبدي

الكلمات عينها، اللحن عينه، كأن الطلاب جزء من قافلة الأقفاص تلك. عرفت الأبيات والجوقة وأضفتها إلى ذخيرتي. كل ما عليّ فعله أن أبدأ بالغناء وحسب، لينضمّ الراشدون.

جعل غنائي بعض أصدقاء أخي، الذين يأتون عادة لزيارته في منزله الجديد أحادي حجرة النوم، يبدأون الأحاديث معي عن شؤون الأرض كأنني راشد. لقد لقبّوني "مزي"، أي "الكبير" وهو لقب احترام. كما أنني أناديهم "مزي" بدوري. كانوا راشدين، قرناء أخي الكبير، لكن "مزي" بات لقبًا بيننا. أكثر المتعلمين والعارفين في مجموعة الراشدين هذه كان نغاندي نجوغونا.

"هذه أغنية أولي نغوروينى" وضّح نغاندي لي حين سألته عن شيوعها.

"أولي نغوروينى؟" سألت، مستوضحًا.

"منذ عام 1902 حين سرق الأوروبيون أراضينا، حوّلوا العديد من ملاك الأراضي إلى مستوطنين عشوائيين إما بالقوة، أو بالخديعة، أو بالاثنتين معًا. كما تعلم، كي يحصل المرء على مالٍ يدفعه للضرائب، لا بد أن يعمل بأجرة، في مكانٍ ما. ثم بعد الحرب العالمية الأولى تزايد عدد الأفريقيين الذين سلبت أراضيهم واستبدلت بمستوطنات الجنود. غادر بعضهم إلى وادي الأخدود الأفريقي العظيم، وقد زادوا معدّل الاستيطان العشوائي. ثم في عام 1941، في الوقت الذي ذهب فيه رجالنا ليقاتلوا دفاعًا عنهم في الحرب الكبيرة، شرع المستوطنون الأوروبيون في طرد المستوطنين الأفريقيين من مزارعهم، تشريد

للمرة الثانية. كانت أولي نغورويني منطقة إعادة توطين لبعض من شرّدوا قبلًا بالقرب من ناكورو. ثم بعد عودة جنودنا من الحرب العالمية الثانية بثلاث سنوات، قرّرت الحكومة الاستعمارية طرد سكّان "أولي نغورويني"، مجددًا أيضًا، للمرة الثالثة. اتّخذ سكان "أولي نغورويني" موقفًا: لن يتحركوا، لن يُخرَجوا من بيوتهم ثلاث مرات. من أين جاءت قوتهم؟ من وحدتهم. أقسموا أن يتآزروا وألا يحيدوا عن السبيل. جاءت عائلة أحد القادة، القائد كوينا، من "ليمورو". ماذا فعلت الحكومة؟ وضعتهم في شاحنات، كالماشية، وجلبتهم إلى "ياتا" في كينيا الشرقيّة. فوثقوا سردية إزالتهم القسريّة من "أولي نغورويني" إلى "ياتا"، المنطقة التي يسمّونها أرض الصخور السوداء، بأغنية".

في عام 1948 حين سمعت الأغنية لأول مرة. لم أعلم أنني بعد سنتين أو ثلاث سأسمعها ثانية في "مانغو" أو حتى إنني سأغنيها لحشد متفاعل، قد يكون بعض أفراده أقارب للضحايا. وفقًا لنغاندي، "أولي نغورويني"، وهي حكاية تشريد ومنفى وفقد، بمثابة قصة عن كينيا في الواقع، مقاومة النّاس كانت باكورة ما سيأتي.

دُرِّس نغاندي ودُرِّب ليكون معلمًا في كلية معلمي كينيا الواقعة في "غيثنغوري". كان يتحدث عن كلّيته الأم بفخر: فهي تقدم أفضل تعليم في العالم.

جاءت الكلية نتيجة منافسة المعلمين والطلبة من مؤيدي مؤسسات "كيسا" و"ككيا" من ناحية، ومؤيدي مؤسسات "الكيروري" و"الثيريكاري [أي: الحكومة]" التي تقدم برامج الدولة والبعثات التبشيريّة، من الناحية الأخرى. حتى بعد تزايد نمو المدارس الأفريقية المستقلة بدءًا من 1929، ظلت مراكز الحكومة والبعثة التبشيرية مصدر المعلمين المدرَّبين، وكانوا غير راغبين في قبول أولئك المرشحين القادمين مباشرة من المنظمتين المستقلتين، أي "كيسا" و"ككيا". واصلت المدارس المستقلة اصطياد معلمي مراكز التبشير، إضافة إلى سدّ العجز المتبقي بمعلّمين غير مدربين. مع هذا اعتزت مدارس "كيسا" و"كارينغا" باعتبارها عصيّة على تحكم الحكومة والبعثات التبشيريّة. كان السعي وراء الاعتماد الذاتي في ما يخص توفير المعلمين هو التّحدي الذي قادهم إلى فكرة كلية معلمي كينيا في "غيثنغوري"، وهي مقرّ أول مدرسة ابتدائية مستقلة، التي أنشأها موسى نديرانغو. المقر الذي صار رمزًا للاستمراريّة.

ذهن مبيو كوينانغ هو الذي تفتق عن فكرة كلية المعلمين هذه ونفّذها، وهو الابن الأول للأسطورة: الشيخ الزعيم كوينانغ. بعد فترة عمله التي

قضاها في ثانوية "ألاينس [التحالف]" في "غيكويو-مبيو"، ذهب إلى معهد "هامبتن-فيرجينيا" في 1927 لتعليمه الثانوي، وهي نفس المدرسة التي تخرج فيها مربٍّ أفريقي أميركي شهير، بوكر تي. واشنطن، في عام 1875 ودرّس فيها قبل إنشاء معهد "تسكيغي" في "ألاباما" من عام 1881 بتوصية الجنرال آرمسترونغ، رئيس معهد "هامبتن". لا بد أن مبيو قد أحسن صنعًا إذ استحث حين تخرجه من "هامبتن" إشادة امتنان من زملائه الطلبة الذين قالوا عنه: شخص نبيل يمضي في سبيله، وهو مدركٌ لنبله.

ذهب مبيو بعد "هامبتن" إلى كلية "أوهايو ويسليان"، تخرج من البكالوريوس في 1935. تخرجه في "أوهايو" جذب اهتمام مجلة "تايم"، في عدد بتاريخ 4 حزيران من عام 1935، وقد ذكرت الأغاني الروحيّة الزنجية ضمن اهتماماته. واصفةً إياه بابن راقص، أشاروا لحماسته بالعودة إلى وطنه كي يروّج "التوق للتعلم" في جماعته، وهي جماعة "طموح أفرادها الرئيس أن يجعل أحدهم شحمة أذنه تتمدّد لتلمس كتفه." هكذا عبّر العدد عن تصوّره للجماعة، قطعًا لم تسمع مجلة "تايم" بهنري ثوكو وحركة عمّاله المناهضة للاستعمار في عشرينيات القرن العشرين، ولا بالصراع من أجل التعليم الذي قاده شيوخ كبار لهم شحمات إذن طوال. واصل مبيو تعليمه ملتحقًا بجامعة "كولومبيا"، من أجل دراسة الماجستير، فأصبح أول أفريقي كيني يحصل على درجة تعليم عالٍ. بعودته إلى كينيا في 1938 وبمشورة والده توصل إلى حل: سننشئ كلية يمتلكها المجتمع بإدارة أفريقية، تحذو حذو "هامبتن وتسكيغي"، ويصبح هو الرئيس. وقد أمِل مؤسسوها الذين حلموا بها أن تتطور مع الوقت لتصبح جامعة كينيا، باتت الكليّة واحدة من أعظم مشاريع التعليم التي جرت في كينيا المستعمرة وأكثرها طموحًا. بمحاكاتها لمؤسسات "هامبتن وتسكيغي"، ربطت الكلية نفسها بالمفاهيم "الغارفيّة [نسبة إلى ماركوس غارفي]" للاعتماد الذاتي التي ساهمت عن طريق هاري ثوكو وصحيفة "نيغرو

وورلد [عالم الزنوج]"[21] في بدء المدارس المستقلة. غارفي نفسه كان منجذبًا إلى نموذج "تسكيغي" حين غادر "جامايكا" إلى "أميركا" في عام 1914، لكنه جاء متأخرًا فلم يتسن له لقاء واشنطن، الذي مات في 1915.

نظر الحالمون الكينيّون إلى تقاليدهم الثقافيّة بحثًا عن حلول تمويليّة للمشكلات، وللمفارقة جاء هذا بناء على شعيرة الختان المستمرة. ينتمي كل راشد من "الغيكويو"، رجلًا كان أم امرأة، إلى جماعة عمريّة تحدّدها السنوات التي خضعوا فيها لطقوس الانتقال إلى مرحلة الرشد. تجمع الأموال بناءً على الجماعات العمرية، فتتنافس كل جماعة عمريّة مع الجماعات الأخرى ليروا من يستطيع التبرع بمبلغ أكثر. كما توجد ابتكارات ومبادرات فرديّة.

تحكي القصة عن فلاحة أميّة، تدعى نجيري، ذهبت لترى الكلية الشهيرة بنفسها. فزعت حين رأت أن الفتية يعيشون في حجرات مشيّدة من حجارة، بينما تنام الفتيات في كوخ شيّدت جدرانه من الطين وسُقف بالحشائش. عادت لقريتها وبدأت في تنظيم النساء، اللائي أعطين ما استطعن تقديمه لشراء حجارة وصفائح ألمنيوم لبناء سكن للفتيات. فصارت مبادرتها هذه حركة نسائية امتدت خارج قريتها.

حشَدَ جمع المال مجتمع "الغيكويو" الراشد بأكمله، وأصبحت كلية معلمي كينيا جزءًا من الفخر الجمعي المحفوظ في الأغاني الشعبيّة منذ ذلك الوقت.

حين تبلغ "غيثنغوري"
ستجد كلية للأفريقيّين

---

21 صحيفة أسبوعيّة أسسها ماركوس غارفي عام 1918 ووزِّعت في أفريقيا والمناطق المأهولة بالسود، تعنى بحقوق السود وتتبنّى أفكارًا مناهضة للاستعمار وتنشر للأدباء والمثقفين السود. طالها منع القوى الاستعماريّة في بعض مناطق إفريقيا بعد عام من صدورها لكنها استمرت في الصدور والتوزيع حتى 1933. م.

مبنى رباعي الأدوار
بناؤوها كينيون
مشرفوها كينيون
ولجنتها من الكينيّين

كانت الكلية، التي قدّمت أيضًا تعليمًا ثانويًا، بمثابة نظير لمشاريع الاستعمار والتبشير، المشاريع التي تفترض دائمًا هشاشة العقل الأفريقي. كلية معلمي كينيا، المفتوحة لكل الأفريقيين الكينيين، كانت مقرًا مكرّسًا لتخريج أساتذة سيقدمون للأطفال الأفريقيين معرفة محايدة لا محدودة، لتمكينهم من التنافس مع أفضل من تخرجهم مدارس الحكومة والبعثات التبشيريّة. أوحت الكلية بتفاعل المثقفين العفوي مع المجتمع، فهم مفسّرو العالم الرحالون بالنسبة للنّاس.

جاء نغاندي نجوغونا من هذا الطموح وذلك التقليد. يتحدث دائمًا عن اليوم الذي افتتحت فيه الكلية رسميًا في اليوم السابع من كانون الثاني لعام 1939، معتبرًا إياه واحدًا من أعظم أيام كينيا. ورغم افتتاحها في حقبة الحرب، إلا أنها نجت من الصعاب. بل وادعى أن العديد من الأوروبيين والآسيويين قد زاروا الكلية ليشهدوا هذه المبادرة بأنفسهم. كما زارها الجنود السود الأميركيون الذين تمركزوا في "نيروبي" بل غنّوا أغانيَ روحانيّة زنجية للجماعة. لا يتحدث نغاندي لوقت طويل عن أي شيء دون أن يذكر كلية معلمي كينيا في حديثه.

ابتعد عن الحشد حولي حين أعارني كتابًا أصبح بالمرتبة الثانية في أعزّ ما لدي، بعد نسختي الممزقة من العهد القديم. كان كتاب "محبوب الناس [Mwendwo nĩ Irĩ na Irĩri]"، كتبه جستس إيتوتيا، معلم في مدرسة "جينز"، في "كبيتي" بالقرب من "نيروبي"، المنشأة في 1925 لتنمية المجتمعات

القروية. يتكوّن الكتاب من مجموعة مقالات، وألغاز، وقصص تشجع مثال الشخص الطيب الذي تمتثل شخصيته الأخلاقية لقيم التحضّر والواجب والمسؤولية المتبادلة، القيم التي مع وجودها في الثقافة القديمة، تجد تعزيزًا في مبادئ المسيحية للعالم الحديث. مثّل الكتاب لهذا بسرديتين، في وصف وعظي ونثري لرحلة يتناولها الكتاب.

في القصّة ثمة رجل على وشك السفر للتجارة في بلد آخر يسأل صديقه، وهو راعٍ، ليرعى أبقاره المرقطة بالأسود والرمادي في غيابه. تلد بقرته تقريبًا في نفس وقت ولادة بقرة الراعي البنيّة. فيما البقرة المرقطة معروفة بكثرة إنتاج الحليب، بدّل الراعي ببساطة بين العجلين، معطيًا المرقط للأم البنية والبني للأم المرقطة. يعود الرجل أخيرًا من سفره ليستعيد بقرته وما ولدت، فيرى الغرابة في أن يتأمم العجل المرقطُ البقرةَ البنيّة ويتأمم العجل البني الأم المرقطة. وقد أدرك ما حدث، فنقل المسألة إلى الشيوخ. رغم شكّ الشيوخ في الحقيقة نظرًا لألوان العجول، لم يتوصلوا إلى اتفاق إذ ما زالت القضيّة قول شخص لقاء قول شخص آخر. عرض أحد الفتية على مجلس الشيوخ أن يحل المسألة من رأفته بهم، إذ ظلت القضية ممتدة لسنوات وقد ولدت العجول محل النزاع عجولًا ولدت بدورها أخرى. ارتاب الشيوخ، لكنهم جعلوه يحاول إذ أعيتهم الحيلة. تبعوا تعليماته، ثم في عشيّة الجلسة التالية، وضعوه سرًا في حفرة، ثم تركوا له بعض المساحة المكشوفة من أجل الهواء، غطّوا سطحها بصخرة اختبرت قوتهم مجتمعة في دحرجتها إلى المكان. حين جاء الرجل والراعي للاستماع، سأل الشيوخ الجالسون على مبعدة من الحجر الراعي أن يأتي بالصخرة لهم. بعد كد وعرق، فشل، وإذ اعتبر أنه كان وحيدًا معها، حدّث نفسه قائلًا: تبًا لتبديلي العجول، لمَ فعلت هذا بدلًا من التمسك بما هو لي؟ ثم عاد للشيوخ. أعطي المشتكي الآخر نفس التوجيهات. وحين فشل

في تحريك الصخرة لبوصة حتى، هتمل لنفسه: مهما تكن صعوبة المهمة، لن أستسلم في ما هو حق لي. تحركت المحكمة بأكملها الآن لتحيط بالصخرة كأنها تتحلّق حول وسيط روحي. أخبرهم الصوت القادم من الصخرة ما قاله كل واحد من الرجلين، وحُلت القضية وعمّ العدل. في شخصية الفتى التخيّلي الذي كبر فأصبح أحكم رجل في عصره إشارة للمسيح مبكر النضج أو ربّما شخصيّة سليمان.

السردية الأخرى وصف لرحلة مدرسية لأهوار "أونديري" في "غيكويو". لا يقع أي حدث في الواقع: يجتمع الطلاب في مقر المدرسة، ثم يمشون، ويصلون، فيأكلون، ثم يعودون. لكن بوسعنا أن نتعلم من هذه السرديّة قيمًا قديرة: كالنظافة، والدقة في الوقت، والتعاون، وحسن السلوك، وسمات المدنيّة الأفريقيّة والمسيحية الجديدة.

لم أكن أعرف أين تقع أهوار "أونديري"، لكنني أحببت اعتبارها مكانًا سحريًا. وإلا لِم يكرّس الكاتب صفحات لرحلة لا يحدث فيها شيء فعلًا، حيث لا انعطافات ولا تحوّلات في الحبكة؟ رغم أن هذا الكتاب لم يأخذني للأعالي التي يحملني إليها العهد الجديد، لكنه انطوى على جاذبية مباشرة لحديثه عن أشياء محيطة بي. علّمني الكتاب أن بوسع المرء الكتابة عن الأشياء المعتادة وجعلها مشوّقة في آن.

نغاندي، خزّان المعرفة العامة الهائل، يحمل معه صحيفة دائمًا، تكون هذه الصحيفة في معظم الأحيان صحيفة "Mũmenyereri"[22]، الصحيفة الأسبوعية الناطقة بلغة الغيكويو التي يحررها هنري موريا، تجده وقد طواها ووضعها في جيب سترته الخارجي. يقرأ مقتطفات منها لمستمعيه ليدلي برأيه، لكنه يحيل إليها في معظم الوقت. كان بمثابة عالم متجوّل، يبسط كتاب

22 أشهر صحيفة راديكاليّة ناطقة بلغة الغيكويو.

معرفته الهائلة حيثما لقي تجمع شخصين أو ثلاثة.

امتدّت معرفته إلى الأغاني أيضًا وقد أضاف لذخيرتي الغنائيّة. أمّا أغنيته المفضلة فهي "**تعال يا صديقي، نفكّر معًا. ليندحر الظلام في بلادنا من أجل مستقبل أولادنا.**" غنّاها بصوتٍ متهدّج لا يمكنني محاكاته، بنبرة حزن تحت كلماته، لكنه يبدو سعيدًا حين يؤدي تلميذه ما تعلّمه منه، دون أن تشكّل جودة الغناء فرقًا. كنتُ اكتشافه، وكان يحب تقديمي لبعض التجمعات، مشددًا على حقيقة قدرتي على قراءة الكتاب المقدّس وصحيفة "**Mũmenyereri**" وكتاب "**محبوب النّاس**" بطلاقة علاوة على الغناء.

لا أدري كيف حدث ومتى لكنني أدركت أخيرًا أن الراشدين يطيلون الأغاني التي أبدأها بإضافة العديد من الأبيات إليها. فهم يغنّون الأغنية مرة تلو مرة ثم ينتقلون للأغنية التالية، كنت محرّضًا وحسب. في وقت ما، تسللت موضوعات ليست تعليميّة خالصة إلى الأغاني، كما فعلت أسماء مثل واياكي وا هينغا، ومبيو كوينانغ، وجومو كينياتا.

Njamba Ĩrĩa nene Kenyatta
Rĩu nĩ oimire Rũraya
Jomo nĩ oimĩte na thome
Ningĩ Jomo mũthigani witũ

كينياتا بطلنا العظيم
قد عاد حديثًا من أوروبا.
عاد من البوابة الرئيسة (مومباسا)
جومو بات أعيننا.

يضيف نغاندي عادة معلومات أساسيّة تعرّف بالشخصيّات والأحداث التاريخيّة، يذكرهم كأنه يعرفهم شخصيًا أو كان حاضرًا حين حدثت أشياء

معيّنة في أفريقيا، وأوروبا، وأميركا. بل يتحدث أيضًا عن شخصيات في القبور، وايياكي مثلًا. كان واياكي وا هينغا القائد الأعظم للغيكويو في "كيامبو" الجنوبية حين وصل الأوروبيون إلى "داغوريتي" في 1887. رحّب القائد في عام 1890 بالنقيب فردريك لوغارد في "داغوريتي"، حيث أخذا عهدًا جليلًا بالحفاظ على علاقة أخويّة بين الشعبين. خرق أتباع لوغارد العهد، بنوا قلعة "سميث"، ووضحوا بأفعالهم العدائية أنهم جاؤوا للغزو. قاوم واياكي بالرمح في وجه البندقية لكن الأخيرة انتصرت، فقد قُبض عليه ودفن حيًا في "كيبويزي". لو أنك سمعت حديث نغاندي عن مصير واياكي، لصدّقت أنه حاضر آنذاك وقد سمع آخر تصريح دفاعي من واياكي إذ قال إنه سيعود في روح شعبه ليطارد البيض حتى يغادروا كينيا. من آخر آمال واياكي في 1891، ومن دعوته للكفاح المسلّح في الدفاع عن الأرض، جاء مقال نغاندي الأول في الإيمان بالحق السياسي والقانوني. مقاله الثاني عن "بيان ديفونشاير" 1923 الذي ينصّ على أن كينيا بلد شعبٍ أفريقي وأن مصالح هذا الشعب الأفريقي الأصلي هي ذات الأولويّة. قال نغاندي إن البيان إقرار بصواب كلمات واياكي الأخيرة، ملمّحًا إلى أن واياكي كان نبيًا. لنغاندي طريقته في طرح المناظرات وقدح النقاشات بشأن موضوعات تتفاوت بين الأرض، والتعليم، والدين إلى شخصيات مثل مبيو كوينانغ وجومو كينياتا. يرى نغاندي يد القدر على شكل أرقام، مصادفات، وحتى تواريخ: على سبيل المثال، حقيقة أن الرجلين غادرا بفارق سنة، مبيو إلى أميركا في 1927 وكينياتا إلى إنغلترا في 1929 كانت بمثابة علامة على أن دروبهما ستتقاطع.

رحل كينياتا قبل أن أولد، وقد بُعث ليصبح صوت منظمة "الغيكويو" المركزية، "الكي سي أيه (KCA)"، رغم أنها خلَف منظمة شرق أفريقيا لهاري ثوكو، غير أنها حقّقت وحدة مناطقيّة، لأن الدولة الاستعمارية لم تعد تسمح

بمنظّمات أفريقية على مستوى البلاد. عاد كينياتا إلى البلاد لبعض الوقت قبل أن يغادر إلى إنغلترا في 1931، حيث مكث لخمس عشرة سنة ممثلًا لمنظمة "كي سي أيه" رغم حظرها في 1941 أثناء غيابه عن البلاد. أصبح خلال تلك السنوات وطنيًا وداعمًا للوحدة الأفريقية. فقد أخبر البريطانيين في عقر دارهم بحقيقة أن: كينيا بلد الأفريقيين، ورّثها لنا أسلافنا، ولا يمكن لأحد أن يسلبها منّا. إبان نزوله من القارب في "مومباسا" عام 1946، انحنى كينياتا وحمل من التراب الكيني ملء يده وضمّه إلى صدره، فهو طينة الأساطير. كما كتب "**في مواجهة جبل كينيا – Facing Mount Kenya**" وكتاب "**كينيا: أرض الصراع – Kenya: The Land of Conflict**".

بالنسبة لمبيو، لم يكن متعلّمًا وحسب، بل كان الأعلم في العالم، هذا ما أصرّ عليه البعض. ادّعى النّاس أنه حين يتحدث الإنجليزية، يضطرّ حتى أهل اللغة لاستشارة معجم كي يدركوا حديثه. كان العملاقان المتعلمان متنافسين. لا، بل كان العملاقان صديقين حميمين: حتّى إن كينياتا قد تزوّج من أخت مبيو. لكن ألم يتزوّج كينياتا امرأة إنجليزيّة في إنغلترا أيضًا؟ ذُكرت العديد من القصص، والعديد من الخرافات.

يحاول نغاندي، الذي يدّعي أنه قد قرأ "**كينيا: أرض الصراع**"، أن يعقلن كل هذا لدائرة معجبيه. لكن بدا أنه نفسه شعر بتضارب في ما يخصّ أيهما أعظم. مُنح كينياتا الحكمة بولادته، أما مبيو فقد منحته الكتبُ المعرفةَ. الحكمة هبة من الرب، والتعلم هبة من الإنسان، لهذا تبع مبيو كينياتا دائمًا. أترون؟ مبيو هو مؤسس كلية أساتذة كينيا، لكن حين عاد كينياتا من إنغلترا في 1946، ماذا فعل مبيو؟ جعل كينياتا رئيسها. نفّذ مبيو كل أمور الاعتماد على الذات تلك، فهو يمتلك العقل واليد لكن ينقصه الصوت. أما جومو فلديه العقل والصوت، لكن ليست له يد. انظر، يتولّى كل معضلة

كبيرة دائمًا رجلان: غاندي ونهرو، ماو وتشو إن-لاي، موسى وهارون. لا بد من يد عبقري بمعيّة صوت عبقري آخر، دون أحدهما، لا وجود للآخر. نجى مبيو وكينياتا من الحرب العالمية الثانية، وثمة سبب حتى يجمعهما القدر بعودتهما إلى البلد، أحدهما قبيل بدء الحرب، والآخر بعدها، ليقودا كينيا من العبودية إلى الأرض الموعودة. لم تكن الرحلة إلى الأرض الموعودة هيّنة، فهي مليئة بالمحاكمات والبلايا، بالدموع، وحتى بالدماء!

كانت معاناة "أولي نغورويني" جزءًا من نمط متكرّر. بحديث نغاندي عن مقاومة السكّان الذين حُوِّلوا إلى مستوطنين عشوائيين وغيرها من الحكايات، المتخيّلة أو المقتطفة من الصحف، نقل إليّ الشعور بحدوث شيء غير طبيعي وعزّز هذا الشعور، شيء ذو أهميّة قصوى وكأنه حدث توراتيّ يدور في الأرض. كما بوسع المرء أن يحس بهذا أيضًا عبر همسات تتناقل المجريات الحالية والتلميحات للأحداث المستقبلية، فيما نيروبي هي المركز. تولّد الحقيقة والشائعة المزيد من كل منهما في تتابع سريع. أشد الشائعات احتدامًا تلك القائلة بأن كل عمال كينيا اتحدوا تحت مظلة مجلس اتحاد تجارة شرق أفريقيا، وأنهم دعوا إلى إضراب عام لمعارضة منح نيروبي الامتياز الملكيّ، في 1950، الامتياز الذي يرفع مكانتها من بلديّة إلى مدينة. صارت مفردة "مدينة" شؤمًا، شرًّا، توحي بالعدائيّة. كيف ستختلف نيروبي المدينة عن نيروبي البلدة التي هرب منها أبي مرة، نيروبي التي جاءت منها شاحنات الجند لتصطدم بمنزل أمي، نيروبي التي غادرناها أنا وأمي بعد أن تعافت عيناي في مستشفى الملك جورج؟

يعني الامتياز الملكي أن الأفريقيين سيبعدون من البلدة، ومن المناطق المحيطة بنيروبي، كما حدث للسود في جنوب أفريقيا، وضّح نغاندي ببرود. تذكر أن "بويريّي" كينيا جاؤوا إلى هنا من جنوب أفريقيا. لقد طردوا سكان

"أولي نغوروينى" في 1948 فيما "البويريين" في جنوب أفريقيا يفعلون الأمر نفسه للسود. لدى البيض خطة طويلة الأجل للاستيلاء على أفريقيا، من كيب إلى القاهرة. سيسِل رُودز، مالك الماس والذهب المنهوب في جنوب أفريقيا، هو الذي حاك المخطط الخبيث في الأصل. ثم فصّل نغاندي: في ثلاثينيّات القرن العشرين كان ثمّة جمعيّة سريّة من البيض مقرّها في كينيا تتآمر على قتل المواليد السود حين الولادة، وتحتفظ ببعضهم من ذوي البنية القويّة والوهن العقلي، العاجزين عن المقاومة، من أجل استخدامهم في العمل. تدعى بجمعية تحسين النسل "Kiama Kia Njini"، والتي بقيت في ذهني باعتبارها جمعيّة من المخرّبين البيض، غيلان آكلة للبشر، الغيلان التي ذهب كاباي وآخرون لمحاربتها في الحرب العالمية الثانية. والآن يتعارض هذا الامتياز الملكي لإزالة السود من المدينة والأراضي المتبقية مع "بيان ديفونشاير" في 1923، المحبب لدى نغاندي! صار العرق الأبيض في مواجهة العرق الأسود رغم أنه، أي نغاندي، استثنى أشخاصًا مثل فنر بروكواي، عضو حزب العمال في البرلمان البريطاني. عدا ذلك رسم نغاندي بسرديّته صورة زحف الشر الأبيض الغاشم الذي يهدّد بابتلاعنا جميعًا. لكن الشباب حاربوا خطة البيض الشاملة هذه في ظلال التاريخ، بعض المحاربين ممّن واجه البيض في الحرب وانتصر عليهم، رغم أن هذا لصالح البريطانيين. بروح واياكي، يقفون الآن دفاعًا عن كينيا وأفريقيا. النضال ضد خطة البيض الشاملة يمكن أن يُلخّص في الصراع الذي انبسط الآن ضد الامتياز الملكي. أخبرني نغاندي عن إضراب "مومباسا" العام في 1947، لكنه وضّح أن المعركة الحالية في شوارع نيروبي في 1950، بعد أن أضرب العمّال، بمثابة ذكرى لذلك لنضال في وقت هاري ثوكو الذي نتج عنه "بيان ديفونشاير" في 1922، مشيرًا إلى احتمالية أن ينتج بيان أهم عن هذا النضال. آنذاك في 1992، كما الآن في 1950، يزوّد القرويون المضربين بالطعام

ويرحّبون بالعمال الذين فروا من وحشية قوات الحكومة في بيوتهم.

كان بعض من شاركوا في إضراب 1950 ضد الوثيقة الملكيّة من أهل "ليمورو"، وقد جلبوا معهم همسات وشائعات عن بلداد كاغيّا، وفريد كوباي، وشيغ كيباشيا، وجورج نديغوا، وآشينغ أونيكو، وديدان موغو، وبول نغي، ضمن أسماء أخرى. احتلّت الأسماء حيّزًا بين الحقيقي والمختلق، بين التاريخ والحكاية، أما أنا فقد أضفتها إلى كوكبة الأبطال الأسطوريين. لكن الشبّان والشّابّات الذين تحدّثوا عن الشغب في شوارع نيروبي كانوا من لحوم ودماء حقيقيّة: بدوا جادين ومصرّين في كلماتهم وأفعالهم. كنت متلقيًا رغوبًا لحكايات هروبهم الجريء في اللحظة الأخيرة، لحكايات النصر والكارثة، التي تدل على إرادة صلّبتها الويلات. نعم، ظل واياكي حيًا بعد موته.

طفقت أفسر الأحداث والنوادر تفسيرًا توراتيًا، ثمة قصة عن نبي هندي عاد إلى كينيا وظهر أمام حشد في ليوان "كالوليني" ليقول إن وقت مغادرة البيض للبلاد وترك المجال للأفريقيين كي يديروا أنفسهم قد حان. اعتُقل وقال الأمر نفسه أمام القاضي: بوسع الأفريقيين أن يحكموا أنفسهم. كلمات لم تُقل من قبل بهذه المباشرة البيّنة. اسمه ماخان سِنغ. من الواضح أن هذه ليست زيارته الأولى لكينيا، في كل عودة إلى كينيا تسبب كلماته أمرًا جللًا، غالبًا ما يكون إضرابا. شطّ نغاندي بقوله إن نبوءاته بدأت منذ أن كان في سن الثالثة عشرة، وكان حينها قد وصل للتو إلى نيروبي في 1927، وهي نفس السنة التي غادر فيها مبيو الشاب إلى أميركا. حظرت الحكومة الاستعماريّة دخوله، ورحّلته إلى الهند، لكنه تسلل عائدًا ثانية. غير أن مسقط رأسه اختفى هذه المرّة اختفاءً غامضًا، إذ انقسم إلى الهند وباكستان، ولم تقبل البلدان مثل هذا النبي الخطر ضمن شعبيها. وهكذا جرّه المحافظ فيليب ميتشل،

بأوامر جاءته من لندن، من صالة المحكمة ونفاه إلى الصحراء، حيث لا يُسمع صوته. لكن سينغ سيعاود الظهور حتمًا وسيُحدث أمرًا جللًا، مثلما حدث من قبل، كما أثبتت الإضرابات. ثمة همسات آنذاك عن حركة وطنيّة ستحقق نبوءاته. ثم في آب من 1950 أعلنت الحكومة أن الحركة السريّة المدعوّة "ماو ماو" قد حُظرت.

في ذهني، ولأن أسماءهم في كل مكان، في الأغاني التي نغنّيها، ربطت الثنائي العبقري كوينانغ وكينياتا بكل شيء كان يحدث في البلاد: نبوءة الرجل الهندي، خصوصًا بعد أن أشار نغاندي للصدفة الغريبة بوصول الطفل النبي في 1927 ومغادرة مبيو لأميركا في العام نفسه، ونساء "أولي نغوريني" اللاتي غنين إنهن تلقّين برقية من كينياتا في "غيثنغوري" حال وصولهن إلى ياتا، مستفهمًا إن كن قد وصلن بأمان، ومطمئنًا على العمال المضربين في أنحاء عديدة من البلاد، والآن هذه الحركة السريّة. أصبح كينياتا وكوينانغ الأغاني وأحاديث نغاندي شخصيّتان خياليّتان في ذهني، يفوقان الواقع. تخيّلت على وجه كينياتا العملاق مليون عين كينيّة، تلهفت للقائهما، بالنحو الذي يأمل به المرء مصادفة شخصيّة خياليّة مفضّلة في الحياة الحقيقيّة بالرغم من يقينه أن هذه المواجهة مستحيلة.

كنت محظوظًا مع مبيو. فأختي الكبرى، غاثوني، كانت متزوجة من كياري، الذي فقد وظيفته في مصنع أحذية "باتا ليمورو" بعد إضراب 1947. عاشا في "كيامبا"، بجانب أرض يملكها الزعيم الأسطوري الشيخ كوينانغ. كان والد كياري يرعى بستان الكمثرى والبرقوق الممتد الذي يملك كوينانغ. كنت وأخي الصغير نزور أختي عادة لنجالس طفلتها البكر، وانجيرو. منزل أختي شديد القرب من منزل تشارلز كاروغا كوينانغ، أخ مبيو الصغير. ثمة زيارات متبادلة بين أختي غاثوني وزوجة كاروغا التي تدعى ندوتا، وهكذا

التقيت لأول مرة ويلفريد وواندوغا، أبناء تشارلز كاروغا كوينانغ. كنت أنا وويلفريد في نفس الصف، لكن في مدارس مختلفة ومناطق مختلفة. أحب كلانا المدرسة، لذا فلدينا مشتركات كثر. بعد سنوات، في أوائل تسعينيّات القرن العشرين، التقيته في كلية "ماكيري"، في "كامبالا"، حيث يدرس الطب، وأدرس أنا اللغة الإنجليزية. لكن خلال شبابنا وبالرغم من صداقتنا الواعدة لم يكن لديه ما أردته: أي القدرة والألمعية كي يستحضر مبيو من مملكة الخيال.

ثم قدّمت إحدى الفرص نفسها. حينها زرت أنا وأخي أختي معًا. حين كنّا نسير في درب ضيّق تحدّه وشيعة من الجهتين خلفها نبت كثيف من الذرة الخضراء، سمعنا امرأتين تتحدّثان وتشيران إلى شخص يسير بنفس الاتجاه لكنه يتقدّمنا. هذا هو، قالت المرأتان، هذا ابن كوينانغ، إنه مبيو بذاته. كان ذاهبًا على الأرجح إلى البيت بعد زيارةٍ ما بصحبة أخيه تشارلز، أو ربما كان يمشي حول عزبة أبيه الفسيحة. هذه فرصتنا، قلت لأخي الصغير، الذي لم يكن مولعًا مثلي بشخصٍ يرتدي بدلة رماديّة، ويمشي مفكرًا عبر درب ريفي مبتعدًا عنّا. لكنه مستعد دائمًا إذا ما جاء الأمر للمغامرة. لنتأكد من أنه هو، دعنا نحييه. وقد استمد أحدنا شجاعته من الآخر، اندفعنا عبر الوشيعة وجرينا في حقول الذرة. كي نتأكد من تجاوزنا له، خرجنا في الدرب من الوشيعة، ومشينا باتجاهه. قلنا بصوتٍ واحد "كيف حالك، مبيو وا كوينانغ؟" بدا أنه دُهش من ظهورنا ثم قال: أنا بخير. لم ننتظر منه أكثر. ركضنا ونحن نصرخ: "هيّا، إنه هو". لكنني شعرت ببعض الخيبة. لم يبد هائلًا بقدر مبيو الموجود في خيالي وبقدر وصف نغاندي. قد يُجري الدماغ بعض الخدع، ثم بعد أشهر في 1951 سمعتُ أغانيَ غناها اتحاد كينيا الأفريقي (KAU) في ليوان "كالوليني"، في نيروبي، ليبثوا شكواهم فيما يرسلون كلًا من مبيو وأشينغ أونيكو إلى

إنغلترا، حينها عاد مبيو الخيال، مختلفًا عن الذي رأيته يمشي في ذلك اليوم.

على الأرجح فإن كينياتا الحقيقي، مهما يكن زمان اللقاء ومكانه، سيشبه كينياتا الأساطير. لكن بيته بعيد في غاتوندو وليس لدي أقارب متزوّجون في تلك المنطقة. من غير المرجح أن أكون في موضع يسمح أن أمسك به ببدلة رماديّة يمشي فردًا، منهمكًا في التفكير، في درب قروي تحيط به حقول الذرة الخضراء.

ثم سمعت من نغاندي، الذي بدا أنه يعرف كل شيء، أن جومو كينياتا سيأتي إلى "ليمورو". رغم أنه لا يعرف تحديدًا في أي يوم، ولا أي أسبوع، ولا أي شهر. لكنني تيقّنت من أمر واحد: لن أدع الفرصة تفوتني. لم أخبر أحدًا، وهكذا بدأت في ارتياد متجر أثاث أخي الكبير في سوق "ليمورو" الأفريقي.

والس موانغي، أو والس الطيب كما بات يعرف، هو أولى نجاحات أمي الكبرى. ولد في 1930 ثم التحق لاحقًا بمدرسة "مانغو" لبضع سنوات منذ 1945. لديه عادات دراسة ملفتة، خصوصًا قبل الامتحان: يذاكر طيلة الليل مع مصباح "بارافين" مضاء، وقدميه في طشت ماء بارد كي يبقيه مستيقظًا، لكنني أظن أن نقص النوم لن يفضي إلى أداءٍ جيّد. حاول أن يروّج لنظريته وممارسته لدى أي شخص قد يسمعه، لم يقنعني، إذ بماضيّ مع سوء العينين، نفرت من فكرة الدراسة طيلة الليل بجانب مصباح زيت وقدماي في ماء بارد، لكن لم يتوقف قط عن ترويج الفكرة. أما أمي، التي دفعت بنفسها لتعليمه، فلم تتدخل في جهوده الدراسية عدا مرة حين أعلن نيته في أن يصبح صبي كشافة. في الغيكويو، مفردة "كشّافة" بدت بالنسبة لأمي مثل "thikauti أوthika hiti [دافن:thika / الضباع:hiti]" ولا بد أن أحدًا قد أكد لها أسوأ مخاوفها بأن أخي سيصبح "دافن الضباع الميّتة." توسّلت إليه، وهددته، ولم ترد أن تسمع توضيحًا بهذا الخصوص. لم تستطع أن تتخيل ابنها نائحًا ودافنًا محترفًا للضباع. أشك إن كانت ستقبل بأي حيوان آخر، لكن للضبع أسوأ شخصيّة في القصص: فهو جشع، قذر، ويتغذى على بقايا البشر. لا أدري ما السبب الذي منعه من أن يصبح فتى كشّافة، هل لأنه استسلم لمخاوفها أم لأنه ترك المدرسة بعدها.

ربّما قد خلّفت هذه الحادثة لدى أخي رغبة أشبعها بالإنابة عبر السيّدة التي أحبّها وتزوجها بعد ذلك. ولدت تشاريتي وانجيكو في 1935 في قرية "كيموغا"، في "كيامبا"، بالقرب من مسكن أختي غاثوني وتشارلز كوينانغ. التحقت بمدرسة جمعية الكنيسة التبشيريّة في "كيامبا"، حيث انضمت لفرقة الفتيات المرشدات. حتى حين لا ترتدي الزي، ترتدي تشاريتي بيريه زرقاء، وقد خلّفت شباب "ليمورو" متقدين وراءها حقدًا وإعجابًا. "حصل والس لنفسه على عضوة من المرشدات" هذا القول الذي همسوا به بل صدحوا أحيانًا. لقبوها "رندي يا بنانا"، أي "السيدة القادمة من بنانا هيلز،" لأن موقع ضاحية "بنانا"، الموجود على الطريق العام بين "نيروبي وليمورو"، يبدو معروفًا وأكثر خصوصيّة من "كيموغا وكيامبا" التي تبدو كأنها قرى قريبة. حدث هذا بعد مضي سنوات بالطبع، في 1954، ولم تعارض أمي أن تصبح "فتاة مرشدة" كنّتها إذ لا تبدو مثل "فتى كشّافة".

الآن، وقد ارتاحت بل شعرت بالامتنان حتّى، لأن ابنها طمأن مخاوفها، موّلت أمي أحلامه الأخرى، باعت الجديين اللذين ربّما كانت تسمّنهما، أو أشجار الأكاسيا السوداء التي زرعتها على حصّة من أرضها. انضمّ بعد أن غادر المدرسة إلى خدمات كاباي القانونية والسكرتارية، انضمّ راقنًا متدربًا على الآلة الكاتبة. لم تحقق إنجليزيته طلبًا عاليًا ضمن خدمات السكرتاريّة لكن حين يفعل أمرًا فهو يضيف شيئًا من عنده. جرّب يده في صنع آلة كاتبة خشبية ادّعى أنها ستكون أسرع وأقل جلبة من راقنة "رينغتن" التي يمتلكها كاباي. هجر كلا المشروعين وأصبح متدرّبًا لدى نجّار، وهو جوزيف نجورغو، يقاربه في السن. مثل هذا التدريب من المفترض أن يستمر لسنوات، لكن بعد بضعة أشهر وحسب، بدأ أخي بصنع أشياء تخصه على حدة. تضافرت هنا مواهبه الإبداعية ومهاراته في الإقناع، وسريعًا ما أصبح زبائنه أكثر

من زبائن معلّمه النجّار. فعل ما لم يفعله حرفي أفريقي في المنطقة، استأجر فناء متجر هندي يملكه غوفجي، أو نغونجي في صيغته الغيكويوية، حيث صنع أسرّة ومقاعدَ وعرضها فيها، متنافسًا مع الحرفيين الهنود الذين يفوقونه مهارة وخبرة. استمرت تجارته في التوسع، فاستأجر فناءً أكبر، في المنتصف بين المتاجَر الهندية والأفريقيّة، مساحة يملكها كارابو الذي يعمل في تجارة النقل، والذي فقد إحدى ساقيه في حادث طريق. آنذاك كان والس الطيب يستعين أحيانًا بخدمات جوزف نجورغو، النجار المعلم. استاء المالك من نجاح أخي وحاول أن يجبره على الخروج برفع الإيجار رفعًا حادًا، وقد أخرجه في النهاية إذ ادّعى حاجته لاستخدام المكان. انتهى الأمر بأخي أن يستأجر بناءً في سوق "ليمورو"، حيث أسس منجرته ومحل الأثاث.

كان كاهانيا وا نجو ضمن متدرّبيه، وهو واحد من أقرب أصدقائه، تزوّج أخوه الأكبر كارانجا السائق أو ببساطة نديريبا كما يعرف، أختي العلّة نياغاكي وهي ثالث مواليد غاسوكي. التحق كاهانيا بمدرسة "مانغو" أيضًا، لكنه ترك الدراسة بعد ضربه للمعلم واهينيا، الذي يصغره، عندما حاول أن يؤدبه. على خلاف الحرفيين المتدربين الآخرين الذين يدفعون ليتعلموا، كان كاهانيا يتلقّى أجرة على عمله. كان هو وأخي والس صديقين اجتماعيّين، لا يتفارقان، حرفيًا. معًا انتقلا إلى المقر الجديد، وأصبح كاهانيا مساعده أخيرًا، رغم أنه لم يكن ببراعة الأستاذ النجّار نجورغو.

كثيرًا ما زرت منجرة أخي حين كانت في المتاجر الهندية وفي مكان كارابو، لكن ليس بالتكرار الذي تبعته الآن إذ أبحث عن فرصة لألتقي كينياتا. لم تكن مدرسة "مانغو" بعيدة عن السوق، وفي استراحات الغداء أجري إلى هناك وأعود على وقت دروس الظهيرة. يمتلئ السوق بحرفيين من كافة الأنواع: إسكافيّين، مصلحي دراجات وميكانيكيّي عربات، مصنعي

أوانٍ من الألمنيوم ورؤوس مواقد الفحم، مصنعي الأدوات المنزلية الأخرى، وخياطين بمكائن خياطة "سنغر" الصاخبة.

مثل عمّال مصنع أحذية "باتا"، الذين يزورون بيتنا عادة وعيونهم على الفتيات، يفعل أيضًا أفراد طبقة الحرفيين. شكّلوا بعملهم الحر المستقل درجة اجتماعية أرفع من الطبقة العاملة بوصفهم عزّابًا مرغوبين. وهكذا خطف الإسكافي الساخر والراقص اللامع غاتانجيرو ابن ماريو قلب أختي العلّة مينيه وانجيرو وا غاسوكي، وخطف السيّد الغسّال وانجوهي قلب مومبي الجميلة، ابنة فافا موكورو، وخطف الخيّاط المتديّن ويلي نغانغا قلب واحدة أخرى من أخواتي العلات، وهي أختي المتدينة بقدره وامبوكو وا نجيري، بعد أن حيّد العديد من الخاطبين. لكن غيرهم من العمّال، بمن فيهم الموظفون في المطاعم ومحلات الجزارة في السوق، جذبوا بدورهم حصتهم من القلوب الخافقة.

في إحدى الزوايا متجر ومطعم كيموشو. وهو للخال كيموشو، أكبر أبناء إحدى المرأتين اللتين ورثهن جدي إثر موت قريبه ندونغو. أمّا خالي غيسيني، الذي غادر "كاماندورا" بحلول ذلك الحين، بات يعمل هناك.

يعطيني والس الطيب بضعة سنتات من وقت لآخر. فأجري لمطعم الخال كيموشو لأشتري "**ماندازي**" أو "**ماتومبويا**"، كما نسميها، وهي ضرب من عجينة مقلية، تكون عادة طازجة من زيت يغلي. كان مطعم كيموشو مشهورًا. ثمة كومة من جرائد "**مومينيريري**" لكنك لا ترى باعة. يأخذ الناس نسخهم ويضعون ثمنها أو يأخذون صرف الباقي المناسب ممّا دفعوا. كيموشو نفسه، البدين، فاتح اللون، كان تقريبًا خلف المنضدة دائمًا في متجره المجاور، ولدي انطباع بأنه لا يدري من أكون لأنه لم يومئ لي قط إماءة معرفة.

استمتعت بأيام انتظار كينياتا في منجرة أخي. أحببت رائحة الخشب، لا فرق أكان مطليًا بالبرنيق أم لا. أحببت جرجرة أقدامي عبر نشارة الخشب وبرادته التي تغطي الأرضيّة. توصّلت إلى تقدير المتطلبات التخيّلية والعضلية للعمل مع الخشب. لاحظت دقة أخي مع كل شيء: التصميم والتشطيب. فهو يعمل على شيء، وحين أرى واثقًا أنه انتهى أجده يعود إليه ثانية وثالثة حتى يحقق التجويد الذي يريده. مهما يكن ما يصنعه، فإنه فريد. حاول أن يغرس أخلاقه العمليّة في موظفيه، بمن فيهم صديقه ومساعده كاهانيا، لكنهم ليسوا صبورين مثله. إلا أنه أصر، ملحًا عليهم بشأن أهمية إرضاء الزبائن، وأن يُكسبوا المحل سمعة طيّبة لديهم، فيحوّلونهم بهذا إلى سفراء دعاية للمنجرة. كان مثالًا يحتذى به.

أردت أن أتعلّم النجارة، ما دامت تشتمل على استخدام المنشار، والمسحج[23]، والميتدة، والمطرقة، والمسامير. لكن أخي لم يسمح لي بالعبث في معداته. شعرت بالظلم إذ يتيح لأخي الصغير حرية أكثر من المتاحة لي. كأنه يحبط اهتمامي في النجارة. كنت إذا أصررت، يعطيني ورق السنفرة لأعمل على بعض المقاعد والطاولات، وهذا عمل ممل للغاية، ورتيب. بدا لي أن المعيار المطلوب تحدّده عينا القاضي، وأخي قاضٍ متطلب. يحب أن يراني أحمل كتابًا أو صحيفة، ثم ينبّه أصدقاءه ليروا ما أفعل.

لم أمانع هذا. فلدي أجندتي، إذ كنت أنتظر كينياتا خلال الزيارة. تسنّى لي في تلك الفترة أن أركب درّاجة للمرة الأولى في حياتي. اضطر معظم اليافعين، من الفتيات والفتية على حد سواء، الذين أرادوا أن يتعلموا إلى انتظار زيارة مفاجئة من أقاربهم الذين يمتلكون دراجات. فيما يشرب الضيوف ويتناولون عشاءهم، "يستعير" الصبية الدراجة بصمت ويأخذون

23 آلة تبري الخشب. م.

جولة، فيما الإخوة والأخوات المذهولون يتبعونهم، منتظرين أدوارهم. تلحقها الحوادث، فينتج عنها الضرب إذا ما لحق بالدراجة ضرر أو تلف يجعل الجناة يعترفون. لكن هذا لا يثنيهم عن تكرار ما فعلوا.

أردت طويلًا أن أركب درّاجة لكن لم يكن أحد ممن أعرف يمتلك واحدة. بعد ذلك استأجر أخي العلة موانغي وا غاسوكي، الخيّاط، مقرًا قريبًا من محل أثاث أخي وفتح بقّالة. كان يتنقل بين بقّالته ومحل الخياطة، وهو الأمر الصعب. بناءً على طلبه، حين لا أكون في المدرسة أذهب إلى البقّالة كي أساعده، وها هو ذا سبب آخر يأتي بي للسوق. كان موانغي متزوجًا من إليزابيث، شقيقة باتريك موريغ سيغ، زميلي في "مانغو"، الذي نشأت بيني وبينه صداقة آنذاك.

لا أدري كيف حصل موريغ لنفسه على دراجة صبي، هذه الملكية النادرة، من النوع الذي نراه مع الشباب الهنود وحسب. قرّر أن يجني المال من تأجيرها لمسافة معلومة، تكلّف كل جولة بضعة سنتات. لم يكن لدي المال الكافي، لذا كلما جاء لمتجر صهره أرجوه ليجعلني أركب دراجته مجانًا. لكنه لا يخلط الصداقة بالتجارة. تركته يأخذ في أحد الأيام حلوى من المتجر مجانًا، ولم أعتبرها سرقة، إذ ثمة الوفير منها في المستوعب الزجاجي الكبير، كما أنني لا أتلقى أجرة على عملي، والمتجر، هكذا أقنعت نفسي، كان له جزئيًا لأنه ملكية صهره. مقابل الحلوى سمح لي باستخدام درّاجته.

بعد أن أراني كيف أمسك المقابض وأكد لي أن السير بالعجلة سهل كشرب "كابلاش" ماء، أمسك مبدئيًا بالدراجة فيما أمتطيها، ثم أفلتها دون أن يخبرني بأنه سيفلتها. ما إن بدأت أدوس على دواساتها حتى هلعت. نظرت إلى الخلف، وخلال ثوانٍ انحرفت الدراجة عن المسار الموجود خارج متجر

موانغي واتجهت للمنحدر باتجاه مبانٍ على الجهة المقابلة. لم أعرف كيف أوجّهها. انزلقت ساقاي عن الدواسات. تصلّبت من الخوف. تمسكت بالمقابض، وامتدت ساقاي في الهواء. تسارعت الدراجة، تيقّنت من أنني سأتهشم في جدار، ثم، بغتة، حلّ الدويّ! اصطدمت بعابريَن. سقطا، وسقطت، أما الدراجة فرقعت على بعد بضعة ياردات منا، وظلت عجلاتها تدور. نهض ضحيتاي، نفضا عن نفسيهما الغبار، وبالكاد أمسكا عن ضربي. لحسن الحظ، لم يصابا. لم آبه بكدماتي ما دمت قد فلتُ من مصير أسوأ. شعرت في داخلي رغم هذا أن الوقوع كان عقابًا على الحلوى التي سرقتها.

لم أطبب كبريائي أو جسدي الجريح لوقت طويل، فقد حدث شيء آخر استولى على انتباهي. في متجر الشاي المسمى الفندق الأخضر، على بعد ياردات في نفس جهة البقالة والمنجرة، ثمة مذياع بمكبر صوت، وهو الوحيد في البلدة. كان الناس يعتمدون في تلقي الأخبار على قراء جريدة "Mũmenyereri" بتحرير هنري موريا، مثل صديقي نغاندي، من يلقي الأخبار على جمع صغير كل مرة، فينشرها الجمع على نطاق أوسع نقلًا عنه. أما الآن يكتظّ الناس داخل متجر الشاي وخارجه ليستمعوا إلى المذيع مبورو ماتيمو وهو يقرأ الأخبار بصوتٍ يعلو ويهبط. فهو يصرخ ويهمس ليضيف تأثيرًا دراميًا على ما يقوله، يزداد مستمعوه يومًا بعد آخر، كما كان مبورو ماتيمو غير المرئي حاضرًا دائمًا في وقت الغداء حيث يركد العمل في السوق.

من المذياع سمعنا في تشرين الأول من عام 1952 أن الزعيم الشيخ واروهيو قد اغتيل في حادث وصفه مبورو ماتيمو بقتل على نهج عصابات "شيكاغو"، ثمة سيارة تعقّبت سيارة الزعيم، ثم مشت بمحاذاته، فيها أشخاص يرتدون زي شرطة زائفًا طلبوا من القائد بأدب أن يعرّف بنفسه ثم أمطروه بالرصاص قبل أن يفرّوا بسرعة، وكل هذا في وضح النهار. سمعنا بعد أيام أن

كينياتا خاطب تظاهرة ضخمة في "كيامبو"، مُدينًا الماو ماو بتعبير غيكويوي: ليختفوا تحت جذور أشجار ميكونغو (Mau Mau irothii na miri ya mikongoe). ربما كان كينياتا في طريقه إلى "ليمورو" أخيرًا. ثم في العشرين من تشرين الأول لعام 1952 جاءت الصدمة. اعتُقل جومو كينياتا، وبيلداد كاغيا، وفريد كوباي، وبول نغي، وأشينغ أونيكو، وكونغو كارومبا، مع قادة آخرين، في عملية جوك سكوت. نُقل كينياتا من "غاتوندو" إلى "لوكيتانوغ" في "توركانا"، بعيدًا عن نيروبي. الحاكم إيفلين بارنغ، الذي حلّ حديثًا في مكان سلفه فيليب ميتشل، أعلن حالة الطوارئ. بدا أن الأمور في تصعيد.

قد ارتكب كل حاكم استعماري، منذ إليوت في 1902 وحتى ميتشل في 1944، جرائمَ عديدة ضدنا، ندب نغاندي، لكن هذه هي المرة الأولى التي يعلن فيها أحدهم الحرب على الشعب الكيني خلال أيام من وصوله. بالطبع، تلقّى الحاكم بارنغ الأوامر من قائده في لندن، تشرتشل نفسه، الذي كان في المحصلة رئيس وزراء. هل ترون السخرية؟ ساعده رجالنا في محاربة هتلر وهكذا يرد لنا الجميل؟

لم يحارب نغاندي في الحرب العالمية الثانية لكن أخي العلة كاباي قد حارب. تذكرته قائلًا إن العالم لن يدري مقدار مساهمة الأفريقيين في جهود الحرب. لم أره كثيرًا منذ مغادرة منزل أبي، وتساءلت ما الذي سيقوله الآن عن إعلان الحرب ضدنا، كما قال نغاندي. وهل الجنود الذين جاء بهم إلى البيت ليلًا قبل زمن طويل يشعرون بما يشعر به نغاندي تجاه الوضع؟

كان هذا انتهاك آخر لبيان "دوفنشاير" المحبب لدى نغاندي. آنذاك انتقلت الأشياء من السيئ إلى الأسوأ إلى الأشد سوءًا قبل أن تبدأ في التحسّن. حاول نغاندي أن يشرح جسامة الوضع بشجب تقييد القوانين والحريّات المدنيّة، لا يعني هذا أن ثمة عددًا من الحريّات المدنيّة للأفريقيين آنذاك،

لكن حتى القليل الموجود سيلغى الآن مع القانون العسكري. كما تحدث عن أماكن أخرى أُعلنت فيها حالة الطوارئ. أعلنها البريطانيّون في إيرلندا عام 1939 وفي مالايا عام 1948. بأقصى تشاؤم، نغّم صوته وقال إن أدولف هتلر فعلها أيضًا في ألمانيا عام 1933. وما الذي تلاها؟ الحرب ومعسكرات الاعتقال.

كأنما يؤكد شكوك نغاندي، نقل المذياع بعد ذلك خبر هبوط قوات بريطانيّة، كتائب رماة "لانكشاير"، في نيروبي، أو كما صاغها نغاندي، "قافلة" من الطائرات الحربيّة البريطانيّة قد هبطت في بلدة "إيستلي" شرق نيروبي لتعزيز وجود القوات الاستعماريّة. ادّعى البعض أنهم قد رأوا بالفعل الواصلين الجدد يعسّون شوارع نيروبي، وقد تسلّحوا بمعدات مرعبة. مكينة الحرب التي سبق توجيهها إلى هتلر أديرت إلى وجهنا، قال نغاندي نادبًا.

ربما كان اعتقال جومو كينياتا لكمة للعموم، لكنها لكمة شخصيّة بالنسبة لي. فقد حرمني اعتقال من سبب وجودي يدفعني إلى المواظبة على زيارة السوق. بالرغم من آمالي المحطمة، فإن الأحداث وحتى وفود الأفواج البريطانيّة كانت تجريديّة للغاية، كأنما تحدث في أرض ضبابيّة نائية، كقصة في أراضٍ بعيدة، تتراوح بين الحلم والكابوس. ذكر نغاندي لحالات الطوارئ في الأماكن الأخرى والحرب ومعسكرات الاعتقال بجانب وصفه المخيف للجند البريطانيين والاعتقالات الكاسحة في شوارع عاصمتنا لم تقرّب القصة منّي ولم تضفِ عليها واقعيّة. ولا حتى حين تحدّث عن رجال يدخلون غابات "نياندروا" وجبل "كينيا" تقودهم روح واياكي.

ثم بدأت الأمور تمسّنا. باتت كل أغاني "الماو ماو" والإشارات لواياكي أو كينياتا أو ميبيو مجرّمة. وقد أنهى هذا بغتة مسيرتي بصفتي مغنيًا رحّالًا. بل حُظرت كلية معلمي كينيا في "غيثنغوري" وكل مدارس "كيسا" و"كارينغا"،

وهذه اللكمة كانت لأحلامي بالتعليم.

مررت بفترة شكّ كثّفتها الشائعات والحقائق المتضاربة. مكثت لبعض الوقت بعيدًا عن سوق "ليمورو" والمذياع في الفندق الأخضر، مكتفيًا بتأويلات نغاندي. لكنني اعتدت على منجرة أخي ومتجر الأثاث فلا أستطيع أن أبقى لوقت طويل بعيدًا عن السوق. إلى جانب أنني لم أعد أرتاد المدرسة.

ذهبت ذات يوم إلى سوق "ليمورو" نفسه، فألفيت رجالًا ونساءً وأطفالًا يحملون أمتعة، يحتشدون في مجموعات، ويبدو عليهم البؤس والتيه. امتلأ السوق بأكمله والمناطق التي تحيطه بعدد هائل من المهجّرين. كانوا يُدفعون من القطارات والشاحنات. هذا الطرد يختلف عن الطرد من "أولي نغورويني" في 1948، فقد اقتصر الأخير على من صاروا مستوطنين عشوائيين. أمّا الآن فكل قبائل "الغيكويو، والإمبو، والميرو" قد أخرجوا من وادي الأخدود الأفريقي العظيم. حدث المشهد نفسه في مراكز عديدة أخرى في وسط كينيا. مثل منفيو "أولي نغورويني" من قبلهم، نسي معظم أفراد الموجة الجديدة أصولهم السالفة، فهم خلَف أولئك الذين استوطنوا وادي الأخدود الأفريقي العظيم منذ زمن طويل. امتدّ التهجير الداخلي لأسابيع.

ما لم أعرفه آنذاك، أن جدتي التي تسكن "إلبورغن" قد هُجّرت أيضًا.

لقد نشأت وأنا أغار من الأطفال الذين لديهم جدّات يذهبون لزيارتهن أو يأتين أحيانًا لزيارتهم بهدايا من الموز الناضج والبطاطا الحلوة، والأهم، يهدينهم اللعب واللمسة الحانية. بالطبع لدي زوجات جدي وهن بمثابة جدات، ولدي جدات نظام قبيلة "الغيكويو" الممتدة، حيث تعد كل سنينة لجدة المرء جدة له أيضًا. لكن لم أستطع أن أذهب إليهن ببساطة، أو أبدأ اللعب معهن، أو أعوّل عليهن، أو أتوقّع أحضانهن أو تحبّبهن باعتباره حقي الطبيعي. حين يتحدث الأطفال الآخرون عن جداتهم، يشدد هذا شعوري بفقدٍ يخص جدي وجدتي لأبي، وجدتي لأمي الغائبة. حين تسنّت لي فرصة ركوب قطار للقائها، تصادمت الفرصة مع أحلامي بالمدرسة، فلم أحظ إلا بحكايات أخي الصغير عن الوقت الرائع الذي قضاه مع جدتي غاثوني. لذا رغم قلقي من غيمة حادثة وادي الأخدود الأفريقي العظيم، إلا أنني رأيت بطانة الغيمة الفضيّة كما يقول المثل الإنجليزي وقبلت بها: جاءت جدتي للبيت.

مهما يكن الأمر الذي تسبب في انفصال جدي وجدتي فهو لا يزال غضًا آنذاك، إذ مكثت في منزل جدي لوقت قصير بعد تهجيرها من "إلبورغن". ثم جاءت لتمكث معنا في بيتنا الجديد، حيث استطعت معرفتها ومراقبتها من كثب.

بدا وجهها متجهمًا لكن طيّاته تنفرد حين تبتسم، ولبعض الوقت

كانت معانقتها حلوة. لكن لا بد من الحذر، فذراعها اليسرى مرتخية حتى الكف، ميتة، لا تشعر بها. حين تجلس، تحملها تقريبًا بيدها اليمنى وتمسّد أصابعها الخاملة. نسألها: ما الذي حدث، جدّتي؟

لم تتعب قط من حكاية القصة. لقد كانت بخير قبل أن تستوطن "إلبورغن" بل بعد هذا أيضًا، وهي تعيش مع أخيها داودي غاتون وابنتها خالتي وانجيرو، شقيقة أمي الوحيدة، التي ماتت آنذاك وتركت ابنة كبيرة، بياتريس، وابنًا صغيرًا سُمّي نغوغي مثلي. ثم حدث الأمر فجأة، لم تستطع أن ترفع يدها. شعرت أن الحياة تغادر شقها الأيسر، كانت تشعر بالفعل أن الحياة تجف في عروقها. حملوها إلى المستشفى، لكن الأطباء رمموا بعض الوظائف جزئيًا. لم يستطيعوا الوصول إلى جذر الشر الذي أصابها، تقول لو أنها اعتمدت على المستشفى وحسب لماتت. لكن لحسن الحظ تمكن معالج تقليدي من التغلغل إلى جذر الشر مباشرة، فقد وضع شخص مؤذٍ قطعًا من الزجاج المكسور في جسدها، فأخرجها المعالج. رأيتها بعيني، تقول جدتي وهي تكاد تختنق بالذكرى. كومة من حطام الزجاج، تقول وهي ترفع يدها اليمنى قليلًا لتبيّن ارتفاع الكومة. قطع من قنّينة محطمة، تتخيّل هذا؟ فأقول لكن يا جدتي، شظايا زجاج في جسمكِ؟ فتقول نعم، وهي صلبة، بزوايا حادة، أخرَجها على مراحل. وكلما عدت إليه اكتشفت المزيد، مخفاة في هذا البدن. أوه يا صغيري، أراد قتلي ذلك الشرير. لو أنها التمست شكًا في ردة فعلي، لانزعجت حقًا.

أفترض اليوم أنها أصيبت بسكتة دماغيّة عابرة، لكن لم يكن لها عندنا اسم آنذاك، ولم يكن لدينا حقائق تناقض قصتها المذهلة. كلما رأيت حطام زجاج أفكر دائمًا بجدّتي وبلاءها. إذ لا بد أنها عاشت برعب أن الشرير سيهجم ثانية. لو أنها شكّت في المرأة الأخرى أو أي شخص قد دقّ بينها

وبين زوجها إسفين، باعتباره الشرير، فلم تكن لتقل فيمن تشكّ، رغم أنها أشارت إلى أن الزوجة الأصغر موكامي، قد جاءت من "إيمبو" أو "نديا"، أماكن بدت بعيدة على نحو مريب. لا شيء يمكن أن يدفعها لأخذ أي شيء، لا طعام ولا ماء حتى، من هذه المرأة الأخرى. كانت تتقلّب بين المرح والانزعاج بشكلٍ عام، حين تكون في مزاج مرح، تضحك، مبدية طقم أسنانها الأبيض السليم، فتصبح الجدّة التي أملت أن أحظى بها. لكنها كانت مستاءة غالبًا، كأن الجميع جزء من مؤامرة الشر التي تحيق بها، كأنهم مدينون لها بالعطف والخدمة والانتباه. كلما ازدادت عدوانيّتها تآكل رونق وجود الجدّة.

لجدتي سطوة هائلة على أمي. لم يبد أن شيئًا مما تفعله أمي بوسعه تهدئة جدتي أو تحسين مزاجها، وهو ما أجبر أمي لتكثّف جهود رعايتها، وتلبّي متطلباتها، تلك المنطوقة والمسكوت عنها. تتحدّث جدتي معنا بنبرة أليفة وهادئة تقريبًا، لكن حالما تُقبل ابنتها، تعود لا إراديًا إلى ذاتها الجريحة، فتتنهد وتلمّح بتعرّضها للإهمال أو تصدح بلوم جسدها إذ منعها من أن تقوم على شؤونها بنفسها. وهكذا تعاظم التوتّر في المنزل.

لتقليل الخلاف بين أمي وجدتي، بنى والس الطيّب كوخًا ثانيًا لجدتي في مكان منفصل، بجانب كوخ أمي، آملًا أن يمنحها هذا بعض الاستقلالية ويمنح أمي بعض السلام. لكن حتى في دارها الجديدة، توقّعت جدتي الخدمة الفورية من ابنتها، فبات الحال أسوأ. صارت جدتي تتذمر من الاهمال صراحة وباستمرار، ولم يكن هنالك ما يزيد من تذمّرها وتعبيرها عن استيائها غير ذكر اسم جدي. لكنهما لم يتلقيا كثيرًا، وحينما يلتقيان تحلق انتقادات لاذعة من فم جدتي فيبتعد عنها زوجها.

ثم حط ظلال الموت على منزل جدي.

يقع منزل كيموشو على الجهة الأخرى من مسكن جدي. كان في مرحلة

اللمسات الأخيرة لمنزل حجري جديد بجانب القديم ذي ألواح الخشب المسقوف بألواح معدنية مموّجة. جاء رجل أبيض، وهو ضابط بريطاني، مع عصابة ميليشيا أفريقية إلى منزل كيموشو ليلًا. اعتقدت زوجته أنه اعتقل مثلما اعتقل كينياتا وآخرون. لكن حين ذهبت هي وأقارب آخرين إلى مركز الشرطة كي يستفسروا عنه لم يتلقوا منهم خبرًا. اتضح ما حدث له بعد أيام. عرفوا أن كيموشو، ونجيراندي، وإليجاه كارانجا، وموانغي، ونيهمياه، وبعض الرجال البارزين في "ليمورو" قد أخذوا في الليلة نفسها وأعدمهم الضابط البريطاني فورًا في وادٍ صغير منعزل محفوف بالشجر في "كينيني"، على بعد ياردات من الطريق الذي بناه أولئك "البونو". فقد ندونغو ونجورغو أبناء كيموشو من زوجته الأولى وانغوي الآن والديهما الاثنين.

أصاب الفزع منطقتنا كلها، لكنه أصاب جدي على نحو أشدّ. فهو بمثابة أب بديل لكيموشو، وكانا مقربين من بعضهما. اقتنع جدّي أنه التالي، وأنهم "هم" سيأتون من أجله ليلًا. لاذ بكوخ أمي، فصار يتسلّل كل مساء، تحت غطاء الظلام، إلى منزلنا. رأيت هذا الرجل القوي، مالك الأرض القدير، الوصيّ على عشيرته، نعم، جدي الذي كتب الرسائل للحكومة، وهو في كوخنا، يتزلزل خوفًا من جناية الاستعمار، فكانت هذه الحادثة أول منبّه حقيقي لمجيء حالة الطوارئ. اضطر أن يستخدم مبولة في مهجعه كي لا يخرج. شعرت معه بإذلاله المؤلم إذ اضطر أن يستخدم مبولة في كوخ ابنته! لكنه استرخى بعد عدة أسابيع وعاد إلى مقرّه الطبيعي مع موكامي. لكنه مع هذا يقصد منزلنا في الليل من وقت لآخر.

على مرّ معاناته، قل تجهّم جدّتي، وازداد تعاطفها. عقدت بينهما هدنة غير معلنة. لكن بعد أن غادر ولم يحل شبح الموت الأبيض ثانية، عادت الحياة إلى طبيعتها في منزل أمي، وهذا يعني أيضًا عودة تجهّم جدتي، وخوف

أمي من أمها. اشتكت جدتي تهجيرها من "إلبورغن" قبل أن يكمل المعالج مهمته. فقطع الزجاج تلك التي لم يخرجها المعالج بعد لا تزال تؤلمها.

ثم جاء الأسبوع الذي تحوّلت جدتي فيه إلى جدّة طيبة وحنونة. كانت محبة ومسليّة، وقد رجوت أن تظل هكذا دائمًا. تمزح قليلًا، وتضحك برقّة. صار بوسع الناس الحديث عما يحلو لهم دون أن تذكر حطام الزجاج الذي زرعه فيها شرير مجهول.

كان اغتيال كيموشو الوحشي يُذكر في الأحاديث بشتى الطرق: ماذا سيحدث لثروته؟ هل ستهتم فيليس، أرملته، بالأملاك مع مراعاة مصالح الأطفال بالتساوي، أطفالها وأطفال زوجها؟ ثم يقود هذا إلى نقاش بشأن ندونغو، أكبر أبناء كيموشو الذي كان سنيني، ونجوروغ أخيه الأصغر. يوشك ندونغو على أن يصبح رجلًا، قالت أمي، ناقلة ما سمعته من جدة ندونغو، حينها سيرعى حصته من الثروة بنفسه.

استدارت جدتي لي: "وزوجي هنا؟ لا يمكن أن يظل وراءهم". تلقّبني بزوجها لأني سميت على جدي. ضحكت من حديث الانتقال من صبيّ إلى رجل. كنت منكبًّا على المدرسة وحسب، أمّا فكرة الختان فليست في ذهني. لكن لسبب ما لم تغلق المسألة، وبعد أيام فتحت جدتي الموضوع، مكررة أن ندونغو سنيني، ولا يمكن أن يصبح رجلًا ويخلّفني وراءه صبيًا. حاولت تشتيتها بسؤالها عن تفاصيل قصة إزالة حطام الزجاج من بدنها، هذا الموضوع قبل هذا كان حتمًا سيكون طعمًا، لكنني فوجئت من ردها اللطيف.

"لا أضمر للشرير ضغينة"، قالت، ثم واصلت سيل الأفكار ذاتها. "كما لم أتعمّد أن أؤذي أحدًا قط". كأني بسؤالي عن حالتها، قد حثثت فيها الغفران والإحسان. ظلّت تخبر أمي وتخبرنا جميعًا أنها لا تضمر سوءًا لأحد. كأنّما تؤكد حقيقة الأمر، بصقت قليلًا في كفيها وعلى صدرها في إشارة البركة

عند الغيكويو. خلدت إلى فراشها، ولم تستيقظ بعدها. لقد انتقلت بسلام إلى العالم الآخر. كشفت دموع أمي عن حزن وارتياح عميقين. في مساء الدفن تحلّقنا حول النار، فيما يتناوب الضوء والظل على وجوهنا.

"جدّتكم امرأة طيّبة، لكن المرض حوّلها إلى مناهضة المرح"، قالت أمي كأنها تحاول ملء الفراغ الذي نشعر به. أفتقدها حقًا، أفتقد الجدّة التي حظيت بها والجدّة التي كان من الممكن أن أحظى بها. "لم تضمر سوءًا لهذا البيت أو غيره"، واصلت أمي ببطء كأنما لتؤكد هذا لنفسها.

أدركت حينها أن أمي خافت طيلة الوقت، أن جدتي بنقمتها على الحياة، قد تخلف وراءها لعنة. لعنة الوالد، حتى لو لم يفصح عنها مباشرة، قد تحل نتيجة أي كلام سيئ قد قالوه في أيامهم الأخيرة على الأرض. قد تحل اللعنة أيضًا حين لا تحقق آمالهم التي عبروا عنها قبل رحيلهم. فالأمنية الأخيرة بمثابة أمر قطعي.

"جدتك قالت لا يمكن لندونغو أن يخلّفك صبيًا"، قالت أمي، وهي تستدير نحوي، قولًا لا يحتمل الاعتراض.

كان حظر مدارس "كارينغا" و"كيسا"، وبخاصة حظر كلية معلمي كينيا في "غيثنغوري"، تعديًا عمليًا ونفسيًا على المبادرة الأفريقيّة للاعتماد على النفس. دار الكثير في منظمتهم، نجا مبيو كوينانغ من الاعتقال مع كينياتا إذ صادف أنه في إنغلترا آنذاك، ممثلًا لاتحاد الأفريقيين الكينيين. كان العديدون من ذوي العلاقة بالكلية ضمن آلاف المعتقلين. لكن الضربة الأشد للرّوح الجمعية جاءت حين حولت الدولة الاستعمارية ساحات الكلية ومبانيها إلى معسكر أسرى تشنق فيه أنصار مقاومة الاستعمار.

كاد نغاندي ينتحب وهو ينقل الخبر. باتت مدرسته الأم الحبيبة مسلخًا للوطنيين، لكن التفاؤل الباطن فيه يعاود الظهور ويؤكد أن الرب لم ينجِّ مبيو عبثًا. سيعود. تتذكر؟ من أميركا أحضر "هامبتن" و"تسكيغي" مجتمعين، ومن إنغلترا سيجلب لنا "أكسفورد" و"كيمبرج". ستستعاد "غيثنغوري" بشكل أو بآخر.

أثّرت بي حقيقة حظر "مانغو"، وهي واحدة من مدارس "كارينغا"، تأثيرًا فوريًا ومباشرًا. حتى ذاك كان ثمة نظاما تعليم حديثان متنافسان ومتوازيان، أحدهما يتبع الحكومة والتبشير، والآخر نظام مدارس مستقلة يديرها الأفريقيون، وقد أمكنني الانتقال من أحدهما إلى الآخر. والآن؟ ليس ثمة خيار. لم أكن واثقًا حتى من أن "كامندورا" ستقبل عودتي.

لا أدري كم عشت مع الشك. لكن في العام التالي، أي في 1953، أُعلن أن عددًا من مدارس "كيسا" و"كارينغا" سيعاد فتحها تحت إدارة الحكومة. رفض بعض الأمناء التخلّي عن استقلاليتهم وبالتالي لم تفتح مدارسهم ثانية. لم يمنح العديد من الآخرين هذا الخيار. كانت "مانغو" من المدارس التي وافقت إدارتها على فتحها تحت إدارة تعليم ضاحية "كيامبو" بمباركة الحكومة. لذا سيقرّر المستعمرون المناهج.

ظهر التأثّر في الحال. ماتت الموسيقى والعروض في "مانغو" الجديدة. بات مهرجان الرياضة الداخلي خبرًا من الذاكرة، ومعه الفرقة الجوّالة. لم تعد المدرسة مركزًا للاحتفالات الاجتماعية المحلية. فقد بعض من المعلمين القدامى وظائفهم بمن فيهم فريد مبوغوا. واصل ستيفن ثيرو عمله مديرًا لحين وصول المدير المعين حديثًا من "كاغومو"، وهو متدرب من الكلية حظي بقبول الحكومة.

ثمة تغيير طفيف في توجّه مواد معينة، كالتاريخ والإنجليزية. في المدرسة القديمة، أخبرنا المعلمون عن ملوك أفريقيين مثل شاكا وسيشوايو. كما أخبرونا عن الغزو الأبيض وعن المستوطنات في جنوب أفريقيا وكينيا. لكن التركيز الآن بات على المستكشفين البيض مثل ليفينغستن، وستانلي، وريبمان، وكرابف. عرفنا نشأة التبشير المسيحي وفق اعتبارات إيجابيّة. درسنا أن البيض اكتشفوا جبل كينيا وعددًا من بحيراتنا، بما فيها بحيرة "فكتوريا". كانت كينيا في المدرسة القديمة بلد الرجل الأسود، أما في المدرسة الجديدة فقد صُوِّرت كينيا مثل جنوب أفريقيا، بوصفها ذات كثافة سكّانيّة ضئيلة قبل وصول البيض، لذا شغر البيض مناطقها غير المأهولة. أي أنهم فعلوا حينها ما فعلوا بمنطقة "تيغوني" في "ليمورو"، أخذوا أراضي الأفريقيين وعوّضوهم عنها. ثمة أيضًا مسألة حروب القبائل الأفريقيّة قبل البيض، وهكذا جلب البيض

الطب والتقدم والسلام. يتبع الأساتذة طبعًا المناهج التي أملتها الحكومة والتي سيختبر فيها الطلاب في نهاية المطاف.

بدأ مفتّش أوروبي، يدعى السيّد دوران أو قريبًا من هذا الاسم، جولاته على المدارس ليضمن التنفيذ. كانت زياراته مفاجئة في العادة، وينتظر حالما يدخل الفناء أن يجري الأساتذة إليه ويقفوا بانتباه طيلة حديثه معهم. يركن سيّارته أحيانًا على مبعدة ويقصد الفناء متسللًا. يدخل أحد الصفوف، يقف في الخلف، ويشاهد المعلم وهو يعقد الدرس، ثم يمشي للسّبورة، ويأخذ طبشورًا، فيشطب أي كلمة أملئت خطأً أو أي جملة بنحو خاطئ ثم يكتب الكلمات والجمل الصحيحة فوقها. يسود انزعاج عام فيما يحاول الأساتذة تلطيف الجوّ أو حتى التظاهر بالامتنان. في البدء كنا نسرّ بعض الشيء إذ نرى أحدًا يفعل للأساتذة ما يفعلون لنا، لكن ما إن بات الموضوع عادة حتى طفقنا نقاسم الأساتذة شعورهم بالإذلال. ربّما ضحكنا على هذا، وتحدثنا عنه فيما بيننا، لكننا فعلنا هذا لنخفي حرجنا.

لم ندرك سطوة شعورنا بالحرج حتى جاء جوزيفات كارانجا، وهو طالب من كلية جامعة "ماكريري" في أوغندا، للتدريس في المدرسة خلال إجازته الطويلة. كارانجا من "غيثنغوري"، المنطقة المجاورة. كان يرتدي بنطالًا رماديًا على نحو يبدي عنايته بالتفاصيل، وسترة فوق القميص الأبيض، وربطة عنق، ويفرق شعره من الجانب. في البدء كنا مسرورين لوجود طالب من "ماكيريري" باعتباره معلمًا، لكننا أملنا سريعًا أن نستغني عن خدماته. كان كثيرًا ما يستخدم العصا مع الطلاب الذين يرتكبون الأخطاء باستمرار وحتى مع أولئك الذين يرتكبونها أحيانًا.

قاد المفتش الأبيض سيّارته إلى المدرسة ذات يوم وتوقّف في الفناء مستندًا عليها كما يفعل عادة. ركض إليه بقية المعلمين، لكن كارانجا

لم يفعل. لا بد أن المفتش أرسل أحد المعلمين الآخرين إلى كارانجا ليأتي. شعرنا بدراما في طور الحدوث، وفيما غادر كارانجا الصفّ وقفنا على طاولاتنا واسترقنا النظر عبر النوافذ. كان المفتش يستشيط غضبًا، يومئ لكارانجا كي يجري. أردنا أن يؤدب كارانجا أمام أعيننا جميعًا. لكن كارانجا لم يغيّر سرعته. حتى حين صرخ المفتش قائلًا عجّل، رفض كارانجا أن يزيد من سرعته. وها هما يلتقيان وجهًا لوجه. أراد المفتش أن يدعوه كارانجا بالسيّد، لكن كارانجا رمقه ثم عاد إلى الصف. مدركًا أن العديد من العيون تراقبه، دار المسؤول لدقيقة أو تزيد ثم ركب سيّارته وغادر. لم نره بعدها ثانية.

عدنا إلى مقاعدنا، وحين دخل كارانجا وقفنا جميعًا من الإجلال هذه المرة لا من الخوف. كان بطلًا. لقد استعاد شيئًا فقدناه، الفخر بأساتذتنا، الفخر بأنفسنا. أملنا أن يعود ثانية لكنه لم يعد، فقد طُرد من "ماكريري" لأنه قاد إضرابا طلابيًا أو أسهم فيه. واصل دراسته في الهند ثم واصل إلى "برنستن"، في الولايات المتحدة الأميركيّة، وقد حقق لاحقًا نجاحًا هائلًا بوصفه أول مندوبٍ سامٍ كيني بعد الاستقلال في لندن. عاد أخيرًا وأصبح نائب رئيس مريعًا لجامعة نيروبي في فترة كينياتا ونائب رئيس لفترة قصيرة في عهد الدكتاتور موي. أتذكر دائمًا تلك اللحظة التي حدثت أثناء دراستي المرحلة الابتدائية في كينيا المستعمرة حين رفض الرضوخ للإذلال.

جاء بعدها مفتّش أفريقي، جيمس مويغاي، في الواقع هو أخ علّة لكينياتا، وقد كان ألطف. يعتمر خوذة ونظارة حماية، كان مثيرًا للإعجاب على دراجته النارية، وقد تفاخر بكونها من "بي إم سي"، أي مؤسسة "برمنغهام" للدراجات. مهما يكن عدد مرات زيارته، لم ينس قط قول إنه يركب دراجة من "بي إم سي". لا أظن أنه يخفي الحقيقة عامدًا، لكنه لم يذكر قط صلته بكينياتا كما لم يتحدث عما يحدث في البلد.

رغم أن دراسة الدين لم تكن متطلبًا في مدرسة "مانغو" القديمة، ورغم أنني لم أعتنق الأرثوذوكسيّة أو أي عقيدة مسيحية، إلا أنني افتقدت أداء كيهانغو في الآحاد، وقد انتهى بحظر الكنيسة الأرثوذوكسيّة الأفريقيّة. لم ترتبط أي كنيسة بمدرسة الحكومة، إنما حاولت بقية الكنائس أن توفر ملاذًا للأرواح التائهة.

بالطبع قصد بعض أولئك الذين اعتنقوا المعتقد الأرثوذوكسي كنائسَ أخرى. لكن بالنسبة للعديد من المؤمنين، فإن العودة لكنائس مرتبطة بالتبشير، مثل "كاماندورا"، بمثابة انتهاك حرمات. أما بالنسبة لغيرهم، فالكنيسة الكاثوليكيّة هي المكان الملائم. فهي لم تكن عدائية تجاه أتباع الأرثوذوكسيّة، ولم تجابه أصحاب الزواج التعددي أو من يريدون مزاوجة تقاليدهم بالمعتقد المسيحي. بالطبع، رفضت الكنيسة الكاثوليكيّة برمتها أن تأخذ موقفًا حازمًا في صراع ختان الإناث في عشرينيات القرن العشرين. كانت أكثر سماحة من غيرها في ما يخص معايير القبول فيها. كانت كنيسة "دير لوريتو ليمورو" من أقدم المؤسسات المسيحيّة في المنطقة. بدأ العديد من طلبة "مانغو" ينزحون إليها، إذ انتشرت شائعة تقول إن القبول فيها سهل. تسجّل لديهم هناك فتخرج من عندهم كاثوليكيًا! صدمنا لاحقًا حين عرفنا أن أخت ستيفن ثيرو، هيغارا غاكامبي، ابنة كيّا، الأب المؤسس لمدرسة "مانغو

كارينغا"، قد منحت مقعدًا في الثانوية واختارت أن تصبح راهبة.

قرّرنا، كينيث مبوغوا وأنا، أن نصبح كاثوليكيين. بدأت صداقتي مع كينيث ابن فريد مبوغوا، الذي قرأ قبل سنوات مقالتي بالغيكويو، بتقديم القدم الخطأ ذات يوم حين كنت لا أزال أعيش في منزل أبي. يمر الطريق من منزل أبي إلى المتاجر الهنديّة بالقرب من بيت كينيث. بدا كينيث أكبر من عمره، كما كان متنمرًا. اعتاد على إرعابنا، أخي الصغير وأنا، فهو يهددنا أحيانًا بمصادرة إطارات الدواليب التي ندحرجها بالعصي معتبرين أنها "سيارات". حين أخبرت أمي عن التهديد، تحدّثت لأمه، جوزفين، لكنه لم يكف عن مضايقتنا: بل ساءت الأمور. تكره أمي الخلافات، وهي أول من يوبخني إذا ما علمت أنني تسببت بشجار. لكنني حين اشتكيت على كينيث لأمي ثانية، قالت أتريد أن أشاجره نيابة عنك؟ أدركت أنني لن أجد مساعدة بعد منها، لكنني أدركت في الوقت نفسه أنها لن توبخني إن دافعت عن نفسي.

هددنا كينيث ذات يوم مجددًا وتوقع أن نفرّ هربًا، لكنني مسكت أرضي هذه المرة وتحدّيته أن يلمسني. تقدّم إلي، فانقضضت عليه وأنا غاضبٌ أحتدم غيظًا، سقط على الأرض وقد أخذته المفاجأة وأنا فوقه. ثم وعى سريعًا من الصدمة، صارع ليصبح اليد العليا بالاستدارة علي. لم يكن لدي أدنى شك في قوته التي تمكّنه من غلبتي لكنني مصمم على ألّا أسمح له. أخي الصغير، الذي كان قد فر، عاد آنذاك، ومعًا ثبتناه على الأرض. أعطيناه بضع لكمات، ثم هربنا فيما يطاردنا وهو يقسم بالثأر، لكن اليقين في صوته يتناقص. لم ينتقم لصفاقتنا السافرة. بل بدلًا من ذلك أصبحنا شيئًا فشيئا أصدقاء، خصوصًا بعد أن انتقلت من "كامندورا" إلى مدرسة "مانغو"، وبعد أن انتقلت من منزل أبي أيضًا. فبيتنا الجديد على بعد بضعة حقول من بيت كينيث. كان هذا درسي الأول في فضيلة المقاومة، فالحق

والعدالة يشجّعان الضعيف.

برزنا في الصف، كينيث وأنا، باعتبارنا متنافسين أكاديميًا، لكن الفجوة بيننا نحن الاثنين وبقية صفّنا كانت هائلة ممّا عزّز صداقتنا. لا أدري ما الذي جعلنا، كينيث وأنا، نقرّر أن نصبح كاثوليكيّين. كان والده آنذاك لا مبالٍ بمسائل الكنيسة، أما أمه فمتديّنة للغاية وقد ارتادت دائمًا كنيسة "كامندورا" حتى حين كان زوجها الركيزة الأكاديمية لمدرسة "مانغو" في مرحلة انتسابها لمدارس "كارينغا". عُمِّد كينيث في طفولته بينما لم أعمّد. لا أتذكر أننا تحدثنا بعمق عن الكاثوليكيّة، من الممكن أننا اتّبعنا صيحة وحسب. دون أن نخبر أو نستشير أحدًا، حدّدنا موعدنا لنسير إلى كنيسة "دير لوريتو ليمورو" ونعود منها وقد صرنا رومانيّين كاثوليكيّين.

حدثت إحدى المصادفات العصية على الشرح. في الطريق، بالقرب من سوق "ليمورو" الأفريقي، التقينا والدته. حين علمت جوزفين إلى أين نذهب ولماذا، فزعت. قالت بصرامة: من المستحيل أن نصبح كاثوليكيين. إن كان التعميد هو ما أريده، والتأكيد في حالة كينيث، فستأخذنا للّورد القس ستانلي كاهاهو لنسجّل في حلقات التعميد.

كنت حينها لا أزال أشعر بتضارب في علاقتي مع آل كاهاهو. غادرنا أرضهم لكن ما زلنا نذهب هناك للعمل. وقد أعطتنا ليليان كاهاهو ذات مرة، قائلة إنها تساعدنا، فدانًا إنغليزيًا لنجزّ أعشابه الضارة. بدا المال الذي عرضته وفيرًا نظرًا لعوزنا. كانت تبدو سخيّة حين تعطينا نصف الأجرة عربونًا، والبقية بعد إكمال المهمة. نستغرق شهورًا كي نحرز تقدمًا، ولم تكن الأجرةِ مكافئة للجهد الذي بذلناه ولا تقترب منه حتّى. كنا مقيدين، ليس بوسعنا التوقف عن العمل إذ لا نستطيع رد العربون. كما تكره أمي الدين، ولا نزال بحاجة هذا الدخل الضئيل. لن أعمل هناك ثانية، قلت لنفسي حين

أنهينا المهمة أخيرًا.

سرعان ما أجبرتني الحاجة ثانية على الانضمام لقوة العمل الموسمية لقطف حشيشة الحمّى. عديدون كنّا، أطفالًا وراشدين، من جهات القرية المختلفة. يتسلّق بعض الأطفال، جائعين وعطشى، سور بستان آل كاهاهو، ويقطفون البرقوق. لم أكن منهم، إذ ستقتلني أمي لو سرقت، وتعريفها للّصوصيّة فضفاض للغاية. اكتشفت ليليان السرقة ثم في المساء، حين كنّا نزن قطافنا، طلبت من الجناة تسليم أنفسهم أو من الأبرياء أن يشوا بهم. وافق مساء الجمعة، أي موعد أجرتنا الأسبوعيّة. كررت طلبها، فلم يسلم المذنبون أنفسهم، ولم يش بهم الأبرياء. ثم جاء الحكم: سنخسر جميعنا أجورنا ما لم نسلّم لها الجناة.

لم أصدق أذني. ألا تعلم كم نحن بحاجة هذا المال في البيت؟ لا، لا يمكنها أن تكون جادّة. إلا أنها جادّة. لا أحد، ولا حتى الراشدين بيننا، اعترض. جرحني هذا الظلم جرحًا عميقًا في نفسي. تقدّمت، وصدحت بصوتي، فالتفتت إليّ كل العيون! ألفيت نفسي أقول لها: لا يمكنك أن تفعلي هذا، فليس فعلًا صائبًا. بعد أن عادت من الصدمة. قالت ببرود: بلى، يجدر بي هذا، حتى يسلم الجناة أنفسهم. فسألتها: أتدعين نفسك مسيحيةً؟ فغرت كل الأفواه. فهي ليليان، زوجة اللورد القس ستانلي كاهاهو، مديرة المزرعة، التي لم يتحدها أيٌّ من عمّالها قبل هذا. فهي تشغّل وتطرد وفق مشيئتها. لكنني أدرك أن كل الحاضرين يدركون أنني على حق. مع هذا لم ينضم صوت آخر إليّ كي يبدي انزعاجه. "مسيحيّتكِ دون معنى". قلت لها وغادرت المشهد، فيما تتدفق دموع الغضب والإحباط على وجهي.

كان هذا الموقف أحدوثة القرية. قال بعضهم إن نغوغي، ابن وانجيكو الهادئ المعروف بسلوكه المؤدب وتوقيره للكبار، قال كلمات لا يجب أن

يقولها طفل لراشد. لكن آخرون قالوا إن ليليان تمادت: هل تعاقب المذنبين والأبرياء من أجل بضع برقوقات؟ كما ستحجب أجرة أسبوع كامل انتقامًا؟ اعترض الآباء. لم تدفع لي، لكن في خسارتي كسب الآخرون، وقد كان هذا درسي الثاني في فضيلة المقاومة. ذهبتُ لأمي كي تحتج على سلوكي، لكن أمي لم تستجب. أعرف أنها لا تتغاضى عن وقاحة صغير مع كبير، إلا أنها لم توبّخني. لن أعمل لدى آل كاهاهو بعد الآن، قلت لأمي، فوافقتني. فقدت الأجرة التي أحصل عليها بجهد، لكنني شعرت بأنني حر.

تحوم هذه الأفكار في ذهني منذ أن قالت والدة كينيث إنها ستأخذنا للقسّ كاهاهو بيدها. رغم إجحاف ليليان، ما زلت أقدّر دور القس كاهاهو في استعادة بصري. فأنا أميّز بين القس كاهاهو، الواعظ، وزوجته ليليان المديرة. إلى جانب أن والدة كينيث لن تأخذنا إلى منزله، بل إلى الكنيسة وحسب.

سلّمت وسجلت في جلسات تعميد القس كاهاهو. وهكذا بدأت صفوفي الدينيّة في "كاماندورا". كان لدي كتيّب التعاليم لأحفظه، تلاه اختبار، ثم بعد اجتيازه حري بالمرء أن يختار اسمًا مسيحيًا. كنت أقيّم اسم جيمس بول، اسمَي تعميد أطفال كاهاهو. قال القس كاهاهو إن اسمًا واحدًا يكفي. وهكذا، بطقوس التعميد المسيحيّة في الماء، أصبحت جيمس نغوغي، هذا الاسم الذي نشرت به بعد سنوات مقالاتي الصحفية ونصوصي الأدبية الأولى حتى 1969، حين عدت إلى نغوغي وا ثيونغو.

لقد أدركت السخرية في حالتي دائمًا. بعد هروبي من أن أكون رومانيًا كاثوليكيًا، انضممت إلى طائفة كنيسة أسكتلندا التبشيريّة فيما ألتحق في الوقت نفسه بمدرسة حكومية، وقبلها التحقت بمدرسة من مدارس "كارينغا" المرتبطة بالكنيسة الأفريقية الأرثوذكسيّة، والمحظورة حينها أيضًا.

آنذاك، حوّلت كنيسة أسكتلندا التبشيرية اسمها إلى كنيسة شرق أفريقيا المشيخية.

تماديت في السخرية: ففي الآحاد أقصد "كاماندورا" للعبادة والاجتماعات الدينية، وفي أيام الأسبوع أقصد "مانغو" من أجل حياة العقل.

لا يزال التركيز على الإنجليزية باعتبارها مفتاحًا للحداثة مستمرًا في "مانغو" الجديدة، غيّر أن الإنجليزية تضافرت مع الغيكويوية حينما كانت "مانغو" تابعة لمدارس "كارينغا"، أما في "مانغو" الجديدة فلم تعد الغيكويوية مقبولة. بدأت حينها عمليّة أشبه بملاحقة الساحرات لكل من يتحدث اللغات الأفريقية في الحرم المدرسي، وعواقب هذا الفعل تزيد حتى تصل للعقاب البدني في بعض الحالات. يعطي المعلم قطعة معدن للطالب الأول الذي يضبطه متحدثًا بلغة أفريقية، فيمررها المذنب للشخص التالي الذي يخرق القانون. يستمر هذا طيلة اليوم، وآخر من يؤول إليه المعدن سيُضرب. تنقش على المعدن أحيانًا مفردات أو عبارات مهينة مثل "**نادوني بالغبي**". رأيت معلمين يسيلون الدماء من الطلبة، رغم هذا افتخرنا بإتقاننا الإنجليزية وتُقننا لممارسة اللغة الجديدة خارج الحرم المدرسي.

جاءتني فرصة غير متوقعة. ضمن جهود وحدة المعلومات للفوز بأذهان الناس وقلوبهم، بدأت إصدار مجلّة، "**باموجا [معًا]**"، لتعليم التربية المدنية ونشر الأخبار الطيبة عن خدمات الحكومة. كان كينيث أول واحد كاتَب قسم المعلومات، في نيروبي، ليسأل عن المجلة. تلقى ردًّا رسميًا في ظرف عليه طابع يبدو رسميًا. الردّ في بضعة أسطر، يشكره على استفساره ويقول إنهم سيرسلون إليه نسخة من المجلة. كان أمرًا مذهلًا. كتب بخطّه رسالة

بالإنجليزية وتلقى رسالة مرقونة تشكره؟ وموقعة أيضًا بعبارة "خادمك المخلص"؟ بعد بضعة أيام تلقّى المجلة. سألت كينيث أن يريني كيف فعلها، أي يريني الرسالة التي كتبها والعنوان وكل شيء. كتبت رسالة مماثلة، تقريبًا مفردة إثر مفردة، وأرسلتها باسمي، وتلقّيت الرد نفسه يخاطبني بعبارة "السيّد العزيز" وموقعة بعبارة "خادمك المخلص"، وسرعان ما صرت أيضًا متلقيًا فخورًا للمجلة، التي طبع عليها: جيمس نغوغي، من مدرسة "مانغو"، صندوق بريدي (66)، "ليمورو".

رغم أنها مطابقة لما تلقّاه كينيث والطلبة الآخرون، غير أن الرد واسمي المكتوب على المجلة قد أبهجاني. ظللت أحدق فيها. جلبتها معي إلى المنزل، لأمي، وأعلنت فخورًا أن الحكومة قد كتبت رسالة لي. في السابق، كان جدي وحده الذي رأيت لديه رسائلَ من الحكومة. ولِم تكتب لك الحكومة؟ سألتني بارتياب. شرحت لها أنني من بدأ المكاتبة، بالإنجليزية، قلت كي أبهرها.

أعجوبة مفرداتي "أنا" الإنجليزية التي اجتذبت ردًا مكتوبًا أعادتني إلى مراتٍ جرّبنا فيها، أخي الصغير وأنا، معرفتنا ببضع كلمات من لغة أخرى على المتحدثين الأصليين. حدث هذا في منزل أبي.

تصبح أمي كريمة في الإطعام حين يكون المحصول جيدًا أو متى ما كان في صومعة غلالها ذرة، أو بطاطس، أو فاصوليا أو بازلاء. فهي تطهو ما يكفي للحاضرين وللضيوف غير المتوقعين أيضًا. أتذكر المرات التي تقف فيها بائعات قبيلة "كامبا" الجوّالات، الغريبات كليًا، لدينا فتستبقيهن طيلة الليل وتطعمهن بأفضل ما لديها. لا يخبر إخوتي وأخواتي الكبار من سيجلبون إلى المنزل قط. إن جاء ضيف وغادر دون أن تضيفه قدح عصيدة على الأقل، ستشعر أمي بالاستياء، كأنها فشلت في شيء. بعض الزوار المعتادين، الذين يزورون مع والس الطيب غالبًا، هم عمّال في مصنع أحذية "باتا ليمورو". كانوا

من مختلف المجتمعات الكينيّة ومنهم تعلّمنا بضع كلمات وعبارات بسيطة، معظمها للتحايا. من أحد أفراد قبيلة "اللوو" تعلّمنا أن نسأل: "Idhi nade?- كيف الحال؟" ومن فرد من "الكامبا": "Nata? Wĩ mũseo?- كيف حالك؟ هل أنت بخير؟" ومن قبيلة "اللوهيا": "Mrembe - مرحبا" لكن كيف لنا أن نتأكد من معرفتنا بالكلمات؟ أو إن كانت من شفاهنا نحن قد تتلقى ردًا من متحدث باللغة غير أولئك الذين علمونا العبارات؟

كانت قطعة من الأراضي التي امتلكتها أمي قريبة من الطريق الذي يصل من مخيم سكن عمال مصنع أحذية "باتا"، عبر السوق الأفريقي، مقابل متجر "كارابو"، إلى المتاجر الهندية. كنا نعمل فيها، ونساعد أمي في فرش المهاد والحرث. ثمة ازدحام بشري دائم بين مركز التسوق الهندي والمتاجر الأفريقية. قررنا أن الوقت قد حان لنختبر معرفتنا باللغات التي تعلمناها. لكننا واجهنا مشكلة في معرفة مَن مِن العابرين فرد من "الكامابا" ومَن مِن "اللوهيا" ومَن مِن "اللوو". انتظرنا بالقرب من الطريق مختبئين وراء قصب الذرة، راقبنا وأنصتنا لمن لا يتحدثون بالغيكويو. كنا محظوظين في محاولتنا الأولى. خمّنا تخمينًا صائبًا بأنهم مجموعة عمال من "اللوو". انبثقنا بغتة من خلف الذرة. "Idhi nade? - كيف الحال؟" أجابت المجموعة التي فزّت بقول مثل "Adhi ma ber- – أنا بخير". لم يكن لدينا حصيلة كافية لنستمر. "Ero kamano - على الرحب والسعة". قلت، وأخي، "Ahero – لقد أعجبني"، فيما اندفعنا عائدين لحقول الذرة، سعيدين بأننا فُهمنا، لكن لم نرد أيضًا أن نختبر معرفتنا أكثر. فعلنا المثل للغة "الكامبا" و"اللوهيا". نفشل في التواصل أحيانًا، لكننا نشعر بنفس المتعة كلما عدنا للاحتجاب وراء قصب الذرة.

كان ذلك اتصالًا لفظيًا، أما الآن فأكتب الإنجليزية وأحس بشعور مشابه، وقد عرفت أنني مفهوم لدى قارئ غير معروف كتب لي أيضًا ردًا

على كلماتي الإنجليزية رغم أنني نسختها من كينيث. شعرت بنشوة مماثلة بعد سنوات عند قبول أول كتاباتي في مجلة المدرسة وعند رد الناشر المشجع على مسوّدة كتابي.

ثمة تبعات غير مرئية لتلك الرسالة الموقّعة بعبارة "خادمك المخلص". وقد منحتهم اسمي وعنواني، واصلت استقبال منشورات حكوميّة عديدة أخرى ولم يقتصر الأمر على نشرة المعلومات هذه بالذات، منشورات بالإنجليزية. باستثناء "**Mũmenyereri**" وبقيّة المنشورات باللغات الأفريقية، فإن البديل الوحيد لراديو الحكومة والصحف الإنجليزية هو الإعلام الصوتي.

غالبًا ما تقدم الأخبار الشفهية بلغة الغيكويو والشهادات المكتوبة بالإنجليزية رؤى متضاربة للأحداث نفسها، الأمر الذي أجده مشوشًا أحيانًا. لم آبه بالتعارض في البدء، فالقدرة على قراءة منشورات بالإنجليزية أهم من استخلاص المعلومات، تفوّقت الوسيلة على الرسالة. ثم تلقيت يومًا ورقة عريضة بعنوان "مجزرة لاري" ولم أستطع بعدها تجاهل مسألة الرسالة.

منطقة "لاري" مجاورة لبلدة "ليمورو"، على بعد اثني عشر ميلًا. في آذار 1953، قتل رئيس "لاري" الاستعماري، لوكا وا كاهانغارا، مع بعض أفراد أسرته. تحمل الصفحة صورًا شنيعة لجثث آدمية، وجثث أبقار تتعفن في الحقول المكشوفة. تحمل أيضًا صورة الحاكم بارنغ ووزير الاستعمار البريطاني أوليفر ليتلتُن وهما يزوران مسرح الحدث. الصور أصدح من المفردات التي ترافقها، لقد أزعجتني للغاية، بسبب انعدام الشعور الطاغي عليها. تشي الصور، بترتيبها، بسلوك معتوه، تصرف دون داعٍ أو منطق.

أريت النشرة لمزي نغاندي حين جاء زائرًا مع أخي الكبير. قال إن هذا سيئ، سيئ للغاية. نظر إليها، وقرأ قليلًا. قرأ بانهماكه المعهود. لكن

لم يصفّر هذه المرة بينه وبين نفسه كما يفعل غالبًا. أخرج نسخة من "East African Standard" إذ بعد حظر "Mũmenyereri" احتلت هذه الصحيفة الناطقة بالإنجليزية مكانها في جيوب معطفه الخارجيّة. قال تجد الأمر نفسه في صحيفة الاستيطان هذه، نفس العناوين، والصور، والقصة. لكل حدث أكثر من جانب، ما تراه وتقرأه هنا هي رؤية الاستعمار. ليس لمقاتلي الحرية صحيفة ولا إذاعة لينطقوا برؤيتهم. لذا لا تصدّق كل ما تقرأ في هذه المستندات. هذه "بروباغاندا".

كانت المفردة جديدة بالنسبة لي. لكن انظر لهذه، قلت، مشيرًا لصور الموتى، كأنني أقول لا يوجد وجهان لما أراه أمامي.

آنذاك كان ثمة مستمعون يتحلّقون حوله، كوّنوا ذلك الجو الذي ينتعش فيه. وجود قتلى في "لاري" صحيح. لكن تذكّر هذا: المقاتلون خاضعون لأوامر صارمة من المارشال ديدان كيماثي بألا يقتلوا قتلًا عشوائيًا. لا يمكن أن تنجو الحركة دون دعم الناس. لذا لِم سيقتلون قتلًا عشوائيًا؟ جذور المأساة، شرح، تعود إلى الاحتلال الأوروبي لأرضنا، تلك الأجزاء التي جعلوها المرتفعات البيضاء. لكن انظر إلى "لاري" في الحرب العالمية الأولى. تذكرت حينها قصة تجنّب والدي للحرب. لكن ما علاقة مذبحة "لاري" في 1953 مع الصراع الإنغليزي الألماني في 1914-1918؟

تحدث عن استيلاء الإنغليز على ما تبقى من الأراضي ذات الملكيّة الأفريقية في "تيغوني" أو "كانياوا"، ضمن مخطط مستوطنة الجند بعد الحرب العالمية الأولى. هل ترى الإجحاف؟ يذهب الجند الإنغليز إلى الحرب ويكافؤون بأراضي الأفريقيين. يذهب الأفريقيون لنفس الحرب مقاتلين وعتّالين فيكافؤون بسرقة أراضيهم. حدث المثل خلال الحرب العالمية الثانية. كانت الوظائف بانتظار الجند الأوروبيين العائدين، أما ما ينتظر

المقاتلين الأفريقيين فالعطالة. يحدث المثل الآن مع "كانياوا". رفضت العوائل الأفريقية المتضررة مستوطنات بديلة. كما ترى، بعد إعلان "ديفونشاير" في 1923، باتت كينيا بلد الرجل الأسود، أي في الصراع بين الأفريقيين والأعراق الأخرى، تهيمن حقوق الأفريقيين. عرفت العائلات أن حقوق الورث، والقانون، والعدالة في صفها. أقسموا على الوقوف معًا أو السقوط معًا. لكن لوكا كاهانغارا المتحدث باسمهم شق الصفَ في 1927، فوافق على الانتقال إلى أرض بديلة في "لاري". أعطى البريطانيين غطاءً قانونيًا للسرقة. فأولئك الذين صمدوا أجلوا قسرًا، حين أُحرقت منازلهم. فقدوا أراضيهم وبيوتهم. انتقل البعض إلى "ندييا" وأماكن أخرى. أحداث القتل في "لاري"، رغم أنها بدت سيئة، غير أنها ليست سلوكًا مجنونًا. أُحرق منزل القائد لوكا إضافة إلى منازل أتباعه بالطريقة التي أحرقت بها الشرطة الاستعماريّة منازل سكان "تيغوني" أهل الحق. لا أحب العدالة القائمة على مبدأ السن بالسن. لكن انظر لها على هذا النحو: فيما استهدف "الماو ماو" الرئيس، وعائلته، وأتباعهم، تصرّفت القوات الاستعماريّة كأن كل حيّ آخر مذنب في هذه المقتلة. إنهم يعدمون النّاس ويتركون جثثهم في الأراضي أو الغابات لتتعفّن.

قصّ نغاندي قصة رجل من "لاري"، واحد من عديدين ربطوا معًا بحبل وأوقفوا في طابور. أمر ضابط بريطاني عسكره الأفريقيين بإطلاق النار. حين ترددوا، أطلق هو النار، برشّاش. سقط الأسرى وقد شكلوا كومة. ليتيقّن من موتهم جميعًا، أطلق رشّة أخرى من الرصاص على الصرعى، ثم مضى هو ورجاله. لكن رجلًا واحدًا لم يمت، حتى لم تمسسه رصاصة. حين جاء القرويّون في الصباح ليروا الجثث، رفع الرجل رأسه. في البدء ارتدوا لمسافة، ظانّين أنه شبح. لكنهم أنصتوا لصرخته الواهنة طالبًا المساعدة. جاء الرجل لمتاجر "ليمورو". سأريك إيّاه، أكد لي نغاندي، وواصل بقوله: لكنه فقد قدرته على الكلام، كان

أوفرهم حظًا. ثمة مئات من الآخرين لم ينجوا، ذبحتهم القوات الاستعماريّة في تلك الليلة والأيام التالية. ثم اتهموا عصابة "الماو ماو" بارتكاب المذبحة. لِم؟ ليشوّهوا صورة المقاتلين. كما أرادوا أن يصرفوا أعين العالم عن الأمر الذي يوقد غضبهم. في ليلة الهجوم على مساكن لوكا في "لاري"، وقع مركز شرطة "نايفاشا" في يد مقاتلي الحريّة. حرر المقاتلون المساجين، اقتحموا مستودع الأسلحة وصادروا العديد من البندقيّات والذخيرة. هل تجد القصة منشورة في الصحافة؟ أتجدها في الإصدارات التي يرسلونها إليك؟ هل تذكر مبورو ماتيمو المقدم في المذياع؟ لن تسمع صوته ثانية. لقد فُصل لأنه ذكر أن مقاتلي الحريّة سيطروا على "نايفاشا". وهو الآن في معسكر اعتقال مثل آلاف الآخرين. مجزرة "لاري" مجزرة حقًا، لكنها أيضًا مجزرة بريطانية على سبيل الثأر لمقتل قائد موالٍ لهم ولسقوط مركز شرطة "نايفاشا"، أكد نغاندي جازمًا.

تلت مقتلة "لاري" وسقوط مركز شرطة "نايفاشا" عدة إجراءات حكومية أخرى جعلت حالة الطوارئ تترك أثرها على الحياة المعتادة خارج المدن الرئيسيّة. وقد شكّلت الدولة الاستعمارية سلفًا قوة جديدة تضمّ الموالين من الشعب وأسمتهم "حماة الوطن". وجنّدت العديدين آنذاك للانضمام إلى هذه القوة. باتت هذه القوة تدريجيًا واحدة من أشد أدوات الإرهاب الاستعماري وحشيّة. كان مركز سلطتهم المحلي المرئي في منطقتنا هو مخفر حماة الوطن المبني أعلى النتوء الجبلي في "كاميريثو". الميزة الأبرز للمخفر، الذي كان قلعة في الواقع، هي برج مراقبة طويل، يحرسه رجال مسلحون ليلًا ونهارًا. يحيط بالقلعة خندق جاف غرزت فيه حسائك خشبيّة كي تخترق كل من يسقط فيها اختراقًا قاتلًا. عزّز حبل شائك سميك وظيفة الخندق أيضًا. السبيل الوحيد من القلعة وإليها هو جسر متحرّك، يرفع ليلًا ويمدّ نهارًا. ينام حماة الوطن داخل المخيم. شُغِّل بصفته مقر أوامر عسكريّة، وحرم عسكري،

وسجن، وهكذا كان مقر حماة الوطن مخدع رعب.

استبدل الزعماء الكبار مثل نجيريري وا موكوما والقادة المحليين مثل أخيه كيمونيا، من يُعتبرون طيبين مع الناس، بآخرين شرسين موالين للدولة الاستعماريّة وشديدي العدائيّة تجاه المقاتلين الوطنيين والشعب. القائد راغاي، أحد أسوأهم سمعة إذ فاق الآخرين في الوحشية، خصوصًا تجاه أولئك الذين هُجِّروا من وادي الأخدود الأفريقي العظيم. ما الذي يمكن أن يحوّل إنسانًا فيصير بكل هذه القسوة تجاه شعبه؟ لطالما تساءلت في ما يخص هذا الرجل الذي يمشي ببندقية معلقة على كتفه وحراس مسلّحين. تتبّعه المقاتلون ذات يوم فيما خرج متبخترًا من سوق "ليمورو" باتجاه مخفر حماة الوطن وأطلقوا عليه النار، بجانب الطريق. تركوه للموت، لكنه نجا. لاحقًا، وقد تخفّوا بزي أطباء، دخلوا المستشفى التي ذُكر أنه فيها وأجهزوا عليه. لم يحزن أحدٌ على راغاي. بل احتفى الناس بمقتله على الملأ.

إحدى مهمات الزعيم، وقائد القرية، وحماة الوطن هي تعزيز العمل المجتمعي والحضور القسري في "البارازا"، وهي لقاءات حكومية في أيام معينة من الأسبوع. خلال "بارازا" القائد ومهمات العمل المجتمعي -مثل جز العشب، وحفر المدرّجات، وكنس الشوارع، أي شيء يشبع نزوات القائد- لا بد أن تغلق كل المتاجر، كما لا يسمح لأحد بالعمل في أرضه. حتى أطفال المدارس كانوا يُجرّون أحيانًا للاجتماعات. يُعتقل المتغيّبون عن العمل المجتمعي والاجتماعات الحكومية ويوقفون في مخفر حماة الوطن لأيام. قاطع كلا النشاطين القسريين الإنتاج وساهما في مجاعة الشعب وإضعافه.

أُجبرت مرة على حضور "بارازا" القائد، حيث قضى الوقت وهو يعظ بفضائل طاعة الدولة ويستفز مستمعيه قائلًا: "كينياتاكم هذا لن يخرج حرًا من محكمة "كاپنغوريا"، بل سيُشنق في "غيثنغوري".

أصبحت محاكمة جومو كينياتا بالنسبة لي عرضًا شفويًا مهمًّا برواية مزي نغاندي وإخراجه، بطمأنينة وموثوقية شهادة العيان. افترضت سلفًا أن نغاندي مثل بعض جمهوره، لا بد أن يقرأ بين سطور صحف المستوطنين ومذياع الحكومة. لكنه أثرى ما استقاه من هنا وهناك بتأويل إبداعي غزير. كان سرده متأثرًا بقناعته أن كينياتا سينتصر. ساعد هذا مستمعيه ليتجاهلوا طوعًا كل التكذيب أكثر من أي شيء آخر.

لم يذهب نغاندي إلى "كاپنغوريا" قط، ولا أي جزء من "توركانا"، لكنه بدأ حديثًا عن المكان: توجد بضعة متاجر، وطريق ضيّق ترابي، كما يوجد مقر مدرسة متداعٍ حُوِّل إلى محكمة في أرض قاحلة ذات عشب مقزّم، وصبّار، وشجرٍ ذات أشواك هنا وهناك، ورعاة بمعزهم وأبقارهم، الذين حين التفتوا فجأة رأوا سيّارات، وشرطة مسلّحة، يأتون ويذهبون كل يوم لأسابيع وأشهر.

قدّم طاقمًا من ممثلين عالميين ومحليين. يقود الطاقم شخص غائب عن محكمة القاضي رانسلي ثاكر: مبيو كوينانغ، ممثل "الكي إيه يو"، وهو حرّ في إنغلترا، وقد تبيّن أنه العبقري وراء الطاقم محامي الدفاع الهائل، الذين يقودهم دون شك أصدقاؤه القدامى مثل فنر بروكوي وآخرين من حزب العمال. ماذا تتوقعون؟ سأل نغاندي مستمعيه على نحو خطابي. العقل الذي نظّم مرة إنشاء كلية معلمي كينيا في "غيثنغوري"، وقد جلب أشخاصًا مختلفين وراء همّ

مشترك، ها هو يعيد الكرّة مرة أخرى.

يتبعهم دي. إن. بريت، النائب العام قائدًا للدفاع، وهو ليس محاميًا عاديًا، فهو "QC"، أي مستشار الملكة، ما يعني أنه ينصح رأس الإمبراطوريّة البريطانيّة، وضّح نغاندي، ملمّحًا بوضوح إلى أن الملكة قد لا تكون مسرورة من تصرف الحاكم بارنغ المتسرّع باعتقال كينياتا. فكينيا دولتها المفضّلة، أكّد هذا، مذكّرًا مستمعيه على الفور بأنها تحوّلت من أميرة إلى ملكة فيما كانت تقضي شهر العسل في نزل "تريتوبز لودج"، قرب "نييري". أترون؟ في السادس من شباط لعام 1952، عرفت أنها أصبحت ملكة وهي على التراب الكيني، في تشرين الأول من 1952 سمعت أن رئيس مجلس الوزراء تشرتشل وممثلها هنا، الحاكم بارنغ، اعتقلا كينياتا.

جاء أعضاء آخرون في فريق الدفاع من مختلف مناطق إمبراطوريّة الملكة، بمن فيهم ددلي ثومبسن من جامايكا وإتش. أو، ديفيس من نيجيريا. أما غيرهم من مختلف أركان العالم قد منعوا من الدخول في المطار أثناء محاولتهم للانضمام إلى المحامين الثلاثة المحليين وهم فتز دي سوزا، جاسوانت سينغ، وإي. كاپيلا. كاپيلا الثاني بعد دي. إن. بريت في العبقرية. لو أن كاپيلا عاش في إنغلترا، لأنضم منذ وقت طويل إلى فريق مستشاري الملكة السري. أما جواهرلال نيهرو نفسه، رئيس وزراء الهند، فقد أرسل المحامي تشامان لال، وهو عضو البرلمان، لينضم إلى الفريق.

حقيقة أن رئيس مجلس الوزراء الهندي قد أرسل محامين كانت إسهامًا ذا قيمة في وثوقية نغاندي من النصر. استعمر البريطانيون الهند لمئات السنين. كما طالب الشعب الهندي باستقلاله بقيادة مهاتما غاندي ونيهرو. تمامًا مثل ما يفعل شعبنا اليوم بقيادة جومو كينياتا ومبيو كوينانغ. وانظر لقائدهم، وصف بنية المهاتما غاندي الهزيلة، وهو يرتدي مئزرًا يسمونه "دوتي"، ويصف

كيف أحبّه كل الهنود من حول العالم وعلقوا صورته على جدران متاجرهم. مهاتما غاندي؟ قائدهم؟ ومئزر؟ هذه هي الصورة عينها التي عهدت رؤيتها معلّقة على جدران متاجر "ليمورو" الهنديّة. لقد صدّقت أنه أحد الآلهة الهنود لأن أمي أخبرتني بهذا ذات مرة.

نالوا استقلالهم في 1947، واصل نغاندي منطقه التفاؤلي المعدي. ليس ثمة سبب يمنعنا من الاستقلال في 1957. حارب غاندي البريطانيين بالحقيقة، كما سيردي كينياتا الإمبراطورية البريطانية صريعة بدعوته للعدالة، فالهند قد فتحت الطريق.

قصّ علينا نغاندي قصة العلاقة الطويلة بين الهند وكينيا، التي بدأت قبل سكة الحديد وقبل سلسلة البلدات المحاذية للطريق بوقت طويل. قبل أن يتوافد الأوروبيون إلى شرق أفريقيا، كان ثمة تجار هنود في "مومباسا" و"ماليندي" سلفًا. بل الملّاح الذي دلّ ذلك الوغد فاسكو دا غاما على الطريق إلى الهند عبر المحيط كان هنديًا مقيمًا على الساحل الكيني.

استغل الفرصة ليتحدث بخير عن المساهمة الهندية في الصراع الكيني ضد الأصوات المرجفة من مستمعيه إذ لم يروا أيًا من هنود "ليمورو" منخرطًا في الشأن العام أو مجبرًا على حضور "بارازا" القائد أو مشاركًا في العمل المجتمعي. من الغريب أن مستمعيه قد قبلوا بسرور في وقت سابق قصة مخان سينغ بصفته نبيًا ولا يزالون برغم هذا متشكّكين في الدور الهندي الآن. واصل نغاندي بجهد مضنٍ وأشار إلى حالاتٍ عملت فيها منظمات هندية وأفراد هنود مع الأفريقيين في مختلف مراحل الصراع الكيني، متضمنًا تزويدهم بمساحات مكتبية ووسائل طباعة الصحف والمجلات الناطقة بالأفريقية. ذكر تحالف مانيلال أمبلال ديساي مع هاري ثوكو في عشرينيات القرن العشرين وإعلان غاندي عن تضامنه مع ثوكو المعتقل.

ربّما قد علم نغاندي أن الأدلة الوثائقية في صفه وربّما لا. لكن حين اعتقل قائد العمّال واحتجز في "كيسمايو"، التي كانت حينها جزءًا من كينيا، كتب غاندي بنفسه في صحيفة "Young India" أن ثوكو ضحية من ضحايا "شهوة السلطة"، وأنه لو حدث لثوكو أن "يرى هذه السطور يومًا، سيجد مواساة في فكرة أن في الهند البعيدة حتى، سيقرأ النّاس قصة نفيه ومحاكمته بتعاطف".[24]

أكّد نغاندي أن كل إضراب عمالي منذ إضرابات هاري ثوكو وحتى إضرابات 1947 التي انتشرت حتّى وصلت مصنع "بيكن أيلاندز" ومصنع أحذية "باتا ليمورو" قد حظيت بدعم هندي.

لدي معرفة شخصية ببعض المضربين، وهو أحد عمال "باتا" يدعى كياري، الذي اعتاد القدوم إلى منزل أمي، وانتهى به الأمر إلى الزواج من أختي الكبرى، غاثوني، فاصطحبها لسكنه في "كيامبا" بالقرب من منزل كوينانغ. بعد أن فقد وظيفته، عاد إلى "كيامبا" ليزرع ويتذمر من "بويريّ باتا". كل رجل أبيض كان "بويري"[25] عند صهري.

لم يكن كل الهنود من "ليمورو"، قال نغاندي، ذاكرًا آخرين مثل غاما بينتو، وقد انتهى بذكر آيدا داس، الذي رافق مبيو إلى إنغلترا. والآن ترى الجهد الجميل الذي يقوم به مبيو حاشدًا هذا الحشد الهائل دعمًا للمحاكمة من الخارج.

---

24 (Young India, December 18, 1924. Reprinted in Collected Works of Mahatma Gandhi vol. 25, p. 398, http://www.anc.org.za/ancdocs/history /people/gandhi/anil.htm). (المؤلف).

25 البوير (Boers) جماعة من المسيحيين الهولنديين الذين استولوا على مناطق متفرّقة من قارّة أفريقيا. م.

أصبحت محاكمة جومو كينياتا من شفاه نغاندي جغرافيا، وتاريخ، وسياسة، وحقوق مدنية، وفوق كل هذا خرافة. في سرديّته، باتت الأماكن المذكورة في المحاكمة -مانشستر، موسكو، الدنمارك- مثل خلفية مسرح قماشية في مستعمرة هائلة متخيّلة حيث يدعو نغاندي ساكنيها للمشاركة، أحيانًا باحتفاء وأحيانًا بسخط. فهو راوٍ ينحاز لجهات في الصراع بين شخصياته. ليس لديه غير الاحتقار لثاكر، المستوطن العجوز، ذاك الذي استعادوه من مكب قمامة المتقاعدين ليجلس في صف المستوطن ويحاكم الوطنيين. وقد حدد رأيه سلفًا، لم يتظاهر ثاكر حتى بالاستماع إلى الأدلة: بدلًا من هذا ظل يلعب بنظارته، ثم يومئ برأسه، ينهض بعدها من وقت لآخر كي يقول "لا" لتحركات الدفاع، و"نعم" لمؤيدي الادعاء. تجادل نغاندي مع أنثوني سومرهو، المدعي العام، وشهوده بمن فيهم مترجم المحكمة لويس ليكي، الذي أجّج غضبه الخالص. نشأ لويس ليكي بيننا، فهو ابن كانون ليكي، بل صادَق عائلة كوينانغ. كان مبيو إشبين زفافه من ماري. هذا الجاسوس، تعلم لغة الغيكويو كي يبلّغ علينا من الداخل. لذا كان يُسمى كارويغي، أي "صقر". هو في الواقع بمثابة حصان طروادة.

كنت أكاد لا أعرف شيئًا عن الأحصنة، بالأخص الأحصنة من نوع طروادة، فأخذ نغاندي يشرح لبعض الوقت. كنت أحد أكثر مستمعيه تيقظًا، فهو يتوسع إذا ما كنت حاضرًا في الحشد. يطعّم الحديث بالمزيد من المفردات والعبارات الإنجليزية في حضوري، والفهم الذي يبدو عليّ لما يقوله يعمل بصفته تأكيدًا على معرفته بالنسبة الآخرين.

كان سخطه الحقيقي موجهًا في معظمه لشهود الادعاء الإفريقي مثل روسن ماكاريا وغيكيريري. ينعتهم بالخونة، يزعجه أنه هو وبعض أولئك الشهود تنفسوا نفس هواء "ليمورو"، يبرّد غضبه من وقت لآخر بقوله: ربّاه

سامحهم إذا لا يدركون ما يفعلون.

تداخل ذكر غيكيريري مع بعد خرافي تتحرك فيه الشخصيات. لقد رأيته في "ليمورو". يعرفه الجميع، بل هو صديق كيموشو الذي اغتيل. إحدى بناته، وانجيكو، درست معي في نفس المدرسة وهي لطيفة ومطواعة للغاية، ولم تبد كابنة الغول الذي انبثق من سرد نغاندي. ما زلت كلما فكرت في غيكيريري، أرتجف قليلًا: لا أفهم كيف يقبل أي أفريقي أن يشهد ضد شعبه، خصوصًا في هذه الحالة، وواحد من معتقلي "كاپنغوريا" الستة (كونغو كارومبا)، قادم من "نديبيا" في "ليمورو".

تمثيل نغاندي للأشياء المرئية والخفية في مواقع مختلفة، تكرّر لأيام، ساعد في تبديل غمامة اليأس بالتماعة الأمل. بالنظر من كل زاوية ممكنة، بدا إطلاق سراح كينياتا مرجحًا. كما جاء وقت شاركتهُ فيه هذه الثقة: كينياتا ومعتقلو "كاپنغوريا" الستة، كما نعتهم فريق الدفاع، لا بد أن ينتصروا.

لذا حين اتّضح في الثامن من نيسان من عام 1963، أن كينياتا والآخرين قد أدينوا وحكموا بما يصل إلى سبع سنوات من العمل الشاق، انفطر قلبي. ما الخطب؟ كيف سمحت الملكة ونيهرو وكل أولئك المحامين من أصقاع الإمبراطورية بهذا؟ استدرت لنغاندي مشوّشًا، كأنني أشكك في قدرته بصفته حكّاءً. لم تنتهِ الحكاية على النحو الذي دفعني الراوي لتوقّعه.

غير أن نغاندي ليس بمحبط. يقول انصتوا إلى كلمات كينياتا في المحكمة: "أنشطتنا موجهة ضد الإجحاف الذي يعانيه الشعب الأفريقي... الأمر الذي قمنا به، والذي يجدر بنا مواصلته، هو المطالبة بحقوق الشعب الأفريقي باعتبارهم أشخاصًا يمكنهم الاستفادة من الخدمات والامتيازات كالناس الآخرين تمامًا". أتظن أنه يتحدث فقط لذلك المدّعي سومرهو والقاضي ثاكر؟ ما الفائدة؟ كلماته بمثابة إشارة لمبيو وكيماثي ليواصلا

في الصراع ويشدّدا عليه. سيكون حرًا بعدها من أجل مجد أعظم: تذكّر أن كوامي نكروماه صديق كينياتا خرج من السجن قبل عام فقط من تقلّده منصب رئيس مجلس الوزراء في الساحل الذهبي [جزء من دولة غانا الحديثة]، في 1951. كان يدعو نفسه "PG: prison graduate"، أي خرّيج سجون. ونيهرو؟ أليس خرّيج سجون بدوره؟

لاحظت كيف تغيّرت الشخصيات الرئيسيّة في قصّته مع الوقت: فالآن المارشال الميداني ديدان كيماثي، وجنرالاته، ومقاتلوه، هم من يحرّكون التاريخ. سألت نغاندي لم يسمى أحدهم جنرال "تشاينا". لم يتردد في الإجابة، وأخبرني عن الصينيين عندما حرّروا أنفسهم في 1948، بعد سنة من استقلال الهند، لكنه لم يفصّل. سألته عن شائعات سمعتها تقول إن الأميركيين السود وجنوب الأفريقيين السود سيأتون لمساعدتنا.

لدى الأميركيين السود وجنوب الأفريقيين صراعاتهم الخاصّة، لكنهم متعاطفون مع مأزقنا، أخبرني نغاندي بهذا. فالأسقف ألكساندر من جنوب أفريقيا كان هنا، ضيفًا لدى مؤسسة "كيسا" و"كارينغا"، بين 1935 و 1937، ليساعد في ترسيم رجال الكهنوت ذوي المعتقد الأرثوذكسي، مثل آرثر غاتونغو من "ويثاكا". أما الأميركيون السود فمنضمّون لصراعنا سلفًا، لقد ذكر ذلك ماركوس غارفي في صحيفته "عالم الزنوج"، التي وصلت إلى قادة "كي سي إي" في عشرينيات القرن العشرين. دعا ماركوس غارفي بذاته لحشد عظيم في قاعة الحرية في نيويورك، بعد المجزرة التي قام بها مستوطنو كينيا والدولة المستعمرة ضد الذين طالبوا بإطلاق هاري ثوكو في 1922، وقد أرسل باسمهم برقية إلى للويد جورج وتنبأ بأن الكينيين خلال ثلاثين سنة سيشنّون كفاحًا مسلحًا ضد البريطانيين. كان ماركوس غارفي نبيًا، تحقّق قوله. أشار إلى الصداقة بين كينياتا وبول روبسن، وجورج بادمور، ودبليو. إي. بي. دوبيس

ومجلس 1945 الداعم للأفريقيين في مانشستر. كان رالف بنش، وهو مسؤول في الأمم المتحدة، صديق الزعيم كوينانغ. كما درس مبيو في أميركا ولا بد أنه كوّن العديد من الصداقات هناك. لكن قد يكون الجند الذين جاؤوا إلى كلية معلمي كينيا في "غيثنغوري" عام 1944 وغنوا روحانيات زنجية خلف أقاويل أن الأميركيين السود قادمون لمساعدتنا في محاربة البريطانيين. ذكّرنا بأن مبيو حر، في الخارج، لذا من يدري؟ كل شيء يعود إلى مبيو العبقري، رغم أن الجنرال كيماثي يحتل مركز المسرح تدريجيًا.

ديدان كيماثي من سيحرّر كينياتا. لهدهدة العيون والأذان المتشكّكة قصّ نغاندي قصة تنكّر كيماثي ذات مرة في صفة ضابط أبيض وذهب لتناول العشاء مع الحاكم، ثم أعقبها برسالة شكر. أخبرنا بمآثر عديدة أخرى مدهشة: كيف أن بوسعه الزحف على بطنه لأميال، كيف يوهم أعداءه بأنهم رأوه، لكنهم قبل سحب بندقيّاتهم لا يرونه، بل يرون نمرًا يحدق بهم قبل أن يثبوا إلى الشجيرة. وجه كيماثي هذا هو الأنسب لمخيلتي، وأردت أن أسمع المزيد من مآثره المذهلة.

تعجّبت من مدى معرفة نغاندي -لا بد أن "غيثينغوري" كلية جيدة حقًا- لكن تعجّبت أكثر من قدرة نغاندي على الانتقال بحريّة من الطبيعي لما هو خارق للطبيعي والعودة للطبيعي دون أن يرف له جفن. أكان واقعًا أم متخيّلًا أم كليهما، يجعل مزي نغاندي كل شيء معقولًا، بنبرته المحايدة والساخرة من وقت لآخر، دون ذكر تصفيره لنفسه.

بعد سنوات، في روايتي **"لا تبك يا ولدي"** منحت الشاب نجورغو المختلق هالة الواقع والشائعة، الشك واليقين، الأمل واليأس، لكنني لست متأكدًا من قدرتي حقًا على تجسيد الشبكة بالغة التعقيد المكوّنة من الابتذال والدراماتيكية، وعادية العيش اليومي السريالية في زمن غير عادي لدولة تحت

وطأة الحرب. بوقائع وشائعات محاكمة جومو كينياتا وسجنه ومآثر ديدان كيماثي البطولية، كان الحقيقي والسريالي واحدًا. على الأرجح تبقي الخرافة، بقدر ما يبقي الواقع، الأحلام حيّة حتى في أزمنة الحرب.

"سأرسل خبرًا لأبيك أبلّغه أنك مستعدّ لتكون رجلًا". قالت لي أمي بنهاية 1953، وهي المرة الأولى التي تحدّثني فيها عن أبي منذ غادرت منزله قبل سنوات. لا بد من موافقة الوالدين على شعيرة العبور. لكنني أنضمّ إلى هذه الشعيرة، في هذا الوقت، طاعةً لصوتٍ قادمٍ من القبر. كانت كلمات جدتي الأخيرة واضحة: لا يجب أن يخلفني ندونغو، ابن كيموشو، وراءه. لذا فالموعد مربوط باختيار ندونغو حين يكون مستعدًا للعبور. لحسن الحظ، صادف الوقت المختار العطلة المدرسية في نهاية العام.

في الأزمنة السابقة للاستعمار، يعلن الختان بين "الغيكويويين" عبور الصبي إلى مرحلة الرشد. في مجتمع يتطلّب تعاقب الأجيال لمهام الحكم والواجبات العسكرية والقانون والأخلاق، فهذه الشعيرة ضرورية لارتقاء سلم الحياة الاجتماعية، من أجل توازن الجميع واستمراريتهم. المراسم كاملة -من التحضير، والتنفيذ، وحتى الشفاء- كانت لهذا السبب جماعية، وعائليّة، وشخصيّة في الوقت نفسه. في الأزمنة الماضية، كان مجلس الشيوخ من يحدد المواعيد للقبيلة كاملة. يخضع المرشحون، شبابًا وشابّات، للمراحل الثلاثة تقريبًا في الوقت نفسه. كل العابرين خلال الفترة الواحدة يؤلفون طبقة ذلك العام، ويسمّون جميعهم باسم يخصّهم يظل فريدًا دائمًا. كما أن الجماعة العمرية تعتبر من مستوى العائلة والعشيرة في ما يتعلّق بالهوية

الشخصية وتوقعات الولاء. غير أن ولاء الفرد لجماعته العمرية أشد لأنها عابرة للعائلات، والعشائر، والمناطق.

لهذا استخدم مبيو كوينانغ الولاء للجماعة بمثابة أداة تعبئة لتمويل كلية معلمي كينيا في "غيثينغوري". لكن في المجتمع الاستعماري يقوم تنظيم السلطة على معايير قانونية مختلفة، تغطي قبائل متعددة، كلها قد نظمت حياتها قبل الاستعمار وفق تقاليد ثقافية معيّنة. لذا، حتى بالنسبة لشعب "الغيكويو" في زمني، لم يعد للختان دور سياسي أو اقتصادي أو قانوني في المجتمع كما في السابق. إذ لا يمنح حقوقًا مجتمعية تترتب عليها العقوبات ولا يفرض واجبات أو توقعات مجتمعية معينة. في وقتي، ظلت آثار من الشعيرة المجتمعية الماضية وحسب. فالعديد من الذكور، حتى أولئك غير المنتسبين دينيًا، يساقون للمستشفيات من أجل العملية. لن أكون واحدًا منهم، فقد أردت أن أمر بالشعيرة. أملت أن تسهم في هويتي الذاتية، وشعوري بالانتماء الذي سعيت له دائمًا.

في المراحل الثلاثة، قبل التنفيذ وخلاله وبعده، وجدت التحضير أكثر إمتاعًا: إنه وقت الكرنفال والاستعراض من منزل لمنزل. ينتقل الاحتفال في ما مضى من قرية لقرية، من منطقة لمنطقة، محدودًا بمسافات يمكن بلوغها على الأقدام. حضر أخواتي وإخوتي من منزلَي أبي وأمي، يساعدون في الطهي والأعمال الأخرى، ومعظمهم ظل من أجل ليلة "المارانجا" المميزة، وهي عشية الشعيرة، حيث بالكاد ينام الناس.

لقد رأيت هذا مسبقًا، حين قام الآخرون بالشعيرة، لأن الجميع، راشدين وأطفالًا ورجالًا ونساء يشاركون في الرقص والغناء. لكن ليس من السهل أن يستغرق المرء في الاحتفال حين يكون مرشحًا للسكين. بجانب هذا، كان صوتي قد تغيّر وفقد جودته. عهدت غناء مقطوعات وكلمات محددة، لكن

الغناء في منزلنا آنذاك مقتصر على غناء أغاني النداء والردّ مع تحديات غير متوقعة غالبًا موجهة لمرشّحي الشعيرة، كان ارتجالًا غنائيًا بلحن محدّد. لا بد أن يكون المشارك نبيهًا، مبتكرًا، يقظًا، لكن لحسن الحظ بوسع الشخص أن يسترشد بمن يفوقونه في التمكّن، وأقاربي هنا لمساعدتي. لبعض التحديات طبيعة إيروسيّة، في الواقع كل الرقصات وبعض الأغاني تشمل أبياتًا خليعة وحركات عصريّة إيحائيّة، والشعيرة فترة يرخّص فيها الحديث عن الجنس دون الانخراط فيه. فالحدود ترسم بصرامة بين فن "المايم" والواقع. تتناوب الأبيات الساخرة مع تعديات نابية يُرد عليها بردود نابية مماثلة تنتهي بأبيات دافئة ترمم ما قيل. الليلة برمتها بمثابة وليمة موسيقية بلحن تلو آخر، رقص يليه رقص، مع حشد بشري يتحرّك ذهابًا وإيابًا بين منزلنا ومنزل ندونغو.

استمتعت بكل ذلك لكنني في الوقت نفسه أهجس في السكين التي ستقطع مني اللحم. كما أفكر في صديقي كينيث. لا أعرف التفاصيل، لكن خلافًا عائليًا منع إجماعهم على ترشحه. سنتركه أنا وندونغو وراءنا. شعرت بالأسف من أجله ومن أجل كل أقراني، فبعد الغد لن يعود بوسعي اللعب معهم إذ سأبدو راشدًا يلعب مع الأطفال. الفجوة التي تبزغ بين من عبروا ومن لم يعبروا مباغتة، عميقة، شاسعة، ولا يمكن أن تجسّرها أي وسيلة غير الخضوع للشعيرة.

وأخيرًا حل صباح الحدث. لم يغمض لي جفن. لكنني مأمور مع هذا بالاستيقاظ باكرًا من أجل طقس "المينجو"، وهو حلق الرأس والاستحداد. في البدء عليّ خلع ملابسي، إقرارًا بالانسلاخ من الطفولة. بعدها يُدفن الشعر المحلوق في الأرض، رمزيّة لدفن هذه المرحلة من حياتي. ظللت عاريًا حينها إذ ننتقل لمياه "مانغو". ولكم بدا الطريق طويلًا إلى هناك بالنسبة إليّ، رغم أنه في الواقع ميل ونصف. تبعنا الرجال والنساء والأطفال، وهم يتدافعون،

ويرقصون، ويغنون، ويلوّح بعضهم بأوراق خضراء في الهواء. في الوقت الذي يلتقي فيه جميع المرشحين عند المياه، يصير موكب الداعمين حشدًا هائلًا، ويتحلّق حولهم.

ظهرت مفاجأة في طقس الماء على حين غرّة، إذ سُمح لكينيث مبوغا أن يشارك أخيرًا. لقد اتفق والداه على استحالة أن نخلفه نحن، رفاق دراسته ولعبه، وراءنا. لكن لم يتّسع وقته للحلاقة، لذا فهو المرشح الوحيد بشعر رأس وعانة. سررت برؤيته، إلا أننا لم نتحدّث، إذ كنا نساق إلى مصيرنا.

الماء خصر، قارس، لكنني ما زلت أفكر في السكين. هل سأحتمل الألم وأخرج منه بشجاعة؟ أعلم أن ثمة قلقًا في حزبي. يُعرّف الجبن بدقة، فإن أرمشت أو أصدرت أدنى صوت أو قطّبت أدنى تقطيبة، سألحق العار بعائلتي وجماعتي، وستلتصق بي وصمة "جبان" مدى الحياة. كان المرشحون خليطًا ممن التحقوا بالمدارس ومن لم يلتحقوا. يُنظر للطلبة باعتبار أن الكتب والدراسة الحديثة قد ميّعتهم، فهم لا يحتملون الألم. وهكذا أدركت أن عيون الفضوليين ستكون مسلّطة عليّ.

لكل واحد منا حارس، وحارسي أخي العلّة نجينجو وا نجيري، الابن الثالث من زوجة أبي الرابعة. أما حارس ندونغو فهو يونغي. لست واثقًا من حارس كينيث، لكن، حقًا، الآن فيما أُجلست على العشب، فلست مهمومًا إلا بشأن مصيري وحسب. ساقاي مفتوحتان، ركبتاي مثنيتان، وقد غرزت برسوخ في الأرض. كفّاي مقبوضان، وقد وضعت إبهامهما بين السبّابة والإصبع الأوسط، ومرفقاي يستريحان على ركبتي. رجولتي ها هنا ليحدّق الجمع بها، لكنهم ليسوا مهتمّين بها في الواقع، إنما معنيون بردة فعلي حين تلتقي السكين بالقلفة. سمعت بعض الجلبة، إنه الجراح. حارسي خلفي يثبتني ضاغطًا أكتافي. ظللت متجمدًا: أوه، ربّاه، دعني أمر من هذا دون

جفول. أخبرنا بعض الناس أخبارًا مخيفة خلال التحضيرات، عن السكين إذ تحزّ بالخطأ حزًّا عميقًا أو حتى تقصّ قطعة من رجولة المرء. لم أصدقهم لكن فرضًا... افرض أن خطبًا حدث؟ لا أعرف الجراح، لكنني سمعت أن قريبي موانغي كارويثيا قد يتولى المهمة. لم أرَ وجه الجراح حتى، فقد انتهى قبل أن أدرك قيامه بأي شيء. لم أشعر بالسكين، لقد خدّر الماء البارد جلدي. غطّاني حارسي سريعًا بقماش قطني أبيض يمتد من أكتافي لأقدامي، زغردت كل النساء بفخر. أدركت أنني عبرت، وهكذا ندونغو وكينيث. بوسع المرء بعد الجراحة أن يعبّر عن ألمه بأي شكل أراد، حتى بالدموع، فلا وصمة تلحق بمثل هذه الردود، لكنني حاولت التماسك. لا يجب أن أسهم في ترسيخ النظرة التي لا أقبلها، النظرة القائلة بأن التعلّم من الكتب يضعف المرء ويجعله هشًّا.

مشينا بعدها عائدين. أطراف شمائلنا البيض مثبّتة مع بعضها بدبابيس. لا يزيل شعب "الغيكويو" القلفة كاملة، فهم يتركونها متدلية تحت رأس القضيب. عُلِّمت من قبل كيف أمشي، بساقين متباعدتين، ويد تمسك القضيب، وإصبع يباعد بين مقدمته والقلفة المتدليّة، فلا يحتك بالقلفة الطليقة ولا القماش. هذا المشي صعب وبطيء. اختفت الحاشية التي رافقتنا للضفاف في قسم كبير منها، لا شك في أنهم رحلوا ليلحقوا النوم أو المهمات المتروكة.

انتهى بنا الأمر نحن الثلاثة، كينيث وندونغو وأنا، في سقيفة التعافي، وهي كوخ صغير في وسط أرض جدّي، لكنها ليست قريبة من أي مجمّع مساكن. نتمدد نحن العابرين على أسرّة من القش، تغطيها الشراشف والبطانيات. تبيّن أن مرشد كينيث هو كارانجا زنغوري. ينام مرشدونا الثلاثة في حجرة مقابلة، بمساحة عيش مشتركة في ما بيننا. بوسعنا سماعهم، وبوسعهم سماعنا. لا

يسمح لعابر أن يعود لحياته السابقة العادية في منزله على الفور بعد الشعيرة، بل لا بد أن نُعزل عن منازلنا ونبقى في السقيفة لثلاثة أسابيع على الأقل. يُجلب لنا الطعام، لكن لا يسمح للأقارب حتى بتجاوز الباب دون إذن الحرس. حرسنا الثلاثة هم صلتنا الوحيدة بالعالم خلال التعافي. فهم مرشدونا، وموجهونا، ومعلمونا بمسالك الرشد والمسؤوليات الرجولية.

رغم أنهم معنيون برفاهيتنا الجسديّة، إلا أن مرشدينا يدربوننا على ضبط النفس. أسئلتنا عن قلفتنا المنتفخة، التي تبدو متورمة، تستدعي منهم ردودًا مريعة تنبئنا بأن قضيبًا ثانيًا سينبت لنا. لو أنني علمت أن الشعيرة تتضمن أن يصبح لدي زوج... لكنني لم أود التفكّر في ناتج كهذا. يحضرون فتيات من وقت لآخر لمحاكاة المضاجعة، أداء يتظاهرون فيه بممارسة الحب مع أصوات إيروسيّة يتعمدون أن تصل لأسماعنا. يتسبّب هذا في انتفاخ الجلد الذي يتعافى وتمدده، مسببًا ألمًا مبرحًا، حتى يصرخ أحدنا، كفى! توقفوا! فيخرجون ضاحكين، ليحاضروا علينا بأهمية ضبط النفس. خوفي من "نموٍ" متوقع لقضيب ثانٍ انتهى حين أصبحت القلفة ببساطة زائدة ناعمة تحت رأس القضيب. حينها أخبرونا عن القلفة الملتئمة، فهي مرضية للمرأة، تدلّكها بلطف، ولذا تدعى "نغواتي" أي: القائمة بالحب، فهي شريك في تحرّكات الحب.

بعد هذا، حين نتعافى بما يكفي لنمشي دون ألم مبرح، يسمح لنا بالاختلاط مع العابرين المستجدين من القرى الأخرى قبل العودة إلى النوم في سقيفتنا. بوسع العابرين الآخرين زيارتنا أيضًا. يمكنك التعرف على كل العابرين المستجدين من زيّهم: قماش طويل يشبه الشملة مثبت بدبابيس. وعكّاز البامبو تكمّل المظهر. حين نعبر الطريق، يفسح لنا الناس من كافة الأعمار.

ثم يأتي أخيرًا اليوم الذي نعطى فيه ملابسنا العادية، ونقول وداعًا لسقيفتنا ومرشدينا، ونعود إلى بيوتنا لمواصلة حياتنا اليومية، باختلاف. فأنا الآن رجل. أنا منتمٍ لفئة عمرية جديدة. قطعت كل الصلات الاجتماعية بالأصدقاء الذين لم يؤدوا هذه الشعيرة. لا أستطيع أن أختلط بهم، ولا أن ألعب معهم، ولا أن أتشارك معهم الأسرار. باتت تفاعلاتنا ومحادثاتنا رسمية ومقتضبة، كأنني تخطّيت جدارًا لا مرئيًا في الحياة من جهة لأخرى. تركت وراء الحائط ذاتي القديمة، وفي هذه الجهة لدي ذاتي الجديدة. صارت رفقتي لأخي الكبير والس وأصدقائه الآن أمرًا مرحبًا به. بإمكاني حضور حفلاتهم والاطلاع على نكاتهم وقصصهم عن النساء.

أخذني كاهانيا، أقرب أصدقاء أخي، تحت جناحه وسهّل دربي لصحبة الرجال. عرّفني بالفتاة التي سأفقد عذريتي معها، وهي الطقس الأخير لدخول العالم الجديد. ليست لحظة عظيمة، لكنها البرهان الذي أحتاجه لأثبت أنني أصبحت رجلًا حقًا.

رغم أن شعيرة التحوّل إلى رجل برمتها خلّفت فيّ انطباعًا عميقًا، إلا أنني خرجت منها وقد بت أكثر اقتناعًا أن التعلّم والتعليم، لا أي فعل يسم اللحم، هما الطريقة المثلى لتمكين الرجال والنساء في زمننا.

عدنا لمدرسة "كينيوغوري" المتوسطة، وهي مرحلة من سنتين بين الابتدائية والثانويّة، لكننا سنظل فيها لعام دراسي واحد، لأننا قضينا السنة الأخرى منها في مدرسة "مانغو" القديمة، منتظرين اكتمال المباني في الموقع الجديد. كانت المدرسة تابعة لمديرية تعليم حي "كيامبو". سيكون هذا انتقالي الثالث منذ بدئي للدراسة في الابتدائيّة.

كانت 1954 سنة محوريّة، هي آخر مرحلة من تعليمي الأساسي، التي سأخوض بعدها الاختبارات التمهيديّة للأفريقيين الكينيين، وهي بمثابة شعيرة عبور تعليميّة تترتب عليها المواصلة أو النهاية. ثمة اختبارات موازية للآسيويين والأوروبيين من أجل دخول مدارس موازية قائمة على تمييز عرقي. لم يكن الدمج ضمن المطالبات المركزيّة المناهضة للاستعمار، ما عدا في النداء العام لإنهاء التمييز وفق اللون. جاء الدمج في المدارس لاحقًا، أي بعد الاستقلال في عام 1963. كانت المطالب الرئيسية مطالب الأرض والحريّة، وفرص عادلة في المرافق التعليمية. بالنسبة للأفريقيين، فثمة القليل من المدارس الثانوية، والمنافسة عليها شرسة، إذ يسقط العديد من الطلبة خلالها على جانبي الطريق. ساءت الأوضاع بعد إغلاق المدارس المستقلة وكلية معلمي كينيا في "غيثنغوري". جاء "تقرير بيتشر" الذي سعى لتنظيم وتوسيع التعليم الثانوي الأفريقي، متأخرًا عن احتياجات ذلك الوقت حتى

قبل صدوره، وهكذا تكثّفت المنافسة.

بالنسبة لنا، لم يكن التحدي أكاديميًا خالصًا أو محدودًا بالمقر المدرسي، بل مسألة المسافة البسيطة: إذ تبعد "كينيوغوري" ستة أميال. تشمل التحديات الأعقد أمور الزي والتدريس كالعادة. أتاح لنا المشي الطويل إلى المدرسة فرصة للأخبار والتسلية: نتبادل القصص عمّا حدث في بيوتنا وعند جيرتنا. أنجبت حالة الطوارئ مخلوقًا ضخمًا غامضًا، ينمو مهددًا إيّانا كلما وطأ على الأرض. لكل شخص حكاية يقصها عما فعله لعائلته، أو لجيرانه، أو لأقاربه في نيروبي -ضحايا عملياته من "جوك سكوت" وحتى "عملية أنفيل" التي شنّها الجنرال إيرسكين لإزالة كل أفراد مجتمعات "الغيكويو" و"الإمبو" و"الميرو" من نيروبي. أصبح هذا المخلوق أداة لما بات يعرف الآن بسياسة الاستعمار الرسمية: تهجير الآلاف من النّاس. تبعد "ليمورو" ثمانية عشر ميلًا عن العاصمة. ثمة قصص عن وقوع قتلى، وعن مئات سيقوا إلى معسكرات الاعتقال. بالطبع، ثمة قصص توضّح كيف استطاع فلان الإفلات منهم، لكن معظمها عن الدمار الذي شكّلته حالة الطوارئ.

في القرى، انتشرت الحكايات عن تجنب بعض النّاس الامتثال للعمل الجماعي الجبري وحضور "البارازا" القسري: كيف أغلق آباء وأمهات على أنفسهم في مراحيض عمومية نتنة ومع ذلك اقتادتهم فرقة حماة الوطن منها، آخرون تمارضوا أو تظاهروا بالموت دون طائل، وآخرون اختبأوا في حفر حفروها، وقد غطّوها فبدت مثل محيطها. من الجلي أن الغارات الليلية والصباحية المستمرة والحجز الجماعي كانا يمزّقان العائلات، ويأخذان المعيلين أو يعيقانهم عن العمل، ويقلّصان الرعاية الأبوية. يعيش الناس في خطر مزدوج: عمليات الحكومة نهارًا وأنشطة حركة "الماو ماو" ليلًا، الفرق

أنه بينما تحارب الحركة من أجل الأرض والحريّة، تقاتل الدولة الاستعماريّة لتبقي احتلالًا أجنبيًا وتحمي امتيازات وثروات حصرية للمستوطنين الأوروبيين.

كانت غارات البريطانيين النهاريّة، التي يدعمها حماة الوطن المخلصون للدولة الاستعماريّة، مباغتة وغير متوقعة غالبًا. يحيطون سريعًا بسوق "ليمورو" ويحاصرونه. يؤمر من وقعوا في الشرك أن يتقرفصوا في مجموعات ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، يعتمد هذا على حجم الحشد، وأكفهم متشابكة خلف أعناقهم، فيما تحيطهم من جميع الجهات قوات بريطانيّة من ضبّاط بيض وشرطة سود. يظلون على هذا الوضع المؤلم تحت الشمس الحارّة ينتظرون النتيجة. يمشون واحدًا واحدًا بجانب طاولة يجلس عليها ضابط بريطاني مسلّح. بجانبه رجل أو اثنان مقنّعان، يدعى واحدهم "**غاكونيا**"، مهمتهم أن يومئوا لتأكيد أو نفي انضمام الشخص المارّ إلى "الماو ماو". تعني إيماءة التأكيد المزيد من الاستجواب للمذنب، ثم إرساله لمعسكر الاعتقال. كان الفحص الجماعي مخيفًا، وحين تشاهَد عربات الجيش، ينتشر الخبر بسرعة فائقة. يترك العديد من الرجال وظائفهم ويذهبون للاختباء أو يفرون، أحيانًا تحت طلق رشاش كثيف. كنت أستمع لتلك الحوادث، وأفكّر مليًا بالسوء الذي لم يحل حينها بعد على منزل أمي وأمتنّ لنعمي. صحيح أن لديّ ثمة مفقودات وشيكة، إذ توجد ذكرى حادثة أحاول دائمًا أن أكبحها.

حدثت قبل أن أصبح رجلًا بأشهر. كانت المدرسة حينها في "مانغو". لا أدري ما الذي اعتراني ودفعني لأهرب إلى المنزل من أجل غداء لست واثقًا من وجوده حتّى. حينها ألفيت أمي وأختي نجوكي، تجلسان في الباحة الخارجية، تفرزان الفاصوليا التي سيطبخانها لاحقًا، فوجئتا لرؤيتي في تلك الساعة، وجريًا على المتوقع لم يكن ثمة ما يهدّئ جوعي. عرضت أمي عليّ

أن تشوي بعض البطاطس، وهو الطعام الوحيد المتوفر، لكن هذا يستغرق وقتًا، وهكذا سأفوّت المدرسة أو سأتأخر عليها. نظرت بتوقٍ إلى ثمار نيئة على شجرة الكمثرى. لم تسمح أمي قط بقطف ثمار لم تنضج، تقول إن هذا يتعارض مع تناغم حياة النبتة، كما أنها لا تريد أن تجرح مشاعرها. لكنها لم تعارض هذه المرة، رغم أنها لم تومئ بالموافقة أيضًا. بعد الأكل، اندفعت إلى الكوخ، فأخذت بعض الماء، وخرجت راكضًا إلى الباحة، مستعدًا للعودة إلى المدرسة.

كانت أمي من أدركت فجأة حركة بعض النّاس الخفيّة في حقول الذرة المحيطة. فصرخت لي كي أعود، وقد رأت ترددي، ذكّرتني بأنها من عاهدتني وأنها هي التي تخبرني بمخالفة ما تعاهدنا عليه. تجاهلت مسامحتها وأنا جائع ومرتعب، رغم الكمثرى غير الناضجة، وواصلت المسير بجانب الوشيعة التي تفصل بين أرضنا وملكية كاهاهو. لم أكن قد ابتعدت كثيرًا حين سمعت إطلاق النار. تلاه صمت، ثم على مبعدة رأيتهم، رأيت "جونيّين" عدّة، كما نسمّي الجنود البريطانيين، ينتشرون في الحقول على اتساعها. اختبأت وراء شجرة حمّى وعدت أدراجي ببطء، آملًا أن تترّسني الشجرة من الرؤية. ثم سمعت المزيد من إطلاق النار. سمعت صيحات وصرخات. ثم إطلاق نار. فوقعت، رحت أحبو على الأربعة، قبل أن أنهض وأعود ركضًا إلى البيت. أمي وأختي، اللتان لا تزالان تقفان في الباحة، سحبنني للكوخ. كان بإمكاننا آنذاك أن نسمع أصوات الرصاص، لكنه راح يخبو مع الوقت حتى آل للصمت، ولم يأت "الجونيّون" قرب بيتنا. كنت مضطربًا غير أنني أشعر براحة لعدم عبوري وسط الرصاص. كانت المرة الأولى على الأرجح التي تخلّفت فيها عن الذهاب إلى المدرسة لسبب غير المرض.

حين جاء والس وأصحابه مساءً، كانوا يضجّون بأحاديث عن هروب

كل واحد منهم. ثمة العديد ممن أخذوا للاستجواب ومخيمات الاعتقال. تحدثوا عن شائعات الموت، لكنهم غير متأكدين من وجود ضحايا وإذا ما كانت هذه حكاية من الحكايات العديدة التي ترافق كل غارة. جليّ أنها ليست المرة الأولى التي يفر فيها أخي وأصدقاؤه من جولات السوق التفتيشية.

بعد أيام علمنا بمقتل بعض الأشخاص، وأن غيتوغو، أخي العلّة، آخر مواليد وانغاري الذكور كان ضمن الضحايا. حالة مأساوية، يعمل غيتوغو في ملحمة في "ليمورو"، آنذاك ركض كما فعل الآخرون، ولأنه أصم لم يسمع الضابط الأبيض وهو يقول **"سيماما"**، أي قف. فأصابوه في ظهره.

جسّد مقتله نموذجًا لما بات يحدث للعوائل في كل مكان. غيتوغو هو أخ جوزيف كاباي الأصغر، الجندي السابق في الجيش، صاحب مكتب الخدمات القانونية والسكرتارية، الذي يعمل الآن لصالح الدولة الاستعمارية، واحد من قلة رخّص لها حمل المسدس، رغم أنه يرتدي ملابسَ مدنية دائمًا.

أتذكّر حضور غيتوغو البشوش المعتاد خلال جلسات القصّ في كوخ والدته، بالرغم من حقيقة عجزه عن السمع. غيتوغو شاب وسيم، ذو شخصية رائعة ولم يؤذ أحدًا قط. وهو مستعدٌ لمساعدة الجميع دائمًا، خصوصًا حين يتعلق الأمر برفع الأحمال الثقال. حزنت عند سماعي بموته. لكن لأننا عشنا بعيدًا عن منزل أبي لسنوات ربما لم يمسّني موت غيتوغو مباشرة، رغم أنه كان مؤلمًا، مثل من كانوا في اتصال يومي معه.

في الوقت الذي حضرت فيه شعيرة العبور إلى عالم الرجال، واستأنفت المدرسة في "كينيوغوري"، تضاءلت ذكرى هذه الفاجعة. يطبّع المرء الفواجع لينجو. ما زال بإمكاني أن أعد نعمي، رغم أن مخلوق حالة الطوارئ قد مسّ منزل أبي، غير أنه لم يصل بعد لمنزل أمي.

غير أن ثمة إضافة سعيدة حدثت. تزوج والس من المرشدة الجميلة

التي تسكن "بنانا هيلز"، تشاريتي وانجيكو، ورزقا بموتوري، طفلهما الأول. لكم كان من المشوّق أن أرى والس، النجار المحترف، يصير ربّ أسرة، ووالدًا حنونًا، متلهفًا دائمًا على العودة إلى البيت من أجل زوجته، يحدق في المولود كأنه لا يصدق أنه من دمهما ولحمهما. قبل ولادة ابنه، كان لا يزال يعيش حياة العازب التي دأب عليها، يقضي الليل أحيانًا في ورشته أو في أي مكان آخر مع رفاقه. لكننا نراه الآن تقريبًا كل ليلة، وهو ما أشعرنا بالأمان والوحدة العائليّة.

المركبات العسكرية، والغارات، والفحوصات، والصرخات، وصافرات إنذار ثكنة حماة الوطن، وأصوات طلق الرشاش، باتت جميعها جزءًا من حياتنا اليومية. أشعرني هذا أن المخلوق المتثاقل يقترب حتمًا من منزل أمي.

مع هذا حين اصطدم بنا في ذلك اليوم النيساني من عام 1954، لم أكن مستعدًا له بعد.

كان والس الطيّب عضوًا في جناح إمداد مقاتلي الحركة الوطنية، جيش البلد والحرية. رتّب هو والخال غيسيني للقاء مصدر صديق سيمدهما بالرصاص. هذا المصدر شقيق فتاة كان أخي يواعدها، لكنهما انفصلا على وفاق. كان اللقاء في طريق مفتوح يصل المتاجر الهندية القديمة بالسوق الأفريقي. بين قطعة أرض أمي والطريق ثمة وشيعة صغيرة. آنذاك، كانت أمي تهتمّ بمحاصيل مختلطة من الذرة الخضراء والفاصوليا. صاح والس الطيب وخالي غيسيني بالتحية لها، فيما عدا هذا، لم تكن تأبه بما يحدث في الطريق المزدحم. تبادلوا اثنتا عشرة طلقة بالمال يدًا بيد ثم غادر المصدر. اقتسم والس والخال الرصاص مناصفة، فوضع والس حصته في جيب كنزته الداخلي، بينما وضعها الخال غيسيني في جيب بنطاله.

قبل أن يخطو الخال غيسيني وأخي خطوة، ظهرت عربة شرطة فجأة وأوقفتهما. غير مدركين بأن مصدرهما واشٍ، اعتبرا هذا الإيقاف مجرّد مضايقة شرطة معتادة كانت شائعة آنذاك. ظنّا أنهما سيتمكنان من الخروج من هذه الورطة بالكلام أو الرشوة. بدأ الشرطي بأخي، مفتشًا كل جيب عدا الجيب الذي يكتنف الرصاص. ثم انتقل لخالي فوجد ست رصاصات في جيبه. فيما الشرطي مركز تمامًا على خالي غيسيني، غمس أخي يده في الجيب الداخلي، أخرج الرصاص، ورماه من فوق الوشيعة إلى الجهة التي تزرع فيها

أمي. تدرك الشرطة عدد الرصاصات التي حصلوا عليها، مع هذا وجدوا ستة. ترك الشرطي وقد حار غيسيني مصفدًا وعاد ليفتش أخي ثانية، ولم ينس هذه المرة جيبه الداخلي. ومجددًا، لم يجد شيئًا.

سيؤخذ الاثنان لمركز الشرطة على أية حال لمزيد من التحقيق لكنهما عوملا باختلاف. وُضع غيسيني، الخطر كما هو واضح، في مقعد الراكب، مصفّدًا، محاصرًا بين شرطيين مسلّحين. أما أخي فقد دُفع إلى العربة من الخلف، دون أصفاد ويحرسه عسكري واحد فقط. كان الجدال قد جذب انتباه والدتي آنذاك، التي نظرت بدورها من وراء الوشيعة. قال لها أخي ألا تقلق، وإنه سيكون على ما يرام. كما أخبرها بضرورة أن تفعل ما قاله: **"thik ĩrĩra mbembe icio wega"** لهذه العبارة معنيان: المعنى الشائع ببساطة أن تغطي سيقان الذرة النابتة بالمهاد، لكنها تعني أيضًا دفن حبوب الذرة تحت التراب. "mbembe" كانت شفرة سرية لدى "الماو ماو" وتعني "الرصاص". لذا فقد تعني عبارته "خبّئي الرصاص جيدًا". حيث القانون واضح في تلك الأيام: يشنق كل من يقبض عليه وبحوزته رصاص في "غيثنغوري"، وهي كلية معلمي كينيا سابقًا.

قرر والس الطيب أن يهرب. قفز من المركبة على الطريق وفرّ عبر المتاجر الهنديّة، فيما يطير الرصاص من خلفه، هذا الهرب الذي أطلق سرديات عديدة، مثل النسخة التي سمعتها في ذلك اليوم خلال عودتي إلى المنزل من "كينيوغوري".

تجلّت السرديّة الحقيقية بعد زمن. لم تقدم أمي في تلك الليلة أي تفاصيل عن دورها أو حضورها خلال اعتقال والس الطيّب. أما زوجة أخي، التي تحمل بكرهما بيديها، وهي أم أيضًا، فقد مزّقتها المشاعر المتضاربة. ربما صار هرب أخي أسطورة فورًا، لكن بالنسبة لأمي وعروسه وابنه، بل بالنسبة

لنا جميعًا، كان فرجًا. لقد فرّ سالمًا بحياته، لكننا عالقون في الوقت نفسه بين الخوف والأمل. هل سينجو من الملاحقة؟ هل سيتحمل العيش في الجبال؟ مع هذا لم نصدح بمخاوفنا أو آمالنا أو أي شيء آخر حتى لأنفسنا. تحلّقنا حول النار، والضوء والظل يتعاقبان على وجوهنا. أمي وحدها من تحدثت، وقد دعتنا كي ننتبه لما نقول. وهكذا مسّت حالة الطوارئ المرعبة منزل أمي.

لم أكن لأدع أحدًا يعرف أننا نعرف أين ذهب والس الطيب، طبعًا، لأننا تقنيًا لم نكن نعرف. "أتسمعني؟" سألتني أمي ثانية كي تستبين، وهي تنظر إليّ وإلى أخي الصغير. إذا ما سألكما أحد إن كنتما تعلمان أين هو، فقط قولا لا نعلم.

لست بحاجة هذه التوصية. فأنا أدرك هذا بنفسي. من الغريب أنني كلما استيقظت صباحًا وجدت كل شيء كما هو: السماء، الأرض، الجيرة. وفي الوقت نفسه قد تغيّر كل شيء. غدًا حين أذهب إلى المدرسة، أو أقرأ أي صحيفة، أو أتحدث مع مزي نغاندي أو أسمع عن "الماو ماو" وأفعالهم الخيّرة أو ميتاتهم، فلن يكون الحديث تجريديًا كما كان، لم تعد أحداثًا تقع بعيدًا في غابة "نياندا روا" وجبل كينيا. سأفكر في أخي الذي أحببته: في جِدّه، وعزمه، وخياله، وحبه وإخلاصه لأصدقائه. سأفكر في جوزيف كاباي الذي علّم والس من قبل كيف يرقن، بينما يقف المعلم والطالب اليوم على ضفتين متحاربتين في هذا الصراع. نعم، سأفكر بالانقسام في منزل أبي: بين اثنين من أبناء وانغاري، تومبو وكاباي عملاء الدولة الاستعمارية، وأخيهما العلة في الجبال محاولًا أن يسقط هذه الدولة. آه، نعم، يتحارب اليوم الإخوة الذين أحبوا بعضهم.

قيلت قصة عن زيارة والس الطيب مرة لموانغي وا غاسوكي، ابن زوجة أبي الثانية. يعمل وا غاسوكي آنذاك في مصنع أحذيه "باتا ليمورو"، ويعيش في واحدة من حجرات الشركة المفردة. وفي إحدى مفاجآت القدر، قرر

المخبر تومبو، أكبر أبناء وانغاري وشقيق كاباي، زيارة موانغي وا غاسوكي في الساعة نفسها. حين تقابلا عند البوابة، انصرفا باتّجاهات متفرقة، عاد واليس الطيّب إلى الجبال أما أخي العلة تومبو فتوجّه إلى مقرّ الشرطة. وبعد وقت قصير جاء مسح موسّع للمنطقة. لكن من الواضح أن تومبو حينها لم يذكر وا غاسوكي بشيء، فلم يستدعه أحد للاستجواب حول الحادثة ولم يُتّهم بمساعدة مقاتل الحركة المناهضة للاستعمار. أو ربما لم يعرف تومبو أن والس قادم لزيارة موانغي وا غاسوكي، إذ إن أحياء العمال عديدة مزدحمة. ربّما تنافست الولاءات والدوافع المتناحرة.

لكن حتى الولاءات المنقسمة لم تكسر حسّنا بالانتماء إلى نفس العائلة. لم تهجر الضرّات أمي، إذ ما زلن يجدن وقتًا ليرينها في البيت أو في الحقول. لكن أظن أنهن لا يتحدثن عن كاباي أو تومبو أو أخي. أو ربما يعلمن، في أعماقهن، أن هؤلاء الأبناء المتحاربين سيظلون أبناءهن دائمًا، ويأملن أن يعودوا جميعًا إلى بيوتهم سالمين. ثمة مقولة لدى "الغيكويو" تقول من الرحم الواحد يولد قاتل ومعالج.

غيّر هروب أخي للجبال علاقتنا الظاهرة بعالمنا القريب. لكني أدركت هذا بأشق طريقة. في البدء، لا زوجة أخي ولا أنا استطعنا التصديق. بدا لنا مستحيلًا، لكن كاهانيا، أقرب أصدقاء أخي، الرجل الذي علّمه النجارة ووظفه مساعدًا له في الورشة، انضم إلى حماة الوطن. قلنا لا، مستحيل أن ينضم كاهانيا لأولئك الذين طاردوا أخي. لا يمكن أن ينقلب الرجل الذي تزوج من أشد العائلات المناهضة للاستعمار قتالًا، آل كيهيكا، ضد ما يتبنّاه أصهاره. لا، كاهانيا أخ نديربي كارانجا الأصغر، زوج نياغاكي ابنة غاسوكي، وهي واحدة من أخواتي العلات الكبيرات، لن ينقلب ضدنا. رفضت تصديق هذا.

واجهت يومًا كاهانيا وهو يرتدي سوار الذراع الأبيض الذي يعرّفه

باعتباره من حماة الوطن، في صحبة فرد آخر من حماة الوطن، غيكونيو ماريندا، وهو أحد سنناء أخي. كانت المواجهة في درب موازٍ لمنزل إدوارد ماتومبي، تنمو على جهتيه أغصان الذرة الخضراء الطويلة. تجمّدت تقريبًا. توقفا، فرمقني غيكونيو كأنني قد تلوّثت بالشر. لكن كاهانيا، رغم أنه لم ينظر إليّ مباشرة، حيّاني ثم سأل، هل تواصل والس الطيب معك؟ قلت لا، وهي الحقيقة على كل حال. قال لي ساخرًا، هازئًا، نفهم أن أخاك صعد إلى رتبة قائد. لا أعرف، قلت لهما، ثم واصلت طريقي، وواصلا طريقهما، يضحكان. علمت لاحقًا أنهما أقسما على مناصرة "الماو ماو" من قبل، ثم غيّرا جبهتيهما ببساطة. كيف أعقلن هذه التناقضات في صراعٍ، رأيته بتأويل نغاندي، بين مناهضي الاستعمار والاستعمار، بين الخير والشر؟ كل ما انبثق حولي بات ضبابيًا.

ذهبت ذات صباح إلى منزل جدّي كما اعتدت أن أفعل. رغم أني الآن رجل، لكنني ما زلت ناسخه وطير فأله. لم يذكر هروب أخي للجبال، لكنني لاحظت أنه لم يكن متحمسًا لنداء الصباح المبكر كما كان. في مناسبة أخرى، أخبرني أنني لا أحتاج زيارته بعد الآن في الصباح الباكر. أما خلال زيارة ثالثة في وضح النهار: وضّح أنني لم أعد طير فأله خلال أي وقت من اليوم، ولا ناسخه الحبيب.

جرحت في البداية. فهو والد أمي، الذي سمّيت عليه، وقد اختبأ في بيتنا مرة في الظلام. لكن هذه هي المسألة، حقًا. لقد فقد جدي كيموشو، ربيبه الحبيب، وقد يفقد غيسيني الآن، ابنه من دمه. أما حفيده، ابن ابنته الذي يعيش على أرضه، فهو فرد من "الماو ماو". حزنت لأنني فقدت مكانتي المميزة باعتباري ناسخه وطير فأله، لكنني أتفهم ذلك على نحو ما. بات منزل أمي تهديدًا للآخرين.

لكننا ظللنا عائلة متماسكة ربّتها أمي فقط. إضافة إلى الراحة التي يمنحني إياها منزل أمي، ثمة وجود المدرسة أيضًا. رغم أن الخوف من فقدان مكاني في "كينيوغوري" خيم دائمًا عليّ، لكنه لم يتحقّق فعلًا. لهذا أنا ممتن. التمست في التعلم ملاذًا.

ثمة العديد من معلمي الابتدائية، الذين أسهموا بطرقهم الخاصة في نموي الفكري. لكن السيد سمويل جي. كيبيشو هو من أثر على حياتي. تخرّج في كلية تدريب المعلمين في "كاغومو". أصبح ناظر "مانغو" التي أعيد افتتاحها حديثًا، وتحت قيادته انتقلت المدرسة إلى "كينيوغوري". كان معلمي للّغة الإنجليزية خلال آخر سنتين لي في "مانغو" و"كينيوغوري".

كانت نصوص اللغة منذ الصف الخامس من سلسلة "**Oxford Read-ers for Africa**". تقدم السلسلة شخصيتين، جون وجاون، وهما يعيشان في "أُكسفورد" لكنهما يذهبان إلى المدرسة في بلدة "ريدنغ". عرفت أنهما يتنقّلان بالقطار، الذي أثار حسدي. بالطبع، "أُكسفورد" في "إنغلترا". لا أظن أن أحدًا من معلمينا زارها من قبل، لذا فلا بد أن الأماكن المذكورة في النص غريبة عنهم بقدر غربتها عنّا. تبعنا جاون وجون في كل مكان، خصوصًا في لندن، حيث ذهبا للفرجة على المعالم الطبيعية والتاريخية المعمارية بما فيها "التيمز"، ومنازل البرلمان البريطاني و"بيغ بين"، ودير "وستمنستر". تتبع المدرسة آنذاك منهج الحكومة للمدارس الأفريقية، لذا على المعلمين أن يستخدموا النصوص المقرّة رسميًا. لدى السيّد كيبيشو القدرة على الخروج عن النصوص، فيذكر العديد من الأمثلة اليومية من بيئتنا. كان ممتازًا في ما يخصّ القواعد الإنجليزية. جعلني أفهم بناء اللغة وكيف أستخدم الجمل البسيطة والمعقدة أو كيف أبني

من جملةٍ بسيطة جملةً متزايدة التعقيد. من الأبسط إلى الأعقد: ظلّ قوله راسخًا في ذهني. لو أن هذا كل ما فعله، سيظل مثل أي معلم جيد مرّ علي في حياتي.

لكنه يمتلك نصوصًا أدبيّة في مكتبته الشخصيّة. لا أدري كيف لاحظ اهتمامي بالقراءة، لكنه أعطاني النسخة المبسّطة من رواية دكنز "**آمال عظيمة**"، وقد مرّرتها إلى كينيث. استعار كينيث منه "**لورنا دون**" لريتشارد بلاكمور، ثم مرّره إليّ. على المرء أن يعيد الكتاب الذي استعاره قبل أن يُسمح له باستعارة كتاب آخر. بتبادل ما استعرناه، كان لدي أنا وكينيث دائمًا كتابان في الوقت نفسه. أصبحنا قارئين نهمين وكنا نتحدث عمّا نقرأ. من بين كل الكتب التي قرأناها، كان "**جزيرة الكنز**" لروبرت لويس ستيفنسن الكتاب الأخاذ الذي بقي في الذاكرة. فيما الكتب الأخرى مختصرة، لم يكن "**جزيرة الكنز**" مختصرًا أو ربما هو مختصر قليلًا. كررنا استعارته مرة بعد مرة. تحدّثنا أنا وكينيث عنه، عن القصة، والشخصيّات، خصوصًا لونغ جون سيلفر وببغاءه. تقاطعت مع جيم هوكينز، مع آماله ومخاوفه، وبراعته، وهروبه في اللحظات الأخيرة. حفظنا منه عبارات وأغانيَ معيّنة.

"خمسة عشر رجلًا على "ديد مانز تشست"[26]

يو-هو-هو، وزجاجة رم

---

26 كتب ستيفنسن في 1884، في رسالةٍ إلى صديقه سدني كولن: "جاءت "جزيرة الكنز" من كتاب كنغزلي "At Last" [كتاب تطرّق في فقرة منه إلى أسماء جزر الكاريبي ومن بينها جزيرة "Dead Man's Chest"] حيث عثرت فيه على "ديد مانز تشست [قد تعني حرفيًا صندوق رجل ميّت]"، كانت هذه هي البذرة." وكتب في 1887 إلى جون پول بوكوك أن "الأهزوجة البحريّة في "جزيرة الكنز" من تأليفي الخالص، مبنية على واحدة من جزر قراصنة الكاريبي." - نقل بتصرّف من ملاحظات طبعة "جزيرة الكنز" بتحرير وتقديم پيتر هنت، الصادر عن أكسفورد في 2011. م. كما ذكر بورتن إيغبرت ستيفنسن المؤلف والمكتباتي في كتابه "Famous Single Poems" أن ستفنسن راعى كتابتها بأحرف كبيرة تأكيدًا على مقصده كي لا يقع القارئ في اللبس الذي وقع فيه جيم هوكينز في الرواية. لهذا، ولأسباب لا يسع المقام لذكرها آثرت أن أبقيها "ديد مانز تشست".

نشرب وعلى الشيطان الباقي
يو-هو-هو، وزجاجة رم"

نترنّم أنا وكينيث أحيانًا في باحة المدرسة بعبارة "يو هو هو" لنفاجئ بقية الطلبة أو نحيّرهم أو نثير فضولهم. ناقشنا إمكانية ذهابنا إلى البحر وتحوّلنا إلى قراصنة، لكن ليس لدينا لسوء الحظ غير الأنهار وأهوار "مانغو" في "ليمورو"، أما "مومباسا" فبعيدة للغاية.

أثار ستيفنسن جدالي الأدبي الأول المهم. أسرَرْتُ لكينيث بأنني أود كتابة قصص مثل قصص ستيفنسن، لكن لا بد لي من الحصول على رخصة للكتابة. وكي يكون المرء مؤهلًا للكتابة، لا بد له من تعليمٍ عالٍ. أصرّ كينيث أن المرء لا يحتاج لرخصة كي يكتب، كما لا يحتاج إلى أي مؤهلات أخرى. عارضته بتأكيدي أن المرء إن كتب دون إذن كهذا، فسيعتقل بالتأكيد. لا أدري لماذا خطرت على ذهني فكرة سجن المرء بسبب كتابته. على الأرجح في محادثتي مع مزي نغاندي، قد ذكر أن الدولة الاستعمارية قد سجنت تحت قانون الطوارئ العديد من الكتاب الوطنيين، مثل غاكارا وانجاو، وموغيا، وستانلي كاغيكا. حُظرت الصحف الناطقة بالأفريقية، ونفي بعض المحررين، مثل هنري موريا محرر "Mũmenyereri". مهما يكن مصدري، فالمناظرة بيني أنا وكينيث كانت محتدمة في بعض الأوقات. لربّما أمكننا حلها بسهولة لو نقلناها إلى السيد كيبيشو، لكننا لم نفعل.

وقد انزعج من تعنّتي، قال كينيث إنه سيكتب كتابًا ليثبت لي أن المرء لا يحتاج رخصة من الدولة كي يكتب. لم يخبرني عن موضوع الكتاب ولا إن كان قد بدأ به، لكنه لم يمض فيه. فقد تحول انتباهنا إلى الاستعداد لاختبارات أفريقيو كينيا التمهيدية، التي ستحدد مصيرنا.

كانت اختبارات أفريقيّو كينيا التمهيديّة مهيبة. يحصل فقط (5٪) من الطلبة الذين يختبرونها على مقاعد في المدارس الثانوية أو كليات إعداد المعلمين. الاستعداد لهذه الاختبارات متلف للأعصاب، وزاد الأمر سوءًا أننا في وسط حرب. فنحن محرومون من النوم باستمرار، جراء المداهمات في أوقات غير متوقّعة، وكنت منشغل البال دائمًا بأخي الذي في الجبال. كان استعدادي للاختبارات مشكلة. هل ستكون الأسئلة مبنية على عمل سنة، أم على السنتين الأخيرتين، أم الثلاث، أم الأربع؟ لم يكن لدينا كتب مقررات دراسية ما عدا كتب مادة اللغة الإنجليزية. فنحن نعتمد على ملاحظات المعلمين التي ننسخها من السبّورة. قلة من الطلبة، إن وجدوا، يستطيعون حفظ الملاحظات المأخوذة طيلة السنة في مكان واحد.

لكنني حاولت إعادة قراءة الملاحظات التي لدي. غير أن هذه معاناة أخرى. ففي بعض الأيام لم يكن لدينا "بارافين" للمصباح. فقد كنت أقرأ في ضوء النار. قد يقدح قصب الذرة اليابس شعلات مفاجئة لكنها تخبو سريعًا. على المرء أن يذكيها باستمرار. كنت في سباق لقراءة أكبر قدر ممكن خلال حياة مجموعة الشعلات الواحدة، لقد وتّرَت عيني لكنني اعتدت عليها. ضوء النهار هو الأفضل، لكن القراءة حينه في منافسة مع المهمات المنزلية، بما فيها البحث عن حطب المساء.

كانت الاختبارات مسألة رسمية. تعقد عادة في مركز واحد يجد المرشحون من مختلف المدارس طريقهم إليه. في 1954، بالنسبة لمنطقتنا كان المركز مدرسة "لوريتو كونفيت"، في "ليمورو"، على بعد ثلاثة أميال من البيت. شعرنا أننا محظوظون ما دام بعض الطلّاب بحاجة إلى قطع ما يزيد على عشرة أميال ليصلوا إليه، وبالكاد توجد مواصلات في تلك الأيام.

كانت البعثات التبشيريّة الإيطاليّة قد شيّدت في 1906 مقر البعثة التبشيريّة الكاثوليكية التي تقع فيها مدرسة "لوريتو". الأرض الفسيحة التي تمتلكها الكنيسة كانت جزءًا من "تيغورني"، مركز الخلاف الذي قاد أخيرًا إلى مذبحة "لا ري" في 1953. رغم أن ثمة قولًا بأن لا فرق بين كاهن ومستوطن، إلا أن غضب الناس توجّه إلى مستوطنات الجنود لا مركز التبشير نفسه.

قبل الاختبارات بأسبوع أو أكثر، أُوقظت من نوم عميق بفتح أمي للباب. دخلت مجموعة من الرجال إلى المنزل. كانوا يرتدون معاطفَ طويلة، وعلى أوساطهم أحزمة تتدلى منها سيوف في غمد من جلد. بعضهم لديه سلاح معلق في كتفه. كان أحد هؤلاء يبتسم إليّ. لم أصدق عيني. لقد كان أخي الكبير، والس الطيب، ها هو حيّ ويبتسم لي، ممسكًا بكشّاف في يده. آنذاك، جاءت زوجته من منزلها تسحب طفلها خلفها. كنت أتخبط بين الخوف والفرح. لقد كان حيًا وبخير. لكن ماذا لو أن حماة الوطن يتبعونه؟ لا يبدو على هؤلاء الرجال الخوف، كانوا يتكلمون بحريّة، رغم أنهم تحدّثوا بصوت خفيض، بل يضحكون حتّى. تناولوا الطعام وشربوا قليلًا من الشاي. لا بد من أن لديهم خفراء في الخارج إذ دائمًا ما يكون هنالك حركة دخول وخروج. بعد أن فرغوا، استدار أخي إلي وقال: "لا تخف. أعلم أنك ستختبر قريبًا، أتيت لأتمنى لك حظًا طيبًا. كما تقول أمنا، ابذل جهدك، فالمعرفة هي نورنا". ثم غادروا. هكذا وحسب. أصرت أمي عليّ بقول إن ما رأيته لا يقبل

النقاش مع أحد. حتى مع أخي الصغير، الذي كان نائمًا خلال هذا كله. في الصباح ظننت أنني استيقظت من حلم غريب.

أسفت لأنني لم أتمكن من سؤاله كل الأسئلة التي كانت في ذهني: عن اليوم الذي فرّ فيه من الموت، وكيف يعيشون في الجبال، وما هي المعارك التي خاضوها، أو عن قائدهم المارشال ديدان كيماثي. لكن فكرة أن أخي الكبير خاطر باحتمالية القبض عليه ليتمنى لي حظًا طيبًا كانت مؤثرة. فهو الذي ينهرني عن اللعب بأدوات النجارة ويشرق وجهه حين أستغرق في كتاب أو صحيفة. حفّزتني زيارته الخطرة لأجدّ أكثر، لكنها زادت من قلقي.

تحوّل قلقي إلى هلع محض بعد أسبوع أو قرابته، حين جاء جوزيف كاباي، رجل الملك، إلى منزلنا. تفوح منه رائحة الكحول لكن سلوكه ودود. كان الوقت لا يزال في أول المساء، وهو يرتدي حزامًا علّق فيه مسدسًا بحافظته. قال مفسرًا زيارته إنه مرّ من هنا، وقد تذكر أنه لم يأت للزيارة قط، ففكر أن يتوقف ليسأل عن أحوالنا. أعدّت له أمي كوب شاي، لكن لم يكن ثمة تدفق كلمات بين الربيب وزوجة أبيه. كنت واثقًا من الفكرة التي تدور في رأس أمي: لم جاء بهذه السرعة بعد زيارة والس الطيب تلك الليلة؟ عادت الأسئلة التي طالما فكرت فيها: لم لا يذهب هذا الرجل الذي حارب البيض في الحرب العالمية الثانية إلى الجبال كي يحارب المستوطنين البيض؟ ثم استدار لي فجأة وقال: أنت على وشك تأدية الامتحانات، أعلم. لكن لا تخشها. فهي مجرد مفردات على ورق، هاجمها بالقلم، القلم هو سلاحك. ثم أخرج مسدسه من الحافظة ومسكه أمام وجهي. أراد أن ألمسه، ربما ليغادر خوفي، لكنني لم أفعل. كانت عينا أمي تشيان برفض حاد. أعقبت مغادرته تنهيدة جمعية ملحوظة. خلّفت زيارته التي تبعت زيارة والس بوقت قصير غمامة قلق وخوف: بإخراجه هذا المسدس، هل كان كاباي يستعرض أو ينقل

لنا رسالة؟ لاحظنا أنه لم يذكر أبدًا أخانا الذي في الجبال. أخذتها على ضوء إيجابي: هو الأكثر تعليمًا في عائلتنا، ربما جاء أصلًا ليتمنى لي الخير. جاء رجل المقاومة ورجل الملك ليقولا لي كلمات متطابقة تقريبًا.

أعادت عشية الاختبار ذلك الخوف والقلق الذي شعرت به عشية الختان. كان خوفًا من المجهول، حيث عواقب الفشل واضحة لكن تبعات النجاح مجهولة. الآن لن يكون ثمة دعم اجتماعي، فقط أنا ودفاتري. لديّ أيضًا مسألة مسيري لثلاثة أميال إلى "لوريتو"، وكنت آمل أنني سأصل على الوقت.

لم أذهب من قبل إلى مدرسة "لوريتو كونفينت"، رغم أنني أرى طلابها أحيانًا. في اليوم الذي كنت سأذهب فيه إلى هناك، كي أعتنق الكاثوليكيّة، أبعدتني والدة كينيث. والآن أخيرًا، أنا هناك، رغم أن وجودي هذه المرة لهدف آخر. اختلافها عن "كينيوغوري" جليّ، فالمبنى محاط من الكنيسة للصفوف بأرض فسيحة، عشبها مشذب ووشيعتها مقلمة. على مبعدة منها حظيرة أبقار ضروعها ممتلئة، ترعى بسلام. تربط ممرات قد يضيع فيها المرء بين الصفوف الدراسية، لكن أوكل لبعض الفتيات إرشادنا إلى صف الاختبار. أمّا أعجوبة العجائب: أن لديهم مراحيض بميزة الشطف بعد الاستخدام، لتختفي الفضلات. إذ في "كينيوغوري" وقبلها في "مانغو" كانت المراحيض تقليدية، مجرّد حفرة وحسب. أخبرتنا الفتيات أن لديهم غرفًا للاستحمام حتى. كانت طريقتهم في العيش بعيدة عنا على كافة الأصعدة. لا أتذكر بيئة ذات رهبة تفوق هذه.

لكن الزي المدرسي هو أكثر ما يبهر فيها -فساتين حمراء ملونة مقارنة مع زينا الخاكي الباهت. لم أستطع أن أبعد نظري عن الفتيات: لقد بدين على السواء جميلات، ذكيات، مشعات، بريئات، ومستعدات لاستقبال مهمات

الملائكة السماوية. راهبة أو اثنتان تحومان كعادتهما. لا أدري أيهما أشد إخافة، بيئة المدرسة ككل، أو الصف الذي نجلس فيه خلف طاولات متباعدة بقدر يمنع استراق النظر لأوراق اجابات الجار. المراقب ناظر أبيض من نيروبي، بعد أن أعطى الإرشادات الأولية، جلس في الأمام لكنه يمشي من وقت لآخر بين الصفوف ليتأكد من انتفاء الغش. استغرقت الامتحانات أربعة أيام. في اليوم الأول ثمة إجراءات التسجيل، والتوجيه، ومسألة الأرقام المرافقة لاسم الشخص. أما الأيام الثلاثة الأخرى فكل واحد منها مكرّس لمادة أو اثنتين، بما فيها الرياضيات، الإنجليزية، السواحيلية، التاريخ، الجغرافيا، التربية المدنية. كنت متوترًا، بل مشلولًا تقريبًا، فيما أنظر لكل اختبار أمامي وللفتيات اللاتي يرتدين الأحمر، ويبدين مرتاحات. لكنني ما إن وضعت القلم على الورقة حتى شعرت بصفاء منعش. يأتي كل يوم بالقلق نفسه وبمحاولات تهدئة مشاعري، ثم يعقبه الصفاء. في اختبار اللغة الإنجليزية طرأت مواجهة غير متوقعة مع ماضيّ القريب. من بين الأسئلة كان ثمة قطعة تختبر فهمنا. من نوع أسئلة "اقرأ وأجب عن الأسئلة التالية". كان النص مأخوذًا من كتاب "**جزيرة الكنز**" لستفنسن. لم يحتو النص على عنوان الكتاب أو اسم المؤلف، لكن فيه سطور وعبارات مميزة: "خمسة عشر رجلًا على "ديد مانز تشست"/ يو-هو-هو، وزجاجة رم". على الأرجح لم يكن النص مفهومًا عند بقيّة المرشحين، الذين تذمروا منه لاحقًا. لكنه بالنسبة لكينيث كما هو بالنسبة لي، نحن اللذان فهمنا السياق، فهو بمثابة مكافأة على قراءاتنا اللاصفيّة.

في اليوم الرابع والأخير كنت قد أُرهقت جسديًا وذهنيًا. لكم ارتحت حين انتهى ذلك كله.

يشمل هذا أيضًا انتهاء سنواتي في "كينيوغوري". والصراع من أجل الدراسة بدءًا من "كماندورا"، عبر "مانغو كارينغا"، وحتى متوسطة

"كينيوغوري" الحكومية، والحظ وسوء الحظ الذي حل على منزل أمي، وطبول الحرب في البلاد -كل الأحداث التي شتّتتني عن مسيرتي التعليمية. حان الوقت لتوديع المدرسة والتاريخ الذي تحمله. من المحزن أنه وقت توديع السيد كيبيشو ومكتبته أيضًا.

كانت أسابيع انتظار نتائج الامتحانات من أطول الأسابيع في حياتي. فلم نعد حينها تحت مظلة المدرسة الحامية بعد. صرنا معرضين للتوتر المتكرّر الدائم الذي يعرقل بقية الشعب. تُستدعى أمي من وقت لآخر إلى ثكنة حماة الوطن للاستجواب. من الواضح أن أحدهم كشف معنى "Mbembe" الآخر. لكن أمي صامدة في إنكارها: كانت تزرع ذرتها آنذاك، والذرة ذرة، لا تدري كيف يمكن أن تكون الذرة أي شيء آخر! كان لأمي ثبات لا يهتزّ حتى في أحلك الظروف.

دون أن تشغل الدراسة والاختبارات وجودي، راح ذهني يهيم. خفت أن يتهاوى منزل أمي، لكنني خفت أكثر على أخي من برد الجبال، ولا تقل وطأة الخوف بتذكّر ضحكته المطمئنة خلال الليلة التي زارنا فيها ليطلب مني أن أبذل جهدي. هذه الزيارة تصرّف متوقع من والس المعتاد -كان يفعل غير المتوقع دائمًا، على الأقل في نظري. ثمة وقت اعتبرته فيه، بعيني الطفولية، باحثًا، إذ يدرس الليل كله ورجله في طشت ماء بارد. لكنه أصبح مشتغلًا في الخشب، وكلما قرأت في الكتاب المقدس عن يوسف، أب المسيح النجّار، أتذكر والس الطيب. والآن تخلى عن كل شيء، عن ورشته وسيارته المستعملة التي اشتراها توًّا، عن زوجته وابنه، واختار شقاء حياة المقاتل في سبيل الحريّة. في الواقع، لم أر والس قط باعتباره مقاتلًا. بالنسبة لي كان هشًا دائمًا، ورغم

أنه يكبرني بسنوات، شعرت على الدوام برغبة في حمايته.

ثمة رجل يقارب أخي في السنّ، بسبب مظهره ومشيته وكلامه واسمه -موتوري "أي: حدّاد"، وقد بدا لي مخيفًا- شعرت دائمًا أنه قد يغلب أخي في مواجهة جسديّة. كنت حينها في مدرسة "كامندورا". أردت أن أحذّر أخي من صحبة الرجل، خصوصًا بعد أن علمت أنهما معارف، لكن لم أعرف كيف أبدأ. طرقت الموضوع بحذر شديد، سألته إذا ما التقيا مؤخرًا، كأنني بالكاد مهتم أن أعرف بشأنه. لكن لم يبد أن أخي منشغل بموتوري على أي نحو، فطلب مني أن أركز على دراستي وأكف عن الاهتمام بشؤون الراشدين. لا مبالاته بالخطر الذي رأيته بوضوح في ذهني أفزعتني أكثر، ولم أكف عن قلقي إلى أن سمعت كاهانيا يهنئ أخي لأنه طرح موتوري أرضًا في عراك بالأيدي.

بات قلق مماثل يدور الآن حول كاهانيا. من المؤكد أنه يخون أخي، وليست لدي وسيلة كي أحذّر والس من خيانة صديقه. لكن كيف يخون الأصدقاء بعضهم؟ لا بد أن نغاندي يستطيع أن يفسّر هذا، فيبدو أنه يعرف كل شيء بما في ذلك ما يحدث في الجبال، نعم، نغاندي هو الذي أخبرنا بمآثر ديدان كيماثي، وستانلي ماثينغ، وجنرال "تشاينا" بتفاصيل من شهد الأحداث عيانًا. لربما حتى يعرف كيف يرسل رسالة للجبال. لكنه لم يأتِ لمنزل أخي بعد. لا بد لي من البحث عنه على الأرجح، آمل أن ألتقيه في الشوارع صدفة، لكنني ذكرت نفسي بضرورة ألا أناقش شؤون أخي مع أي أحد. حسنًا، لم أره ثانية أبدًا على كل حال. علي فهم هذه التناقضات بمفردي.

طفقت أبحث عن المعلومات والأخبار بنفسي بدلًا من انتظار قدومها إلي. وإذ لم يكن لدي مال كافٍ لشراء الصحف، طفقت أجمع قطعًا غريبة من الصحف حيثما أجدها، وقد كانت المتاجر الهندية أفضل مصدر لها.

يستخدم الباعة الصحفَ عادة للف السكّر أو غيره من الأطعمة والسلع لزبائنهم. حتى في مكب النفايات أجمع صفحة من هنا وصفحة من هناك، تكون بعضها ممزقة، لكن عادةً ما أجد صفحات متتالية. ليس ضروريًا أن تتناول الأخبار الحالية. ليس لدي خيار في هذه المسألة. كل ما أردته أن أربط الأمور على طريقة نغاندي المعهودة بربط الأحداث المحلية الوطنية بالأحداث العالمية. تضادّت قصص تظهر "الماو ماو" بوصفها حركة رجعيّة مناهضة للتقدم والدين والحداثة بشدّة مع ما أعرفه عن أخي، المعرفة التي برهنها بفعله الشجاع الأخير حين جاء إلى البيت متمنيًا لي التوفيق. أمّا القصص الأخرى فغالبًا عن أمجاد الحكومة، إحصاء لقتلى أفراد "الماو ماو"، أو مشنوقيهم، أو المقبوض عليهم، وأشهرهم جنرال "تشاينا" في منتصف كانون الثاني من بداية ذلك العام.

غياب اسم أخي من قوائم القتلى كان مصدر المواساة الوحيد المستمر. أردت أن يعود إلى البيت منتصرًا عودة كاباي من الحرب العالمية الثانية. لكن ليس ثمة أخبار مطبوعة عن انتصارات "الماو ماو"، النوع الذي اعتاد نغاندي أن ينقله إليّ بتفاصيل مقنعة. كما لم أجد قصصًا عن دعم خارجي مثل الذي ادعى نغاندي أنه مقدم من مصر، وإثيوبيا، وروسيا، وعواصم أوروبية أخرى بما فيها لندن. القطعة الوحيدة التي عثرت عليها من لندن تضمّنت زيارة من بعض أعضاء البرلمان، وتبديل أماكن وزيري الاستعمار أوليفر ليتيلتن وألان لينوكس بويد. عدا ذلك، لا يزال تشرتشل في السلطة، وهو يرسل المزيد من الكتائب البريطانيّة فيما يستدعي أخرى. تضعني بعض القطع في مواجهة الماضي المتعلق بعملية "أنفيل"، وهي مخطط الجنرال إرسكين الشيطاني لتهجير آلاف من "الغيكويو" و"الإمبو" و"الميرو" من نيروبي، كما فعلت الدولة الاستعمارية من قبل مع سكان وادي الأخدود الأفريقي العظيم.

أحسّت "ليمورو" على إثر قربها من نيروبي، بأثر عملية "أنفيل" عبر السنوات، كما تأثرت بالعديد من اضطرابات العاصمة. يطيب لي حين أمر بأخبار هزيمة القوات الفرنسيّة في "الهند الصينيّة الفرنسيّة" على يد الجنرال جياب، وفي "دين بيان فو" تقريبًا في وقت مقارب لعملية "أنفيل"، وأمِلت أن كيماثي سيحقق النصر نفسه على البريطانيين. حينها سيعود أخي إلى البيت. من قطعة أخرى علمت أن أيزنهاور، بسبب قضيّة براون ضد مجلس التعليم، قد أمر بإنهاء الفصل العنصري في مدارس أميركا. لم أفهمها لأنني لم أر أو أحلم قط بإمكانية وجود مدرسة يتعايش فيها طلاب أفريقيون وآسيويون وأوروبيون معًا. في "ليمورو"، تسوّر المدارس الآسيوية بالحجارة، وهي مساحة مغلقة خلف المتاجر، فالمدرسة جزء من مركز السوق. لم أر قط طالبًا هنديًا يركض حافيًا لستة أميال كي يصل إلى المدرسة. بالنسبة للمدارس الأوروبية، فهي غير مرئية بتاتًا. لم أر واحدة منها قط.

ربط هذا بذاك لتكوين قصة متماسكة كما يفعل نغاندي لهو أمر صعب: يشبه تركيب أحجية الصور فيما بعض القطع مفقودة. ربما كان الأمر كذلك بالنسبة لنغاندي، لكنه استبدل القطع المفقودة بخياله الخصب. لا بأس إن لم أصل لمستوى المعلم السّارد، هوّنت على نفسي، فليس عليّ أن أقول قصصي لمستمعين متطلعين شديدي الانتباه. مع ذلك، جربت مهاراتي السردية والمعرفية على كينيث. لكن كينيث لا يهضم أي شيء: فهو يعارض كل ما يأتي من فمي، كاشفًا ثغرات جادة في نقلي لأحداث كينيا والخارج. لكن بمحاولتي فهم ما حولي، باستقلالية، ثم الدفاع عن صحة محاولتي بقدر ما أستطيع أمام شكوكية كينيث، شعرت أنني أكثر من رجل، لقد أصبحت رجلًا على طريقتي.

رقص الموت رقصته الأولى حولي في ذلك الوقت تقريبًا. حدث هذا

بعد أن استأنفت صداقتي مع ندونغو، أخي بالشعيرة. لقد ترك المدرسة ولم يشاركنا قلق انتظار نتائج الاختبارات. لكن رغم ذلك، كان لندونغو ذهن متّقد، قاده ذكاؤه بعد سنوات، أي بعد الاستقلال، ليصبح من أنجح رجال أعمال "ليمورو"، ومالك أراضٍ وعضوًا في مجلس البلدة. آنذاك، على أية حال، هزّ الناس رؤوسهم بتشكّك في مستقبله.

أن أكون رجلًا يعني أنني راشد قادر على اتخاذ قراراتي بمفردي، فيمكنني أن أنام خارج البيت دون أن أخبر والديّ. لكن أمي لن تتخلى عن وساوسها الأمومية بشأن سلامتي، وكانت تبقى على اطلاع برفقتي. لم ترغب وهي أم تربّي بمفردها في صراعات لا تنتهي مع الجيران. كانت مع الرأي القائل بأن السبيل لتجنب هذه الصراعات يكمن في تجنّب النّاس أو اختيار الأصدقاء بحكمة. لم تعارض صداقتي مع ندونغو إذ إنه قريبنا أيضًا، لكنها قلقة من كل تحركاتي بشكلٍ عام.

قبل إعدام كيموشو، كان قد بنى منزلًا على شكل حرف "L"، جدرانه من الحجر وسقفه من صفيح الحديد المموّج. يفرغ المنزل في معظم الوقت لأن زوجة والد ندونغو تنام غالبًا في متجرهم في سوق "ليمورو". يقطن ندونغو في الحجرة الموجودة في الناحية القصيرة من المنزل، وهو حيث أقضي الليالي بعض المرات. كانت صحبته مسلية، فهو محنّك بالطبع، خصوصًا في ما يتعلّق بالفتيات.

كان البرد قاسيًا في ذلك الشتاء. لم نفتح النوافذ قط، واستخدمنا موقد فحم لتدفئة الحجرة. لكن في ليلة باردة، رحنا نزيد الفحم، وحين تمددنا على السرير لم نخرج الموقد من الحجرة كما لم نفتح النوافذ. غرقت تدريجيًا في نوم عميق. في وقت ما في الصباح، سمع ندونغو طرقًا خافتًا على الباب والنوافذ. وجد القدرة على الزحف وتمكن بشكل ما من فتح الباب قبل أن

يتهاوى، مثل شخص متعاطٍ، على الأرض التي أقع عليها مغشيًا. لا بد أن الهواء النقي قد أثّر بنا آنذاك، لأنني حين فتحت عيني كانت أمي تقف بالباب. لا أدري حتى اليوم كيف سقطنا من الأسرة للأرض. أُنقذنا، ندونغو وأنا، من الاختناق في الوقت المناسب.

كانت أمي هادئة فيما تبعتها إلى منزلنا. أخبرتني لاحقًا كيف توتّرت إذ حان الصباح المتأخر وأنا لم أعد بعد إلى البيت. خشية أن تكون فرقة حماة الوطن قد اعتقلتني، قصدت أمي منزل ندونغو لترى. ذُعرتْ من رؤيتي على الأرض بجانب موقد فحم يشتعل.

أدركت عمق صدمتها برؤيتي ممددًا هناك حين علمت لاحقًا أن ابنتها الأولى، بكرها، وقعت في نار وماتت من الحروق البليغة. هذا يفسر مبالغة أمي على غير عادتها إذا ما وجدتني أنا وأخي الصغير، حين كنا أطفالًا، نلعب بالقرب من النار أو نمسك قطعة خشب مشتعل.

لطالما أدهشني حدس أمي. أتذكر في مرات أخرى جاءت فيها إلى مستشفى الملك جورج السادس في أشد أوقات حاجتي إليها. والآن أنقذتنا من التسمم بكربون الأكسيد الأحادي. وهكذا لم تود سماع أي شيء عن نومي في بيتٍ جداره حجري بعدئذ.

عادة ما نتجادل أنا وكينيث، أخي الآخر بالشعيرة، في أحداث العالم، لكننا نقارن غالبًا ملاحظاتنا عن أدائنا ونتساءل عن نتائج الامتحانات، نحنّ على بعضنا من وقت لآخر. لكن بعد أيام من هذا، قلنا لأنفسنا يستحسن أن ننسى أمر النتائج. لذا استأنفنا جدالاتنا التأويلية بشأن الكتابة والسجن، كلانا متمسك بموقفه ونظرته. يذكّرني أنه سيكتب كتابًا يثبت به خطئي. لكن لم يقل إن بدأ أو متى سيبدأ. فاستمر الجدال، عن الكتب، عن البلد،

عن العالم. لا يبدو أننا نتفق على أي شيء، ومع ذلك نستمر في اللقاء والجدال.

نذهب أنا وهو في الآحاد إلى "كاماندورا". يحمل معه ترجمة إنجليزية للكتاب المقدس من القطع الصغير، ونتشاركها. يقرأ الواعظ من إنجيل بلغة "الغيكويو" فيما نتابعه من الإنجيل الإنجليزي. نحن نفهم "الغيكويويّة" تمامًا، كما نقرأها بطلاقة، لكن بدا فعلنا هذا طبيعيًا على نحو ما.

يوم الأحد في كانون الأول من عام 1954، بدلًا من العودة إلى البيت بعد كنيسة "كامندورا"، قررنا الذهاب لقداس في الهواء الطلق في "نديبا"، على بعد ستة أميال من البيت. يُعقد قداس الهواء الطلق بعد القداس الرسمي داخل الكنيسة، صار عادة الآحاد. لا تدخل الفعاليات فيه تحت مظلة أي طائفة كنسيّة. يشدد على العلاقة الشخصية مع الرب أكثر من التحالفات الطائفية. كانت هذه المناسبات بمثابة لقاءات إحيائيّة، حيث يمكن للعامي الوقوف والمشاركة في المواعظ والصلوات.

تزامن هذا مع حركة أصولية اجتاحت البلاد قبيل إعلان حالة الطوارئ. الآن يبدو أن هذا التوجّه اشتدّ باعتباره بديلًا للدولة الاستعمارية وحركة "الماو ماو". "المسيح منقذي الشخصي" كانت هذه لازمة العديد من معتنقيه. أغرم بها الشباب، أتذكر كيف تخلّت الفتيات بعد خلاصهن بها عن زينتهن مثل سلاسل الخرز والأقراط. أما بالنسبة لأولئك المنتميات إلى عوائل ميسورة ترى أنها متحضّرة، فالخلاص يعطيهن حرية صحبة الآخرين، بمن فيهم الرجال، لأن المسيح لن يجعلهن ضحايا للغواية الأرضية الماديّة. لا أدري لم يغنون بلغة "الغاندا: **Tukutendereza Yesu, Yesu we Mlokozi**" (نسبّح المسيح، المسيح المخلّص)، لكن ربما لأن الموجة الأصولية ذات أصول في "أوغندا" بجانب "راوندا". عاد القلق والتقييدات إلى السطح حين أصبح الحمل العرضي وغير المرغوب به متكررًا، كما لم يقلل أي

قدر من الاعتراف أو لوم الشيطان من الهموم الوالدية.

كان قداس الآحاد في الهواء الطلق شائعًا لأنه أحد التجمعات العامة القليلة التي لا تتطلب رخصة من الدولة. قد يمكننا القول إنهم يلتقون بموافقة الدولة لأنهم يلتقون من أجل المسيح لا من أجل كينياتا، من أجل الخلاص من الشر لا من أجل الخلاص السياسي من علل الاستعمار.

كان يومًا مشمسًا، والقداس والغناء جميلان. لدى بعض الوعاظ طريقة لتأويل آياتٍ من الكتاب المقدس على نحو يُعقلِن ما يحدث حولنا. علامات الحرب، والجوع والنزاع والأنبياء الزائفين الذين أنبأ بهم الكتاب المقدس من يسبقون قيامة المسيح الثانية. ترفع بعض الطقوس والأغاني معنوياتي، تحرّرني من قلقي الذي أحمله. ثم في منتصف الظهيرة حين بدأنا جولتنا عائدين، بدلًا من العودة من الطريق الذي جئنا منه، سلكنا الطريق الذي ظنناه مختصرًا عبر غابة "نغويروبي". لا أدري أكنا نناقش القدّاس أو نتجادل بشأن الكتابة، أو عن سرديّتي التي أجمعها من قطع الصحف، لكن مهما تكن المسألة فقد سمعنا فجأة أمرًا بالتوقف.

أمامنا ضابط جيش أبيض يرتدي بزة التمويه العسكري، موجهًا إلينا بندقيّة. أومأ لنا كي نضع أيدينا على رؤوسنا ونمشي ببطء إلى حيث يحتشد الآخرون. حينها رأينا أمامنا أشخاصًا جالسين على أوراكهم، وأيديهم خلف رؤوسهم. لم يكن الضابط بمفرده. في كلتا جهتي الغابة ميّزت عيونًا عديدة من الأفراد العسكريين. يحرس الآخرون منهم الحشدَ الجالس بالبندقيّات وكلاب من فصيلة الراعي الألماني. فيما قعدنا، وجدنا أن العديدين من المقبوض عليهم مثلنا، كانوا في القداس الديني. ركنوا بجانب الغابة مركبة عسكرية مخضرة ومركبة أصغر، سيّارة "جيب"، على بعد ياردات من المجموعة. أمسك بي أنا وكينيث في حملة فحص جماعي سيئة السمعة.

يُصنّف الخاضعون للاستجواب إلى ثلاثة تصنيفات: السيئون، الأسوأ منهم، والأسوأ على الإطلاق. يحرس مجموعة الأسوأ على الإطلاق ضابط أبيض بدين معه كلب من فصيلة الراعي الألماني ويبدو خطرًا، يلهث كأنه متعطش للدم. حتى وأنا على مسافة من الحيوان انتعش الهلع الذي شعرت به مع كلب آل كاهاهو. حين جاء دور كينيث، صنّف مع السيئين. كيف لرجل أبيض أن ينظر لرجل منّا في وجهه ويقرر لأي مجموعة ينتمي؟ اكتشفت الإجابة حين جاء دوري. ثمة خيمة بقرب "الجيب" يجلس فيها رجل ملفوف من أعلاه إلى أسفله بقماش أبيض، فيه ثقبان لعينيه. هذا "**الغاكونيا**" المخيف، الرجل ذو القلنسوة. من المخيف أن يرمقك بعينيه من خلف قماش يحجب وجهه. ظننت أنهم بعد الانتهاء مني سيضعونني في مجموعة كينيث إذ من الواضح أنني أرتدي زيًّا مدرسيًّا مثله.

لكن ويا للمفاجأة، وضعت في التصنيف الثاني ضمن الأسوأ، من يجب عليهم أن يجيبوا عن المزيد من الأسئلة. في الجولة الثانية، يقسّم المشتبه بهم إلى الأسوأ أو الأسوأ على الإطلاق، ويؤخذ أفراد التصنيف الأخير إلى معسكرات الاعتقال. حافظت على هدوئي قدر ما أمكنني، لكنني أغلي بالخوف من الداخل. فأنا أدرك الحمل الذي أحمله. ماذا سأقول إذا سئلت عن أخي والس موانغي؟ وزيارته الأخيرة والوحيدة شاخصة في ذهني. أشاهده أحد وهو يزورنا؟ بقدر ما أعرف، لم تُستجوب أمي وزوجة أخي بشأن الزيارة.

وقفت أمام الضابط الأبيض بقرب الرجل ذي القلنسوة. سألني إن كنت أفهم الإنجليزية فقلت نعم، آملًا أن يقابل هذا برضاه.

"أين كنت؟"

"في قداس مسيحي في الهواء الطلق".

"قل أفندي"، صاح.

"أفندي".

"لأي مدرسة تذهب؟"

"متوسطة "كينيوغوري". التابعة لمديرية تعليم المنطقة. قمت باختبار (KAPE) وأنتظر النتائج".

"ألديك إخوة؟"

"نعم".

"قل أفندي"، قال.

"نعم، أفندي".

"كم عددهم؟"

"لأبي أربع زوجات. لدي حوالى عشرة..."

"قل أفندي".

"عشرة، يا أفندي".

"هل كل إخوتك في البيت؟ وماذا يفعلون؟"

"يعمل اثنان في خدمة الحكومة"، قلت، مفكرًا في جوزف كاباي وتومبو، متجاهلًا السؤال الأول. "أحدهما، جوزف كاباي، كان "كي إي آر"، جندي حارب تحت راية الملك جورج في الحرب العالمية الثانية"، أضفت، لأبين له ارتباطاتنا البريطانية.

لكنني نسيت أن أقول "أفندي" حينها أحسست بالصفعة على وجهي عوضًا عن رؤيتي لها. ترنّحت لكنني استطعت البقاء واقفًا على قدمي.

"قل أفندي!"

"نعم، أفندي!" قلت والدموع على زاوية جفني. كنت حينها رجلًا، لا يفترض بي أن أبكي. على الرجل أن يحارب أيضًا، ويدافع عن نفسه وما يملك، لكنني لم أستطع أن أبدي أدنى لمحة من الدفاع عن النفس.

لسبب ما اعتبر امتناعي عن البكاء أو الصراخ تحديًا، فأمطرني باللكمات. سقطت. لم أعرف أيجدر بي أن أقف أم أظل على الأرض، لكن حتى اللاقرار هذا يبدو أنه زاد من غضبه.

"سيماما، انهض".

وقفت، وأنا أرتعد خوفًا، خصوصًا حين رأيت الضابط يأتي إلينا بكلبه، كأن دوره قد حان ليتعامل معي. قال شيئًا لمعذبي ثم عاد لقطيعه. ربما تشاورا في شيء لا يتعلق بي، لكنني بقيت مرعوبًا.

تحدث معذبي مع الرجل ذي القلنسوة لبعض الوقت. ثم عاد إلي.

"ألديك إخوة ليسوا في البيت؟"

رفرفت الفراشات في بطني. أيجدر بي أن أكذب؟ قررت أن أماطل لأكسب وقتًا.

"عفوًا، أفندي! ماذا قلت؟"

"ألديك إخوة ليسوا في البيت؟"

لا فائدة من المماطلة أو الكذب. سأقول كذبة فيها شيء من الصدق وأتمسك بها.

"لدي واحد ليس هنا، أفندي".

"ما اسمه؟"

"والس موانغي".

"أفندي!"

"أفندي!"

"أين هو؟"

تذكرت وصية أمي فقلت: "لا أعلم، أفندي. فهمت أنه هارب"،

"إلى أين؟"

"كنت في المدرسة حين هرب، ولا أحد يعرف أين هو".

"هل جاء في زيارة؟"

"لا، أفندي" قلت دون تردد. كنت أفكر في إضافة أننا نخاف أن الحكومة قد قتلته، لكنني أوقفت نفسي. تشاور ثانية مع ذي القلنسوة. من الواضح أن اعترافي بمعرفة القليل المعروف للجميع عن أخي قد أنقذ الموقف. حين عاد، أشار لي كي أتحرك إلى مجموعة السيئين الذين سمح لهم بالمغادرة سريعًا.

كنت أرتجف جرّاء تجربتي المؤلمة، لكنني فخور قليلًا لأنني أمسكت عن البكاء. مشيت مع كينيث صامتين، لا نجرؤ على النظر وراءنا. حتى حين سمعنا طلقات وصرخات خلفنا، لم نلتفت. لم أعرف قط ما الذي حدث لأولئك الذين بقوا وراءنا. كان بوسعنا أن نخمن وحسب، لكننا أيضًا احتفظنا بتخميناتنا لأنفسنا.

من الجلي، على أية حال، أن الرجل خلف القلنسوة من أهل "ليمورو"، وهو على الأرجح جار لأولئك الأشخاص الذين يرسلهم إلى موتهم أو مخيّمات الاعتقال. رغم أنني أرتجف لكنني مرتاح لأنني لم أضطر لقول أكثر مما قلت.

لم يكن لدي أنا وكينيث الكثير لنقوله عمّا حدث للتو أو عن أي شيء آخر. كانت مثل هذه الأحداث شائعة بتفاصيل منوّعة، لكن تلك هي المرة الأولى التي نكون فيها ضمن طاقم الحدث. ولأننا عوملنا فيه على نحو مختلف ربما قد نشأت بيننا مسافة ساهمت في ذلك الصمت. وقد تهنا في أفكارنا الخاصة، فلم نستوعب أن نتوءًا قد تبقى لنا كي نتسلّقه لنكون في بيوتنا. يلزم كلانا بعض الوقت لنستوعب ما شهدناه.

كان الوقت لا يزال في أوّل الظهيرة المبكرة فقررنا أن ننعطف إلى "مانغو" لنرى إن كان بوسع السيد كيبيشو، الناظر، أن يعيرنا كتبًا، حتى ونحن لم نعد طلابًا في مدرسته. لم تشيّد بعد منازل طاقم "كينيوغوري"، لذا يمكث

الأساتذة في منازلهم القديمة في "مانغو". وإن كان الغطاء الذي منحناه أنفسنا هو استعارة الكتب، فإن ما تحت هذا هو أملنا أن يكون السيد كيبيشو قادر على أن يخبرنا بشيء، أي شيء، عن اختباراتنا. لم يكن في بيته. لقد نسينا أنه يعود إلى بيته في "نييري" خلال العطلات.

أخذنا الطريق الذي يمر بنائب الناظر، ستيفن ثيرو، ونحن خائبان. لا بد أنه رآنا مع النافذة، لأنه خرج عند الباب ونادانا. ثم دعانا إلى الداخل. بعد تعذيب اليوم، لمن الطيب أن نحظى بكوب شاي في منزل معلمنا.

"كينيث،" قال مستفتحًا مبتسمًا، "لقد اجتزت الاختبارات".

كانت مفاجأة غير متوقعة. ماذا عنّي؟ تساءلت. لكنه لم ينظر إليّ.

"لكننا لا ندري أي ثانوية قبلتك"، أكمل، وعيناه لا تزالان على كينيث.

لا أدري أكان كينيث سعيدًا أم لا. لكن عضلات معدتي تشنّجت. هل رسبت أنا؟

"أما أنت، فقُبلت في ثانوية "ألاينس"، فهي تعلن القبول مبكرًا قبل غيرها". قال لي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

لم **أعرف** كيف أتعاطى مع اليوم بتطرفه في الحسن والسوء. لم أتشرّب الخبر. لم أعرف كيف أستمتع به. حتى حين بلغت البيت وقلت إنني اجتزت اختبار "كي أيه بي إي" وقُبلت في ثانويّة "ألاينس"، سألتني أمي سؤالًا واحدًا: هل هذا هو الأفضل؟ ولم أقل ما أردت قوله حقًا -إذ إن هذا أكثر، أكثر بكثير مما توقعت. في الواقع، لم تكن ثانويّة "ألاينس" خياري، لا بد أن السيد كيبيشو قد أضافها ضمن خياراتي في أوراق التقديم. أما الآخرون، زوجة أخي، وأخواتي، وأخي الصغير، فقد سمعوا بمدرسة "ألاينس" هذه للمرة الأولى. لكن نجاحي والتحاقي بالثانويّة قد أسعدهم. انتشر الخبر في المنطقة. كنت الوحيد من "ليمورو" كافة الذي قبل في مدرسة "ألاينس" تلك السنة. لكنني ببطء، ببطء شديد، تصالحت مع مصيري، خصوصًا بعد أن جاء القس ستانلي كاهاهو وقال لأمي إنني أحسنت صنعًا. تشرّبت الخبر حين قصدت السيد كيبيشو لاحقًا وبارك لي وأخبرني بأن ثانوية "ألاينس" هي أفضل ثانويّة في البلاد، وأنها تقبل الأفضل، ثم أعطاني باقة تحتوي معلومات عن التعليم فيها، والملابس، وأشياء أخرى.

حان بعدها دور الواقع الوحشي. لا تستطيع أمي تحمل كلفة التعليم، كلنا نعلم هذا. فأخي الذي كان في وظيفة ليساعدنا أصبح في الجبال! انتشرت شائعة تقول إن الأثرياء وموالي الحكومة سيكتبون لها كي تمنع شقيق مقاتل "الماو

ماو" من الالتحاق بمدرسة مرموقة. لم أعرف كيف أتعامل مع الشائعات التي فاقمت من شكوكي في إمكانية مواصلة التعليم. لماذا، لماذا يود أي شخص أن يحتشد ضدي مع آخرين في حين أني عملت جاهدًا لأنال ما نلته؟ تذكرت كل الأيام والليالي التي أنجزت فيها واجباتي أو قرأتها في ضوء نار يومض، والليالي التي لم أستطع فيها أن أقرأ لغياب "البارافين" والحطب.

جاءت المعونة من شخص لم أتوقعه أبدًا: نجايرو، وهو رئيس عينته الحكومة عرف بأقسى مشرف، فهو مراقب يوقع العقوبات على المتخلفين عن العمل الجماعي وحضور "البارازا"، قائد فرقة حماة الوطن المكروهة الشهير، التي ستقتل أخي حالما تراه. لقد وضع حدًّا للشائعات. لن تمنعني أي قوة من الالتحاق بثانويّة "ألاينس". لقد قصد إخوتي العلّات شخصيًا ليؤكد لهم أهمية ما أفعل. تبرّع بعضهم طواعية بنصيبهم من المال، كما ضغط نجايرو بشدّة على أولئك المترددين.

جاءت التبرعات من هنا وهناك، فبات معي في المحصّلة الرسوم المبدئيّة المطلوبة، لم تكن تغطي العام الدراسي كله، لكنها مناسبة مبدئيًا، لن أقلق من عقبة المستقبل ما لم يحن وقتها. بات لدي طقم ملابس جديد وصندوق خشبي. صار لدي كل ما أحتاجه، حسنًا، أعني تقريبًا. لا يزال ضمن المتطلّبات زوج حذاء وجوارب طويلة، ولا أجد مالًا كافيًا لها. يمكن للمرء أن يطلب تبرعات لأمور كبيرة كالتعليم: فالتعليم طالما اعتبر هدفًا شخصيًا وجماعيًا. لكن جمع المال من أجل الأحذية والجوارب؟

لم أرتد زوج أحذية ولم أمتلكه في حياتي، غير تلك المرة التي جربت فيها بنطال أخي الكبير وحذاءه، كلاهما أكبر مني، وقد أمسك بي أتبختر في الفناء، وأخي الصغير يصرخ طالبًا دوره. لكن حين نُهرت بخشونة، ضحك

مني أخي الصغير. عدا ذلك فقد مشيت حافيًا طيلة حياتي. كان ترقّب ارتداء الحذاء لأول مرة في حياتي كثيفًا بكثافة ترقبي قبل سنوات حين ابتاعت لي أمي أول قميص وسروال لمدرستي الابتدائية في "كامندورا". أما الآن فزوج أحذية يقف عقبة بيني وبين المدرسة الثانويّة.

جاءت أختي نجوكي لتنقذني. نجوكي هي الأهدأ في منزل أمي. كانت كثيرًا ما تمعن التفكير في الأمور. لم تحسن لها الحياة. ثمة زمن أحبت فيه سائق جرّار زراعي من "نجيكا". كان من القوة العاملة في إنشاءات نفق "ليمورو" تحت أرض يملكها السيد بوكستن، وهو أحد الجنود الذين استوطنوا في المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى. في زمن ما قبل النفق، يستغرق القطار وقتًا طويلًا ليلتف على التل. حفْر النفق بعد الحرب العالمية الثانية خلّف كافة أنواع الشائعات -قيل إن البيض يتدخّلون في نظام الطبيعة، وإنهم يخططون لأمر خبيث ضد الأفريقيين، وإلا لم تحف المسألة برمتها هذه السريّة؟ مع ذلك، ثمة هيبة للعاملين في المشروع، خصوصًا السائقين. سعدت أختي حين زار سائقها منزلنا وتحدث عن "الديناميت" المستخدم لتفتيت الصخور. تحدّث عن الخطر الذي يواجهه يوميًا بل قال حتّى قُتل بعض الناس بسبب مسألة الصخور "والديناميت". أسرت شجاعته والأخطار التي تحدق به نجوكي أكثر. باتت منتعشةً أكثر: كانت تضحك وترقص. لكن حبها لم يلق موافقة أخي والس. أقنعها هو وأصدقاؤه بالعدول عن الزواج من الرجل الذي اختارته، وبدلًا منه تزوجت خاطبًا أغنى يملك شاحنة ولديه عقد لإمداد المُرام لإصلاح الطريق. صار الزواج مرًا وانتهى بالطلاق. لقد فقدت حبّها الأول، سائق الجرّار، خلال هذا. اجتمع خبر مقتله تحت انهيار صخري في النفق عليها مع زواجها الفاشل وسلبا منها متعة الحياة. غادرتها الضحكة. كسبت مالًا، وهو ليس كثيرًا، بالعمل في مزارع الشاي وراء السكة أو في حقول

حشيشة الحمى لكاهاهو.

وهبت كل ما تملك كي تبتاع لي زوج الحذاء والجوارب المطلوبة. لقد تأثرت بهذا. بدلًا من قول شكرًا لكِ، قلت لها إنني آسف على المرة التي لاحقتها فيها في حقول حشيشة الحمّى بحرباء على عود. مثل عديدين في المنطقة، كانت تخاف حد الموت من الحرابي. شعرت دائمًا بالذنب جرّاء هذه الحادثة، لكن من الواضح أنها نسيت الأمر تمامًا، وقد استغرقت ثوانيَ لتستوعب ما تحدثت عنه. ثم انفجرت ضاحكة، ضحكة مجلجلة من الأحشاء. لمن الرائع رؤيتها مبتسمة، والكآبة تغادر وجهها، لمن الرائع رؤية مبلغ جمالها حقًا، وتذكرت دائمًا كلما انتعلت الحذاء تلك الابتسامة والضحكة.

حزمت كل شيء في الصندوق الخشبي. ثانوية "ألاينس" مدرسة داخلية: سأجيء للبيت خلال العطلات وحسب. أنا مستعد للذهاب. تمنيت أن لدي طريقة لقول "وداعًا" لوالس موانغي، أخي المقيم في برد الجبال، لكن لا شك في أنه سيتلقى الأخبار بنفس الطريقة التي عرف بها عن اختباراتي في "لوريتو".

ثمة شخصان آخران لا بد أن أراهما قبل أن أغادر. جدّي، بصرف النظر عما حدث بيننا، فهو الجد الوحيد الذي بقي لي، وقد سُميت عليه، أمي ابنته، لكنها أيضًا ابنتي الرمزية بحكم الاسم. قصدته في الظهيرة، وهو جالس على مقعد في شرفة منزله. طلب من موكامي أن تجلب لي مقعدًا. جلبته وألحقته بكأس من الحليب الساخن. أخبرته بالخبر، مع أنني أدرك أنه يعرفه إذ كنت أحدوثة المنطقة لأسابيع. شعرت أن زيارتي خلّصته من عبء داخلي.

"لكنك ستأتي لرؤيتنا في عطلاتك"، قال. ثم عاجزًا عن إخفاء مشاعره، ابتسم، ونادى زوجته، بصوت عالٍ، وأكمل: "أعرف أن بوسعه القراءة. يمكنه أن يكتب ما في ذهني تمامًا. فهو يعطي شكلًا لأفكاري. أتمنى لك التوفيق.

واصل إحكام قبضتك على القلم". أومأ كأنه يبصق على صدره، إشارة إلى إغداق النعم. ثم أخبر موكامي لتجلب "تلك الحزمة" فتبيّن أنها محفظته. أعطاني بعض النقود لأبتاع لنفسي شيئًا في طريقي إلى المدرسة. شعرت أنني بخير. لقد وثق بي وبقدراتي فيما مضى فكنت ناسخه وطير فأله.

أما الشخص الآخر فهو أبي! رغم أنني لم أقر بهذا لنفسي، فأنا مغمور بحس اغتراب، ولا أزال أحمل معي صورة مواجهتنا الأخيرة البشعة. لا بد أن أراه: لا أدري ما الكلمات التي ستمر بيننا، لكن هذه الفكرة العابرة باتت بغتة رغبة لا تقاوم. حين خطوت بقدمي داخل المساكن، التي كانت أرض لعبي في النصف الأول من طفولتي، شعرت بتزايد نبضي. أنا عائد إلى العزبة القديمة للمرة الأولى منذ طردي. لا يزال كوخ أمي السابق قائمًا، لكن نباتات خضراء تسلقت رفه وجدرانه، معلنة بوضوح أنه مهجور. راح ذهني يجري للبدايات، لألعاب طفولتي. كان يومًا مشمسًا، لكن لسبب ما خطرت في ذهني أغنية اعتدنا غناءها احتفاء بالمطر، وأصوات قطرات المطر الصاخبة على أسقف القش، ونحن نجري إلى بيوتنا.

لتهطل أيها المطر
أهبك قربانًا
عجلًا بأجراس
يصدح دِنغ دُنغ

عادت من الماضي صور فوق صور، دموع وضحكات. رحّب بي كل أخوتي في البيت. دخلت أولًا كوخ وانغاري، أصغر الزوجات، وقبل أن أرتم بكلمة قالت وابيا، أختي العلة العمياء: "هل هذا نغوغي؟" نعم، إنه أنا، قلت،

بابتسامة لا تستطيع أن تراها، لكنها ابتسامة عريضة. عاد إليّ في هذا الكوخ مشهد فعاليات القصّ الليليّة، والألغاز والحكم ونقاش القضايا الوطنية والعالمية. أسفت وانغاري لأن ليس لديها طعام تقدمه، لكن بوسعها أن تعد لي عصيدة كانت تعدها لي في ما مضى. "لا، لا، ليس ضروريًا" قلت، وودّعتها هي وابيا. ثم ذهبت للمنزل الثاني، لأمي الثانية، غاسوكي. لم تكن امرأة كثيرة الكلام، لا تزال خجلة، لكنها أقدمت على السؤال، هل مدرسة "ألاينس" في بلد آخر؟ تعتبر هكذا نوعًا ما، لكنها سعيدة بزيارتي. وأخيرًا ذهبت لمنزل نجيري. لا تزال كما هي، قوية البنية، كثيرة الكلام، توبّخني لأنني لم أخبرها بمجيئي، ولهذا فهي ليست مستعدة وليس لديها ما تقدمه لي. لكنها قدمت البيض الذي بوسعي أن آخذه إلى المدرسة. "لا، لا" قلت، وأنا أفكر في أيام "**بونو ماياي**".

قصدت أبي أخيرًا. كان يجلس على مقعد بداخل كوخ نجيري. ليس لدى أبي ما يقوله غير: أحسنت صنعًا وتحفّك البركات. أعلم أنه تلقى التهاني من الكبار الآخرين على إنجاز ابنه، لكن الخجل يمنعه من قول ما هو أكثر. أعلم أن ليس لديه ما يعطيني إياه ولم يقدم شيئًا بسيطًا حتى، فهو في وضع صعب. لكنني لست هنا من أجل النقود أو الهدايا. بزيارتي أردت أن أهدِّئ من نفسي، لم أود بدء حياة جديدة بسخط في قلبي. كانت زيارتي هي طريقتي لأقول له رغم أنه لم يطلب المغفرة، فأنا أسامحه. مثل أمي، أؤمن أن الغضب والكره يجعلان القلب يتآكل. أردت أن تتحدث أفعالي عنّي، أردت أن تكون أفعالي الخيرة هي اقتصاصي الوحيد. لم نقل الكثير. لكن فيما تأهبت للمغادرة، نهض وخطا خطوات باتجاهي. ثم فعل أمرًا لم أره يفعله قط: أخذني إلى مكب النفايات، وقال لي أن أحذر من النباتات الشوكيّة، ذلك النوع الذي ندعوه "**ثاباي**". وقفنا هناك ننظر إلى المنحدر الذي أعرفه جيدًا، المنحدر الذي

شاهدت أخواتي وإخوتي وأمهاتي يعبرونه للعمل في مزارع البيض وينتشرون منه. التل الذي بوسع المرء أن يسمع منه صافرات مصنع أحذية "باتا ليمورو" المبني في 1938. طيلة تلك السنوات، حافظت الصافرة "كينغورا" على المواعيد، معلنة بداية يومنا جميعًا: صافرة الصباح تعلن انبلاج اليوم، وهنالك صافرة منتصف اليوم، وفسحة الظهر، وآخر واحدة، عند حلول الليل. نتحدث عن زمن ما قبل الصافرات وما بعدها. هذا نفس التل الذي ادّعت والدتي أنها شهدت منه الأشباح الهندية التي تحمل المصابيح في أيديها وتتجوّل في الظلام. نعم، دارت هنا العديد من الذكريات، كتلك القرصة من نبات القراص، واختباء كلابنا في الحشائش حول مكب النفايات وإعادة أمي لها إلى المتاجر الهندية! حتى والدي استغرق في أفكاره كأنه يمسح ذهنيًا تلك الأراضي التي تملكها يومًا والمساحة التي قطعها منذ هروبه من "مورانغا"، أو رحلته منذ ولادته قبل أن تصبح كينيا هي كينيا، قبل أن تكون هنالك "نيروبي" أو "ليمورو" أو أي بلدة وراء الشاطئ، رحلته عبر الحربين العالميتين الأولى والثانية وحدب "الماو ماو" الآن فيما يتحارب أبناؤه ضمن جبهتي الصراع. تمنيت لو كان بوسعي أن أقول له: أنت تفكّر في هذا، أبتي، لكنني لم أقل. كسر الصمت بحديث ليس عن الماضي. قال أخيرًا بنبرة محايدة: لقد أحسنت صنعًا. الطريق طويل، وثمة حفر ومطبّات. ستقع أحيانًا، لكن المهم أن تنهض وتواصل المسير. شعرت أنه يقول هذا لنفسه أيضًا. شكرته في قلبي، صرت حرًّا، لم أعد سجين الغضب والسخط بعدئذ.

كل شيء جاهز. ذهبت لرؤية صديقي كينيث. لقد قُبل في مدرسة تدريب المعلمين في "كامبوي". معه موريغ تشيغ، وموتوري نديبا، وكاميري ندوتونو، كل زملائي. "كامبوي" هي مسقط رأس هاري ثوكو، التي كانت مقر جمعية البعثة الإنجيليّة قبل أن تندمج مع كنيسة بعثة أسكتلندا لتكوّن الكنيسة المشيخية في 1946. خاب أمل كينيث لأنه لم يقبل في مدرسة ثانويّة، لكنه لم ينس أن يذكر جدالنا عن الكتابة والسجن. لا أزال عازمًا على كتابة ذلك الكتاب، قال، لأثبت لك خطأك بشأن رخصة الكتابة.

أخبرتني أمي أنها لن ترافقني لمحطّة القطار. قالت لي: "كن بخير، ابذل أفضل ما لديك دائمًا، وستكون على ما يرام". اكتشفت أن في ذلك اليوم سيعود إلى "غيكويو" كلٌّ من ليز نيامبورا، وهي طالبة تدرس السنة الأخيرة في ثانويّة "ألاينس" للبنات، أعجوبة الرياضيات في أيامي المبكرة في "كامندورا"، وكينيث وانجاي وا جيرميه، كلاهما متفوّق في ثانوية "ألاينس". انضممت إليهما في محطة القطار. رافقتني أخواتي، وزوجة أخي، وأخي الصغير للمحطة.

كان رصيف السكّة مكتظًا، لكن ليس باكتظاظه في تلك الأيام حين كان رصيف سكة حديد "ليمورو" مركزًا اجتماعيًا. أتذكر الأيام التي ركض فيها إخوتي وأخواتي على المنحدر من منزل أبينا ليصلوا مع قطار ركّاب الثانية عشرة إلى "كامبالا" أو "كيسومو". أوه، كم كنت أحسدهم، وأتأمل مجيء

اليوم الذي أصبح فيه راشدًا فيصبح بوسعي مسابقة الشبان والشابات إلى محطة السكك الحديدية! والآن ها أنا هنا، لا لأرى القطار يأتي ويذهب، بل لأستقله.

يفترض كل الحاضرين أنني متحمّس من أجل مدرستي القادمة، أخي الصغير وحده من يعرف شعوري الحقيقي. لأول مرة في حياتي سأصعد قطار الركّاب. تذكرت الوقت الذي لم أصعد فيه القطار إلى "إلبورغن". تذكرت حين كان أخي، الذي صعد القطار حينها، يلمّح لعجائب ركوب القطار ليخبرني أنه متقدم عليّ بنقطة. علم أنني أغار من إنجازاته. لكنه لم يعلم أني أحسد جون وجاون، طالبي المدرسة المتخيلين اللذين يعيشان في "أُكسفورد" ويذهبان بالقطار للمدرسة في "ريدنغ". حان دوري، فاليوم أقوم أنا بالشيء نفسه، أستقل قطارًا للمدرسة، لثانويّة "ألاينس" في "غيكويو"، وهي مدرسة داخلية، تبعد اثني عشر ميلًا. شعرت كأنني على وشك صعود قطارٍ إلى الفردوس. هذه المرة مميزة. سأواصل أحلامي في حقبة حرب.

وأخيرًا وصل القطار. ذهبنا للعربات التي لم يكتب عليها "للأوروبيين فقط" أو "للآسيويين فقط". لم تكرّم عربات الدرجة الثالثة بعبارة "للأفريقيين فقط". دخل واناجي وليز وآخرون وفيما يدخلون أظهروا قطعة ورق لمسؤول أوروبي في السكة الحديديّة. جاء دوري. أوقفني المسؤول. معك تذكرة؟ أي تذكرة؟ طلب أن يرى تذكرة تتيح لي الانتقال من "ليمورو" إلى "غيكويو"، التي تبعد اثني عشر ميلًا فقط. هذا قانون جديد تحت حالة الطوارئ. لا يسمح لأحد من مجتمع "الغيكويو" أو "الإمبو" أو "الميرو" بصعود القطار دون تذكرة عبور حكوميّة. لكن لا شيء من هذا ذكر في أوراق معلومات المدرسة. لم تُجد تدخلات وانجاي وليز نيامبورا نفعًا. التوكيد الوحيد الذي أعطاه وانجاي أنه سيخبر المدرسة بالحادث المؤسف. لكن لم تؤثر كلماته بي، فلا يمكنهم شفاء الجرح الذي انبثق في قلبي. آنذاك ثمة ضجيج حولي، من أشخاص

مختلفين يطرحون آراءً مختلفة.

وقفت هناك على رصيف سكة الحديد وأمتعتي معي وأنا أشاهد القطار يغادر حاملًا أحلامي لكن من دوني، حتى اختفى. ذرفت الدمع. لم أرغب في ذلك، فأنا رجل، لا يفترض بي أن أبكي، لكن ليس بوسعي إيقافه. لم يُبكني الضابط الأبيض الذي أوسعني لكمًا، لكن هذا المسؤول الأبيض، مسؤول السكة الحديديّة، الذي رفض أن أصعد القطار أبكاني. أولئك الذين رثوا لحالي بحاجة من يرثي لحالهم. لا أدري كيف ستتلقى أمي هذا الخبر، إذ إن حلمي هو حلمها.

ثم تقدّم من العدم إلى المشهد مساعد أفريقي في محطة القطار. لا بد أن أحدًا ذهب ليرجوه. علمت أن اسمه كريس كاهارا. بعد سنوات، أي بعد الاستقلال، أصبح محافظ مدينة "نيروبي". لكنه آنذاك مجرد مساعد مدير المحطة ببزته الرسمية البيضاء، وهي معطف أبيض على بنطال أبيض. أخبرني أن أكف عن البكاء، سيفعل ما بوسعه ليضمن ذهابي إلى "غيكويو". سأفوّت على الأرجح الحافلة للمدرسة. لكن بوسعي أن أقطع أهوار "أونديري" ركضًا كي أبلغ أحلامي. قبل أن ينهي حديثه، جاء قطار بضائع. ليس قطار ركّاب حسن المنظر كما أملت، لكنني تبعته حتّى العربة الأخيرة. قام ببعض الترتيبات، فصعدت العربة. محاطًا بعدّة العمّال وأرديتهم، أشم عرقهم لكن لا يهم. ليس للعربة نوافذ وهكذا لا أرى الطبيعة. بدا كأن الرحلة تمتد لآلاف الأميال، وأنا مخدر بالخوف من أن أمرًا سيعيقني عن اللحاق بأحلامي.

وصلت أخيرًا إلى محطة "غيكويو". افتتحت مثل محطة "ليمورو" في 1899. فتح أحدهم الباب الخلفي لي، تظاهر بإلقاء نظرة على العدة، تمتم بشيء مثل "ها هنا"، ثم قفزت خارجًا، بصندوقي. ابتسم الرجل، أغلق الباب، وغادر.

وقفت على رصيف المحطة هناك أشاهد قطار البضائع يغادر، هذه المرة

بارتياح وامتنان. التفتّ فرأيت بعض المتاجر. سحبت صندوقي إليها. لم أصدق أن هذا مركز تسوق "غيكويو"، يتكوّن من صفّين من المتاجر الهندية تشبه تلك الموجودة في "ليمورو"، لكنّها أقل. غير أنني لست مهتمًا بالتجار الهنود خلف منضدات البيع أو المتسوقين الأفريقيين. ربما تغلّبت على عقبة، لكن ثمة عقبة متبقية تقلقني.

ورقة المعلومات التي وصلتني قالت إن حافلة المدرسة ستقابل الطلاب في المحطة. أنا متأخر. لا بد أن الحافلة جاءت وغادرت دوني. لا أعلم عن المسافة لموقع المدرسة، توجّهت لغريب نظر إليّ بارتياب ثم أشار للطريق، غمغم بشيء عن عبور أهوار "أونديري"، ومشى. علي أن أخوض أهوار "أونديري" كما كنت أفعل مع أهوار "مانغو"، غير أني آنذاك لم أحمل شيئًا أثقل من بيضة طير أو ملابس مبتلة. الآن معي صندوق ممتلكاتي. ثم تذكرت قصة "أونديري" التي قرأتها في "**محبوب النّاس**" وقصص نغاندي عن أناس يختفون في المستنقع ولا يظهرون ثانية. هل هذه "أونديري" نفسها؟ لا، لن أعبر مستنقع "أونديري" مهما يحدث. سألتزم بجانب الطريق.

حين أوشكت على المشي تجاه الطريق الذي أشار إليه الغريب، جاءت الحافلة للآخرين عند قطار "مومباسا"، الذي وصل في تلك اللحظة. مشيت إليها. فحص المعلم، الذي علمت لاحقًا أنه وكيل الناظر، السيد جيمس ستيفن سمين، اسمي في قائمته ثم أخبرني أن أصعد، فيما يصعد الآخرون.

بعد أن صعدت إلى الحافلة وجلست على المقعد، حينها فقط أطلقت تنهيدة ارتياح وتجرأت على النظر إلى الأمام. هذا عالم جديد. رحلة أخرى. بعد دقائق، عند تقاطع طريق "غيكويو"، رأيت لوحة بحروف مفرقة بدت كأنّها تخاطبني، حتى ظننت أنها لا بد لي وحدي. "أهلًا بكم في مدرسة "ألاينس" الثانويّة". سمعت صوت أمي: هل هذا أفضل ما بوسعك؟ قلت لها

بكل قلبي، نعم، أمي، لأنني أعلم جيدًا ما تسأل عنه حقًّا وهو تجديد ميثاقنا بمواصلة الأحلام حتى في حقبة الحرب.

(تمّت)

إرفين، كاليفورنيا / 12 شباط 2009

شكر وعرفان

شكرًا لنجيري وا نغوغي، التي اقترحت كتابة الكتاب، وغلوريا لوميس، التي أخبرتني أنه لا يقبل التأجيل، وكيمونيا، مساعدي العام في "كينيت"، وكينيث مبوغو، الذي زوّدني بالصور والمعلومات عن أيام الدراسة، وتشاريتي وا موانغي، التي زودتني بمعلومات عن "كيامبا" و"بنانا هيلز"، وكما دائمًا، مساعدتي باربرا كلادويل، من أجل البحث في المكتبة والإنترنت والعمل التحريري.



نغوغي وا ثيونغو (1938-) روائي من كينيا. يُعدّ من روّاد الأدب الأفريقي. صدرت له كتب كثيرة بين الرواية والقصة القصيرة والسيرة الذاتية والمسرح والنقد، من أهمّها: لا تبكِ أيها الطفل (1964)، وبتلات الدم (1977)، وشيطان على الصليب (1982) التي كتبها أثناء اعتقاله بسبب إحدى مسرحياته. يهتم في أعماله بكتابة تاريخ روائي لبلده كينيا وصراعه مع الاستعمار وتحوّلاته الاجتماعية. نال أكثر من عشر درجات دكتوراه شرَفية، وعدّة جوائز أدبية رفيعة من بينها جائزة لوتس للآداب (1973) وجائزة ناشيونال أووردز الأمريكية (2012) كما ترشّح مرارًا لنيل جائزة بوكر البريطانية. يعيش حاليًا ويعمل في الولايات المتحدة الأمريكية، كاتبًا ومحاضرًا.

ريوف خالد، مترجمة من السعودية.
ترجمت إلى العربية عدّة روايات مهمّة، من بينها رواية آنا بيرنز «ملكمن»، وتوماس وولف «الفتى المفقود»، وشيرلي جاكسن «سكنى منزل التل».

يمنحنا نغوغي وا ثيونغو، في سيرة طفولته «أحلام في حقبة حرب»، لمحة مستفيضة عن طفولته التي قضاها بين إخوة كثيرين وأب له أربع زوجات أثْرَين خياله بالحكايات والقصص والمواقف. إذ بعد أن كُنّ يعِشْن حياة من التعاون والتفاهم، تنفَق مواشي الأب التي كانت عماد تجارته، ليتلبّس بعدئذ شخصيّة أخرى عنيفة وصعبة دفعت والدة ثيونغو إلى الهرب إلى بيت والدها، ليُطرد بعدها ثيونغو وأخوه من البيت. حدث ذلك في وقت كان فيه الشعب الكيني يقاوم المستعمر البريطاني، الذي لم يتوان عن استخدام أي سلاح، وخاصّة التعليم، للقضاء على اعتداد الشعب الكيني بثقافته ومقاومته له، حدّ إعلان حالة الطوارئ في البلاد منذ 1952 إلى 1959 لتحقيق هذا الغرض.

نتعرّف مع ثيونغو على قيمة المعرفة التي ضنّ بها الاستعمار على شعب كينيا، ويُطلعنا على نشأة التعليم النظامي والمدارس المستقلّة -المتمرّدة- في كينيا. لقد كان حلمه، والذي وعد والدته أن لا يوفّر جهدًا لتحقيقه، هو أن يتعلّم. لكن كيف لطفل أن يتشبّث بحلمه في ظلال الحرب العالمية الثانية وأزماته الأسريّة؟ تأتي مذكرات الطفولة هذه بمثابة شهادة ثيونغو للدفاع عن حقّه في أن يحلم، على الأقل، رغم كل الصعوبات، ودور والدته الكبير في حياته حتى أصبح يُعدّ من بين أكبر كتّاب أفريقيا على مستوى العالم.

ISBN 978-9948-468-54-7

9 789948 468547

روايات
REWAYAT